

على قيد الحياة

فبراير 2015

405

رواية

تأليف: يو هوا

ترجمة: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه



على قيد الحياة



على قيد الحياة

رواية صينية طويلة

تـــألـــيـــف: يو هوا

تـــرجـــمـــة: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مـــراجـــعـــة: لي جيه



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-442-9

رقم الإيداع: 2015/037

• على قيد الحياة
رواية



活 着
余华 著
作家出版社
010 年 10 月第一版

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2015م
إبداعات عالمية - العدد 405

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

مقدمة

الرواية التي بين أيدينا «على قيد الحياة» تعتبر ملحمة شعرية، تصور قصة الصراع والوجود، ولذا تترك في نفوسنا أثرا من الهمجية والوحشية، والخير والبر، لا يُمحى من ذاكرتنا، ولا تنال منه الأزمان. وأديبنا يو هوا يصف بطل الرواية (فو قوي) بأنه بطل الوجود الذي يتحلى بالصفة المميزة الوحيدة التي لم يستطع أحد أن يسلبها منه، وهي «إرادة الحياة».

نبحث عن آمالنا وتطلعاتنا واتجاهاتنا حسب الطريق الذي نعرفه في الحياة، ربما نخطئ، وربما نصيب؛ نكون على صواب أحيانا، ونكون على خطأ أحيانا أخرى، وقبل ان يقول الصينيون: «لا يحكم على الإنسان (أو له) حكمٌ نهائيٌ إلا بعد إيداعه النعش»، قال الناس في روما القديمة: «قبل الولادة وقبل الموت، لا يدري أحد منا ماذا ينتظره في أيامه المقبلة».

في الصين «الحياة» و«البقاء على قيد الحياة» هما وجهان لعملة واحدة، والحد الفاصل بينهما يكمن في تباين اتجاههما، وذلك بالنسبة للذين يعيشون في الطبقات الاجتماعية الدنيا.

وفي رواية «على قيد الحياة» نجد أن الحياة عبارة عن مشاعر وأحاسيس الإنسان تجاه تجاربه ومعاناته الشخصية، بينما البقاء على قيد الحياة يكون عادة عبارة عن راي المشاهد تجاه معاناة الآخرين وتجاربهم.

الشخصية المحورية في الرواية (فو قوي) تسرد قصتها في الحياة على الرغم من الصعاب والمعاناة والمشقات التي يجتازها ويعيشها.

والسـرد في الرواية بضمير المتكلم لأن فو قوي عندما يسـرد قصة حياته لا يحتاج إلى رأي الآخرين، بل يحتاج إلى مشـاعره وأحاسيسه الذاتية، ومن ثم هل ما يقدمه هو «الحياة»؟

ولو كان السـرد فـي الرواية بضمير الغائـب، ولو كان هناك رأي للمتفرج والمشاهد، إذن، فسيكون فو قوي في عيون القراء بمثابة من يبقى على قيد الحياة في خضم المعاناة والتعاسـة والكوارث.

زبدة القول، أن كلمة «الحياة» تتحلى بالقوة الكامنة الزاخرة، ولا يكمـن ذلك فـي الصراخ والهتاف، ولا فـي الهجوم، بل يكمن فـي القـدرة على التحمـل؛ تحمل المسـؤولية في الحيـاة، تحمل السـعادة والتعاسـة، تحمل الشـعور بالملل والضجر.. وغيرها من المشاعر والأحاسيس الناجمة عن الواقعية.

ولا غـرو أن تجعلنا شـخصية «فو قـوي» نعتقد أن الحياة تعد جـزءا من المشـاعر والأحاسـيس الذاتية لكل إنسـان، ولا تنتمي لأفكار أي إنسان آخر.

تبـدأ الروايـة بالمـزارع الفقير العجـوز «فو قوي» الـذي يقابل الجـوال الـذي يجوب ويطـوف الأرياف والقـرى ويجمع الأغاني الشعبية، ومن هنا يبدأ سرد حوادث وذكريات حياته الماضية التي تصف معالم الحياة الاجتماعية في الصين في القرن العشرين. فقـد قهـرت الصـين كل النكبـات والكـوارث الماضيـة فـي حقبـة السـتينيات مـن القـرن الماضي، وقد شـاهدها كاتبنا بـأم عينيـه، وتركـت آثارهـا الوخيمـة على أسـرته كلها، ولذا يعيـش فو قوي فـي سلسـلة متلاحقة من المعاناة والكـوارث والأزمات في الحياة،

لدرجة أنه لا يعرف سوى العذابات والصعوبات في حياته. ولكن في خضم هذه المعاناة والتعاسة، كان مفعما بالبهجة والتفاؤل؛ حيث يعتقد أن زوجته أفضل زوجة في العالم، ويعتقد أيضا أن أبناءه الأفضل في العالم، ناهيك عن حفيده، وبقرته، والأصدقاء الذين تقاسموا معه الحياة.

في عبارة أخرى، فإن الرواية تسرد المشاعر الحميمة بين الإنسان ومصيره، وهي المشاعر الأكثر تأثيرا في حياة الإنسان؛ لأنهما يتبادلان الشكر والامتنان، وفي الوقت نفسه يتبادلان الحقد والكراهية أيضا، كما لا يستطيع أحدهما التخلي عن الآخر، وليس في جعبة أحدهما سبب للشكوى من الآخر أيضا، ففي الحياة يعيشان معا على الدرب، وتنهال عليهما الأتربة والغبار، وفي الموت يذوبان في مياه الأمطار والأوحال والطين.

بالإضافة إلى ذلك، وفي الوقت نفسه، تسرد الرواية كيفية تحمل المشقات الضخمة كما يقول المثل الصيني: «قنطار معلق بشعرة»، وكما ذكر كاتبنا فإن: «الرواية تشرح كيف عاش الشعب الصيني أيام الحرمان والشقاء وتحمل الحياة الصعبة منذ عشرات السنين، وأدرك أن ما تسرده الرواية وما تقدمه أعمق من ذلك بكثير. والأدب على هذا النحو، يسرد الأشياء التي يدركها الأديب، وفي الوقت نفسه، الأشياء التي لا يدركها، وهنا قد حان الوقت الذي ينهض فيه القارئ ويعلن رأيه».

رأينا أن الرواية لم تفسح مجالا لليأس والقنوط في حياة البشرية، وأن الإنسان يعيش الحياة من أجل الحياة ذاتها، وليس من أجل أي شيء خارج نطاق الحياة.

لقد فجرت هذه الرواية قنبلة الشهرة لصاحبها في الشرق والغرب، وأحدثت ضجة أدبية كبرى في الأوساط الأدبية المحلية والعالمية، ولا يتسع المقام بداهة لسرد ردود الأفعال تلك، وحسبي هنا -وحسب القارئ العربي أيضا- أن نجتزئ بعضا مما ذكرته صحيفة «برلين اليومية» الناطقة باللغة الألمانية والصادرة في 31 يناير عام 1998، حيث ذكرت: «لأن الرواية عمل أدبي وعمل فني عظيم.. ولأن الكاتب مفعم بالعواطف سرد تاريخا شاقا مريرا ويصعب تصديقه، واستطاع أن يقدم للمرء المواساة.. ولأن المواساة التي نحصل عليها تنبثق من داخل شخصية البطل الفلاح العجوز الفقير تعد نوعا من الشعور الجميل.. ولذلك، تكمن قيمة هذه الرواية في أننا لا نستطيع أن نصفها من خلال كلمة أو عبارة في أية أطروحة، بل إن كلمة (عظيمة) أمام هذه الرواية تبدو ضئيلة».

أسلوب كاتبنا المنطقي موجز بليغ محكم، وقوي، ويغصّ بالمشاعر الشعبية، وخاتمة الرواية مؤثرة، ولا يمكن أن تنسى؛ حيث العجوز الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة ويدعى «فو قوي» يطلق على بقرته العجوز اسم «فو قوي» أيضا. والحاكي في الرواية يرى الرجل العجوز وبقرته يختفيان رويدا رويدا في الغسق، ويبقى وحيدا في الوجود، ويقول: «رأيت الأرض الفسيحة المترامية الأطراف تبرز للعيان صدرها المثمر، ويُعد ذلك مظهرا من مظاهر النداء يشبه نداء النسوة لأبنائهن، ودعوة الأرض للظلام أن يأتي»، وبالمثل وعلى غرار ذلك توجه رواية «على قيد الحياة» دعوة للقرّاء من خلال قوة الجمال البسيطة الساذجة.

خلاصة القول: الرواية رحلة أدبية طويلة تقودنا إلى الصين، وفي العالم العربي نرى أن الصين عالم كائن في أقاصي المعمورة، ويغص بالمشاعر الغرامية الوطنية. وإذا أردنا فهم البشر في هذا العالم بشكل أكبر، فإننا نقرأ المعلومات المعنية بهذا العالم في الصحف والجرائد، وإذا كان هدف هذه الرواية نشر المعلومات في هذا المجال، فإنها لا تتحلى بالقوة الجذابة الضخمة بالنسبة للقارئ.

إننا نتطلع ليس فقط لمعرفة أحوال علم السلالات والمجتمع، بل نأمل أن نفهم ما يمكن فهمه وإدراكه لمرحلة تاريخية معينة ومصير البشرية.

والروائي يو هوا لم يخيب آمالنا في هذين المجالين، فقد قدم للقارئ التقليدي تاريخ البشرية الثري، ولم يُغفل القارئ المثقف الجيد.

د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

فـــي العقد الأول من عمري في طفولتي، كان عندي وظيفة التجوال بـــين الأرياف أجمع الأغاني الشـــعبية، وطوال صيف أحد الأعـــوام، كنت أجوب وأطوف القرى، التي تكتســـي بنور الشـــمس وتغص بحشـــرات الحصـــاد وطيوره، مثـــل عصفور الدوري الذي يحوم في الســـماء، ويطيب لي احتســـاء شـــاي الفلاحين وتـــذوق طعمه المـــر، فأتناول في هـــدوء وبلا حرج سلطانيتي التي أحتسي فيها الشـــاي والمترسب على جدرانها من آثاره، وأعرج على برميل شاي الفلاحين تحت الشجرة على الممر الترابي، وأغرف شايا واحتسيه، كما أملأ إبريقي بالشاي حتى آخره، وأتحدث بكلمات عابرة مع الرجال المشـــتغلين في الحقل، وأنصرف إلى غايتي وســـط قهقهـــات الفتيات اللاتي ينخرطن فـــي الضحك حتى ذقونهن بمنـــأى عن الأنظار عند رؤيتـــي، ولا أعيرهـــن اهتماما. وقضيت فترة مـــا بعد الظهر كلهـــا أتجاذب أطراف الحديث مع عجوز يحرس حقل البطيخ، والتهمـــت البطيـــخ التهاما، وامتلأت بطنـــي بالبطيخ أكثر من أي مرة ســـابقة منذ ولادتي، وعندما نهضـــت وهممت بتوديع العجوز، شعرت فجأة بأن خطواتي ثقيلة مثل امرأة حُبلى تجر أقدامها، ثم جلســـت على عتبة الباب مع امرأة في سن الجدَّة تصنع صندلا قشـــيا من أجل أن ألســـبه عندما أشدو بأغنية «حُبلى في شهر أكتوبر».

الأصيـــل هـــو الميقات الأكثر شـــغفا وحبا إلى نفســـي؛ حيث أقعـــد قبالة بيوت الفلاحين وأحدق فيهم وهم يحملون ماء البئر وينثرونه على التراب حتى يخمدوا الغبار المتطاير، وأشعة الشمس الغاربة تخترق أغصان الأشجار وتسطع على أديم الأرض، وأهزّ بالمروحة التي أعطوني إياها، وأتذوق خضراوات مملحة مفرطة فـــي التمليح يتناولها هؤلاء الفلاحون، وأنعم النظر في رهط من الفتيان والفتيات يتحدثون ويتحدثن.

ألبس قبعة قشـــية ونعـــلا، وتتدلى خلف ظهري منشـــفة من حزامي الجلدي، والتي جعلتها مثل ذيل يضرب مؤخرتي.

كانت تنتابني نوبات من التثاؤب طوال اليوم، وأسير بخطوات وئيدة على الممـــرات الترابية بين الحقـــول، ووقع خطوات نعلي تقعقع وتهيـــل الغبار على تلك الممرات ويتطايـــر في الهواء مثل عربة تندفع بسرعة.

وطئـــت أقدامـــي كافة الأصقاع؛ ولا أعـــرف على وجه الدقة القرى التي غشـــيتها، ونظيرتها التي لم أزرْها، وكان يترامى إلى مسامعي دائما هُتاف الأطفال عندما أدلف إلى القرية قائلين:

«جاء الرجل الذي يتثاءب دائما وأبدا».

يعلم القرويون آنذاك أن قاص القصص المُنسقّة ومغني أغاني التزلف والتملق قد غشـــي قريتهم مرة أخرى، وفي الحقيقة فإن تلك القصص والأغاني انبثقت من داخلهم، وتعلمتها منهم؛ حيث إنني أفطن إلى كل ما يســـتحوذ على اهتمامهم، وهو أيضا محل اهتمامـــي طبعا. وقابلت مســـنّا يبكي بحرقـــة يجلس على الممر الترابي وأصيب برضوض وكدمات في وجهه الذي تعلوه أمارات الحـــزن والكآبة وجعلت حالته تهز المشـــاعر، ورفع وجهه عندما

رآني مقبلا نحوه، وارتفعت نبرة بكائه، وسـألته مَنْ ضربه ضربا مبرحا هكذا؛ فأخبرني وهو يستشـيط غضبا وينبش بقع الطين في أرجل بنطلونه، أن ابنه العاق أوسـعه ضربا، وعندما سـألته أيضا لماذا نجله ضربـه؟ راح يراوغ في كلامه، وأدركت لتوي أنه يرتبط بعلاقة جنسـية غير شرعية مع زوجة الابن. وفي إحدى الأمسـيات، عندما كنت أسرع السير في الليل، أضأت مصباحا يدويا وسـلطت ضوءه على فتاة وفتى متجردين من ملابسـهما علـى مقربة من بركة ويمارسـان الرذيلة، وظلا على هذه الحال دون تبديـل أو تغيير، على الرغـم من نور مصباحي الذي فضح أمرهما، ورأيت فقط يدا فوق فخذ ضخم تحك الجلد، فأطفأت المصباح في عجالة وانصرفت إلى غايتي.

ينهمـك الفلاحون بعملهم في الظهر، وقد عرجت على غرفة بابها مفتوح على مصراعيه بحثا عن رشفة ماء، فاعترض طريقي رجـل مرتدٍ بنطلونـا قصيرا، وجرني إلى جـوار البئر، ومنحني رعاية واهتماما شديدين، وسحب برميل الماء، ثم ما لبث أن هرع إلى غرفته مثل الجرذ.

هـذه الحوادث لا تنطـوي على جديد، غير أنهـا كثيرة مثل الأغاني الشـعبية التي أسـتمع إليها، وعندما أدرت بصري في كافـة البقـاع التي تزخر باللـون الأخضر، أدركت بشـكل أكبر السبب الذي يجعل المحاصيل مزدهرة وناضرة على هذا النحو.

في صيـف ذاك العام، عبرت عن مشـاعري وأحاسيسـي، وتبادلـت أحاديث الهوى والجوى عندما قابلت فتاة تسـر النظر وتشـرح الصدر، وخداها خمريان يشرقان نورا أمام عيني حتى اليـوم، وعندما وقعت عيني على هذه الفتاة كانت جالسـة على

العشب الأخضر على ضفة النهر، وأكمام بنطالها مثنية عدة طيات، وتلهو بقصبة بامبو وهي ترعى سربا من الأوز السمين، وكان يتراوح عمرها بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، وقد قضينا فترة بعد الظهر في ظل الشمس اللاهبة، والخجل يعلو قسماتها، وتطأطئ رأسها إلى أقصى ما تستطيع في كل مرة تعلو الابتسامة ثغرها، وأرمقها بنظرة فاحصة وهي تنزّل ثنيات بنطلونها خلسة، وتحاول جاهدة أن تخفي أقدامها العارية في أعشاب كثيفة ملتفة.

كنت حذرا في كلامي وقتئذ، وأغريتها بفكرة أن أصطحبها ونذهب سويا للهو والترفيه، واندهشت الفتاة وحبذت هذه الفكرة أيضا، وكنت أتحدث بكلمات نابعة من قلب صادق ونية خالصة عندما جاشت مشاعري بعد ظهر ذلك اليوم، وشعرت بأن السعادة تملأ أقطار نفسي وهي بجانبي، ولم يدر بخلدي عواقب هذا النصر فيما بعد. ولكن جفلت نفسي وارتعدت عندما حضر أشقاؤها الثلاثة من ذوي العضلات المفتولة، وارتأيت بنفسي أنه ينبغي أن ألوذ بالفرار حتى لا أصبح زوجها بالإكراه.

عندما قابلت الرجل العجوز (فو قوي)، كان موسم الصيف يطرق الأبواب، دلفت إلى أسفل شجرة ناضرة وارفة من بعد ظهر ذاك اليوم؛ حيث جمع محصول القطن في الحقول، وبضع فتيات يتلفعن بمناديل الرأس وينزعن عيدان الحطب، وتهتز مؤخرتهن وهن يخلصن تلك العيدان من آثار الطمي. خلعت قبعتي، وأخذت منشفتي من خلف ظهري، وجففت وجهي الذي يتصبب عرقا، وكانت توجد بركة بجواري تفيض بمياه النهر الأصفر وتسطع عليها أشعة الشمس، فاقتربت

من جذع الشـــجرة وجلســـت قبالة هذه البركة، ثم شعرت بأن النوم يداعب جفوني، فتمددت على العشب الأخضر، وغطيت وجهـــي بالقبعة، وجعلـــت حقيبة الظهر وســـادتي، وأغمضت جفوني تحت ظلال الأشجار.

أنـــا في العقد الأول من عمري وفي مبدأ فتوّتي، تمددت بين أوراق الأشجار والأعشـــاب الكثيفة الملتفة، واستغرقت في النوم لمدة ســـاعتين. وفي تلك الأثناء، تســـلقت ســـاقي بضع نملات، فمددت إصبعي في سُباتي العميق وطردتها شر طردة حتى نأت بعيـــدا. وبعد ذلك، يبدو أن عجوزا حط رحاله على ضفة النهر؛ حيث دفـــع طوفا خيزرانيا على صفحة الماء، وصرخ بصوت عال من مكان قصي، وكان صراخه وصياحه يجلجل في شـــتى البقاع بوضوح، ففزعت في أحلامي، وصحوت من نومي، فرأيت عجوزا يروّض ويداعب بقرة هرمة في الحقل المجاور.

وربمـــا البقرة المســـنّة التي تحـــرث الأرض تشـــعر بالإعياء الشـــديد، فقد نكست رأســـها، وظلت واقفة وقتا طويلا هناك، حيث اتكأ العجوز على المحراث، وظهره عار، ثم سمعته يخاطب البقرة بصوتٍ عال قائلا:

«البقـــرة تحرث الأرض، والكلب يحرس البيت، والراهب يقوم بالاستجداء، والديك يعلن انبلاج الفجر، والمرأة تضطلع بالنسيج، أتوجد بقـــرة لا تحرث الأرض؟ وتلك حقيقة منذ الأزل، يا بقرة، انطلقي إلى الأمام».

يبدو أن البقرة المنهمكة أدركت الخطأ شيئا ما بعد أن سمعت صراخ العجوز، فرفعت رأسها وجرت المحراث ومضت قدما إلى الأمام.

وقع بصري على بشـــرة ظهــر العجوز الســمراء وجلد ظهر البقرة الأسمر، وكلاهما بدأت شمس حياتهما تميل نحو المغيب، ويقلبـــان تربة هذه الأرض القديمة المتحجرة مثل تواثب الأمواج. وبعد ذلك، ســمعت العجوز يخشخش صوته، ويجعل المرء متأثرا ويصـــدح بالأغاني القديمـــة، حيث غنّى أولا مقدمة موســيقية طويلة مفعمة بالأنين والشكوى، ثم غنّى جملتين:

«الإمبراطــور يتخذنـــي صهـــرا، والطريق بعيـــد بعيد جدا، ولا أسافر».

العجـــوز يرغب عن أن يكون صهـــرا للإمبراطور لأن الرحلة طويلة وبعيدة، وزهوه بنفسه جعلني أضحك من غير وعي. صرخ العجوز مرة أخرى، ربما لأن البقرة هدأت من خطواتها، قال:

«لا يتوانى عن العمل (أرشـــى)، و(يوتشـــنغ)، ويحرث الأرض جيدا كل من (جياتش)، و(فينغ شيا)، وكذلك (كوقين)».

هل يطلق العجوز تلك الأسماء كلها على بقرة واحدة؟ تقدمت نحو حافة الحقل بفضول، وسألت العجوز الذي كان يقترب مني:

«ما الأسماء التي تطلقها على هذه البقرة؟».

أسند العجوز يده على المحراث، ونهض واقفا، ورمقني بنظرة فاحصة من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، ثم سألني:

«أأنت من أهل الحضر؟».

فأومأت برأسي، وقلت: «نعم».

ثم أردف والزهو يملأ جوانحه: «أدركت أنك من أهل الحضر من النظرة الأولى».

وعدت فسألته: «ما الأسماء التي تُطلق على هذه البقرة؟».

أجاب العجوز: «اسم هذه البقرة (فو قوي)، لها اسم واحد فقط».

قلت: «ولكن سمعتك تناديها بعدة أسماء في التو».

ضحك العجــوز مغتبطا قائلا: «أواه..»، ثــم لوح بيده نحوي بصورة محيرة ومراوغة، وعندما دنا مني طفق يتكلم، ثم ما لبث أن أمسك عن الكلام، ولمح البقرة ترفع رأسها فوبخها قائلا:

«أخفضي رأسك ولا تختلسي السمع».

نكســت البقرة رأســها حقا، وخاطبني العجوز آنذاك بصوت خفيض، وقال:

«أطلق على هذه البقرة عــدة أســماء خشــية أن تدرك أنــه لا يوجد سواها يحرث الأرض، وتشعر بالغبطة حقا وتحرث بهمة ونشــاط عندما تسمع أن هناك أبقارا أخرى تضطلع بهذا العمل أيضا».

ترتســم الابتســامة على وجه العجوز الأســمر، ويفيض قوة وحيوية، وتتراقص تجاعيده طربــا وفرحا، وتغص بالطمي مثل الممرات الترابية المنتشرة بين الحقول.

بعد ذلك، جلس العجوز معي تحت تلك الشجرة الوارفة، وبعد الظهر، حيث تنشــر الشمس أشــعتها على الكون كله، حكى لي قصة حياته.

كان والــدي يغدو ويروح هذا المكان قبــل أربعين عاما ونيفا، مرتديا الألبســة الحريرية الســوداء، ويعقد دائمــا يديه خلف ظهره، وعندما يهم بالخروج يقول دائما ليّ:

«اذهب إلى أرضي وتفقد أحوالها».

وعندمــا يتجول والدي في أرضه ويراه العمّال، يقبضون على الفؤوس بأيديهم ويقدمون له التحية وينادونه قائلين:

«يا سيدنا».

ينادي أهل الحضر والدي بلقب «مستر» عندما يسافر إلى المدينة، ويتمتع بالمهابة ويصون كرامته، بيد أنه عندما يتبرز يشبه الفقراء، حيث لا يحب أن يتغوط في برميل البراز بجوار السرير في الغرفة، بل يطيب له أن يتبرز في العراء مثل السوائم، ويتجشأ عندما يهبط الغسق كل يوم، وتجشؤه يشبه نقيق الضفدع، ويغادر الغرفة ويتقدم بخطوات وئيدة إلى جرة البراز في مدخل القرية.

والدي يمقت الأوساخ على حواف جرة البراز، فيركلها بقدمه ويجلس القرفصاء فوقها. وقد بات والدي طاعنا في السن، وكذلك برازه أيضا، فلا يخرج بسهولة ويسر، ويترامى إلى مسامع الأسرة كلها صوت صراخه وهو يتبرز في مدخل القرية.

ظل والدي يتغوط دائما على هذا النحو لعشرات السنين، كما كان قادرا على القرفصاء طويلا فوق جرة البراز عندما بلغ الستين عاما وأكثر؛ حيث كانت ساقاه تتمتعان بالقوة مثل مخالب الطائر، وكان يتلذذ بمشهد الظلام يرخي سدوله على الكون ويكسو أرضه، وكانت ابنتي (فينغ شيا)، التي يتراوح عمرها بين الثالثة والرابعة، تهرول غالبا إلى مدخل القرية وترقب جدها وهو يتبرز. لقد بلغ والدي من العمر أرذله حقا، وترتعش ساقاه عندما يقرفص فوق جرة البراز، وتسأله فينغ شيا:

«يا جدي، لماذا ترتجف؟».

ويجيبها قائلا: «بسبب هبوب الريح».

وفي تلك الأيام، لم تشهر الأسرة الإفلاس المادي، فأسرتنا ولقبها (شيوه) تمتلك أكثر من مئة مو (المو: وحدة قياس صينية تساوي 0.0667 هيكتار)، وبيتنا مساحته تمتد من هنا إلى مدخنة ذلك المصنع، ووالدي وأنا يعرفنا القاصي والداني،

فوالدي السـيد الكبير (كوا)، وأنا السـيد الصغير (كوا) أيضا، ووقع أقدام حذائنا على الطريق يشبه ارتطام العملات النحاسية بعضها ببعض. وزوجتي (جياشين) هي ابنة تاجر أرز في المدينة، وتنتمي إلى سليل أسرة ثرية، فالثري يتزوج من ثرية مثله، ويعني ذلك تكديـس الأموال، وتتكوم العملات النحاسـية بعضها فوق بعـض، وتتدفق وتصفق تصفيقا، ولم أسـمع طيلة أربعين عاما صوت صفق هذه العملات.

أنا الابن المبذر في أسرة شيوه، وينعتني والدي بأنني خطيئته وجريرته.

تعلمت في الكُتّاب عدة سنوات، وشعرت بأسعد لحظات حياتي عندما كان يطلب مني مسـتر (سيشو)، الذي يرتدي جلبابا، أن أقـرأ بصوتٍ عال. ونهضت واقفا، وأخـذت كتابا بالحرز النافر معنونا بـ «مقالة ألف رمز»، وخاطبت المستر قائلا:

«أنصت باهتمام شديد، الأب يقرأ عليك مقطوعة من الكتاب».

يخاطب مسـتر سيشـو البالغ من العمر سـتين عاما والدي قائلا:

«السيد الصغير في أسرتك شب عن الطوق، وفي مقدوره أن يكون متسكعا».

كان والـدي يردد دائما أنه لا أمل في إصلاحي وتقويمي منذ نعومـة أظفاري. ذكر المسـتر أنني حالة ميئـوس منها ولا رجاء مني، وأعتقد الآن أن كلاهما وأقوالهما صائبة، ففي بادئ الأمر لم يدر بخلدي أن أفكر على هذا النحو، بل كنت أفكر بأنني ثري، وأنا عود بخور يفوح أريجه داخل أروقة أسـرة شيوه، وإذا خمد لهيبه، انعدمت ذرية هذه الأسـرة.

لم تطأ قدماي الأرض منذ التحاقي بالكُتَّاب، حيث كان عامل أجير في بيتنا يحملني على ظهره، وعندما ينتهي الدرس، ينحني في أدب جـم ويجلس القرفصاء هناك، وأعتلي صهوة ظهره، ثم أربت على رأسه صائحا:

«يا تشانغ قين، أسرع خطواتك».

يهرول الأجير تشانغ قين، وأنا قابع في أعلى جسمه أترنح يُمنة ويُسرة مثل عصفور الدوري فوق قمة الشجرة، وأبلغه برغبتي قائلا:

«يا تشانغ قين، انطلق كأني محمول على جناحي طائر».

أسَرَع الأجير في السير، وكانت خطواته تقفز في الهواء كأنه طائر يلتهم الأرض التهاما.

كان يطيب لي أن أهرول إلى المدينة دائما عندما بلغت مبلغ الرجال، وكنت في العادة أعود أدراجي إلى بيتي بعد عشرة أيام أو بعد خمسة عشر يوما، وأرتدي الثياب الحريرية البيضاء، وأقوم بترجيل شعري الناعم حتى يبدو لامعا أملس، وأتهندم أمام المرآة، حتى أتأكد أن رأسي يتشح باللون الأسود اللماع، وتبدو هيئتي مثل الأثرياء.

كما كنت أتلذذ بالولوج إلى دار البغاء، وأصغي إلى بعض الفتيات المدللات المغناج اللاتي يثرثرن ويدندنّ طوال الليل، وعندما تترامى إلى مسامعي هذه الأصوات، أشعر بأنها تحك جلدي، والمرء ما إن يغشَ الماخور فليس أمامه مناص من لعب القمار، ففشاية المواخير والمقامرة يجمعهما رابط لا تنفك عراه مثل التئام الذراع بالكتف، وفيما بعد، شغفت شغفا شديدا بالقمار، فالماخور للتسرية عن النفس فقط، مثلما أن احتساء

الكثير من الماء يدفع المرء إلى دورة المياه، ويكون السلوك المعقول هو القبول، أما القمار فيختلف تماما، فأنا أشعر بالحزن والكآبة وأعصابي متوترة، ولا سـيما أن توتر الأعصاب يشـعرني بحالة من الطمأنينة والراحة تمنعني من أن أعبّر عما يعتمل داخلي.

عملت في الماضي راهبا لمدة يوم واحد أقرع جرسـا سماويا، وأشـعر بأن معنوياتي عالية وقوتي غائرة طوال اليوم، كما أشعر بالتقلقـل والاضطراب في البكـور يوميا من جـراء كيفية قتل الوقـت وتضييعـه. وكان والدي - في أغلـب الأحايين - يتنهد في أسـف وحزن، ويؤنبني لأنني يعوزني مجد الأجداد، وقد دار بخلـدي أن هذا المجد ليس وقفا عليّ بمفردي، وقلت لنفسـي: «ما الحجة التي يستند إليها ويجعلني أهجر متعة الأيام الجميلة، وأنخرط في التفكير بالأشـياء التي تستنفد قواي وأصنع مجدا للأجداد. وزيادة على ذلك، كان والدي في عنفوان شـبابه مثلي تمامـا، فأملاك أجدادي بلغت أكثر مـن مئتي مو، وعندما آلت إليه أحدث بها خسارة مادية، ولم يتبق منها غير مئة مو ونيف».

قلت لوالدي:

«لا داعي للقلق والاضطراب، ابني يضفي إشـراقا على مجد الأجداد».

مـن ثمّ، ينبغي إحـراز بعض المآثر للجيـل القادم، وضحكت والدتي ضحكة مكبوتة عندما سـمعت هذا الـكلام، وأخبرتني خلسـة بأن والدي في شرخ شـبابه كان يتحدث عن جدي بمثل تلك الكلمات، وأدركت حقيقة هذا الأمر بجلاء، ومفاده أن العمل الذي ليس في مسـتطاع والدي إنجازه يكرهني على الاضطلاع بتحقيقـه، وكيـف يمكن أن أعده بذلك؟ ففـي ذلك الحين، كان

ابني مازال في أحشـــاء أمه ولم ير نور الدنيا بعد، وابنتي أكملت لتوها أربع ســنوات، وزوجتي جياشـــين حُبلى بابني يوتشنغ في الشـــهر الســـادس، وهيئتها تتســـم ببعض المظاهر الغثة طبعا، فهي تباعد بين رجليها عندما تمشـــي، وتخطـــو خطواتها أفقيا ولا تتقدم إلى الأمام. جافيتها قائلا:

«يا جياشـــين، بطنـــك تنتفخ وتكبر مثل الدائـــرة عندما تهب الريح».

لم ترد عليَّ جياشين بكلام غليظ، بيد أنها شعرت بالحزن في ســـويداء قلبها بعد أن ســـمعت كلام امتهن كرامتها، ولم يكن في وسعها غير أن تقول بصوتٍ خفيض:

«ليس بسبب هبوب الريح».

كنـــت أرغب حقا في إضفـــاء حالة من الإشـــراق على مجد أجـــدادي منذ أن لعبت القمـــار، وأعتزم أن أبذل قصارى جهدي وأســـترد أكثر من مئة مو مـــن الأراضي فقدها والدي، وفي تلك الأيام، ســـألني والدي عن حياة المجون واللهو التي أعيشـــها في المدينة، فأجبته قائلا:

«لا أعرف الآن حياة اللهو والاستهتار، أشتغل بالتجارة».

فبادرني متسائلا أيضا:

«أي تجارة تشتغل بها؟».

استشاط غضبا عندما سمع إجابتي لأنه في عنفوان شبابه كان يجيب على أســـئلة جـــدي بنفس الطريقـــة، ويعرف أنني ألعب القمار، فخلع حذاءه القماشي، وطفق يضربني، فحاولت تجنب ضرباته، وانزويت يُمنة ويُســـرة اعتقـــادا أنه يوجه إليّ عدة ضربات وينقضي الأمر، ولكن والدي الذي يســـتمد قوته

من سعاله، كان كلما ضربني ازداد قسوة ووحشة، ولكنني لست ذبابة أسلم له نفسي ويشبعني ضربا كما يشاء، فأمسكت يده بشدة قائلا:

«يا والدي، يا ملعون، يكفي إلى هذا الحد، أصفح عنك، لعنك الله».

قبضت على يده اليمنى، فراح يخلع فردة الحذاء اليمنى بيده اليسرى، فلا يزال يستمرئ ضربي، وأمسكت يده اليسرى بقوة أيضا، ولم أسمح له بأن يتحرك قيد أنملة هكذا، وما لبث أن أخذ يهذي في ثورة غضبه ردحا طويلا، ثم انفجر صائحا:

«أنت خطيئة».

فقلت:

«لعنة الله عليك».

ودفعته بيدي حتى تردى في أحد أركان الغرفة.

في عنفوان شبابي، كان القمار والزنا في حياتي مثل المأكل والمشرب، وكنت أتردد دائما على ماخور شهير يطلق عليه (تشينغ لو)، ويحوي مومسا ممتلئة القوام جذبتني جذبا وخطفت قلبي، وعندما تمشي تغدو وتروح مثل مصباحَي التنين المعلقَين أمام الماخور، وعندما تتمدد على السرير وتتمطى في الشمال واليمين، تظهر كأنها تنام على ظهر مركب وتتمايل على صفحة اليم، وكنت أطلب منها دائما أن تحملني على ظهرها للتجوال والتنزه في الشوارع، وأعتلي ظهرها مثل مَن يمتطي صهوة جواد.

حمي (أبو زوجتي)، المعلم تاجر الأرز ويدعى (تشين)، يرتدي جلبابا حريريا أسود، ويقف وراء بسطة في متجره.

أشـــد شـــعر العاهرة، وأطلب منها أن تكف عن السير عندما أمر أمامه كل يوم، وأنزع قبعتي محييا إياه قائلا:

«هل أنت مُعافى في الأيام الأخيرة؟».

ويبدو وجه حمي آنذاك مثل البيض المُكلَّس، أما أنا فأنخرط في ضحك شديد وأمشي في طريقي.

بعـــد ذلك، أخبرنـــي والدي بأنني أثـــرت غضب حمي مرات عديدة حتى سقط مريضا، فقلت له:

«لا تخدعنـــي، أنت والـــدي لم يصبك الغضـــب بالمرض، وإذا مـــرض حمي فهل في جعبته ما يثبت أنني الســـبب في مرضه؟».

أعرف أن حمي يخشى بأسي، وعندما أمر أمام متجره راكبا فوق ظهر تلك العاهرة، فإنه فطن أريب يهرول إلى داخل الغرفة على حين غـــرة مثل الفأرة، ولا يجرؤ أن يرانـــي، ولكنه يحييني دائما عندما أمر أمام باب متجره، وأنا بصوتٍ عالٍ مجلجل أدعو له بالخير والصحة الجيدة.

وأكثر المشـــاهد إثارة في المدينة كانت عندما استسلم الجنود اليابانيـــون الجبناء، واســـتعد جيش الكرومنتانـــغ(*) لأن يدخل المدينة ويسترد الأراضي المسلوبة.

كانت المدينة تعج بالضوضـــاء والضجيج في ذاك اليوم حقا، فالنـــاس يصطفون على جانبي الطرقات فـــي المدينة، ويلوحون بالأعلام الملونة في أيديهم، وتظهر فوق المتاجر رايات مائلة لحزب الكومنتانغ لونها سماوي ويتوسطها قرص الشمس الأبيض. كما

(*) الكرومنتانغ: حزب سياســـي برجوازي، تأسس في أغسطس عام 1912 في مدينة شنغهاي، ويعتبر صن يات صن من أبرز زعمائه. سيطر هذا الحزب على الحكومة الصينية من عام 1928 إلى عام 1949، وعلى الحكومة في تايوان بعد عام 1949 [المترجم].

يعلق متجر حمي صورة كبيرة للقائد العسكري الكبير تشانغ كاي شيك(*) على درفتي الباب، ويقف ثلاثة شبان يعملون في متجره أسفل جيب بذلته العسكرية لهذا القائد على الجانبين الأيمن والأيسر.

وقضيت ليل ذاك اليوم في لعب القمار داخل ماخور تشينغ لو، وشعرت بدوار شديد في رأسي، كأنني أحمل أكياسا من الأرز فوق مناكبي، وتذكرت أنني لم أرجع إلى بيتي منذ نصف شهر، وتفوح رائحة كريهة وقذرة من ملابسي، ولذا جرجرت تلك العاهرة من فوق السرير، وطلبت منها أن تحملني على ظهرها، كما طلبت أن ترافقني محفة في الخلف، وعندما وصلت إلى البيت تركتها تركب المحفة وتعود أدراجها إلى الماخور.

حملتني العاهرة فوق ظهرها وسارت نحو بوابة المدينة، وقالت إن إله الصواعق لا يؤذي الناس وهم نيام، ولكنني أيقظتها عندما كانت تغط في سُبات عميق، ووصفتني بأن قلبي أسود، فدسست في صدرها عملة نقدية فضية حتى أخرست لسانها، وشعرت بأن معنوياتي عالية عندما دنوت من هذه البوابة حيث يغص جانبا الطريق بالناس.

وكان حمي رئيس الغرفة التجارية في المدينة، ورأيته من بعيد يتوسط قلب الشارع، ويصيح قائلا:

«الجميع يقف في ثبات راسخ القدم، ويصفق ويهتف عندما يحضر جيش الكومنتانغ».

(*) تشانغ كاي – شيك: جنرال وسياسي صيني (1887-1975) ينتمي إلى عائلة برجوازية، أصبح من أبرز الزعماء إبان الحرب العالمية الثانية، وحضر مؤتمر القاهرة (1943) مع روزفلت وتشرشل. وكان يمثل حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي اتصفت بها الفترة الانتقالية في التاريخ الصيني الحديث [المترجم].

أخذ الناس يقهقهــون بصوتٍ عال عندما وقعت عيونهم عليّ ويهتفون:

«لقد حضر، لقد حضر».

جال بخاطــر حمي أن جيش الكومنتانــغ حضر، فتنحى عن الطريــق جانبا في طَرفة عين، وضغطت بقدمي على ظهر الفتاة مثل من يعتلي صهوة جواد ويهزه، وقلت لها:

«هرولي، أسرعي الخطوات».

ينخرط الناس على جانبي الطريق في الضحكات والقهقهات، وتحملني المومس على ظهرها وتلهــث وتقفز في الهواء، وتصب اللعنات عليّ قائلة:

«فـــي الليل تجثو على صــدري، وفي النهــار تمتطي ظهري، وقلبك أسود، أنت تدفعني دفعا إلى الموت».

وارتســمت ابتســامة عريضة على شــفتي، وأومأت برأسي محييا حينــا بعد حين الجماهير الضاحكة على جانبي الطريق، وعندما اقترب حمي، جذبت شعر المومس قائلا:

«قفي، كفي عن السير».

أقدامها تتســمر بالأرض وهي تتوجع، وخاطبت حمي بصوتٍ أجش:

«حمي رجل عظيم، وأشرف أن أقدم له تحية الصباح».

في هذه المرة جعلت حمي يفقد ماء وجهه حقا، فقد كان يقف مشــدوها منزويا هناك آنذاك، ويهذي بقــوة، وبعد هنهية، قال بصوت متهدج:

«يا سيدي، انصرف من هنا بسرعة».

وسمعت صوته متغيرا تماما.

تعرف زوجتي جياشـــين أنني أقدم أعمالا تجذب الأنظار فـــي المدينة، وهـــي رقيقة القلب، ومقدرتـــي على الزواج من امـــرأة فاضلة مثلهـــا تعتبر بمثابة مكافأة لـــي، حيث حياتي السابقة كانت مثل كلب ينبح طوال حياته، وهي أيضا تتحمل الشدائد وتتقبلها بصدر رحب، والخوف يدق في قلبها عندما أتصرف تصرفا طائشـــا في الخـــارج، ولكنها لا تنبس ببنت شفة مثل والدتي.

فـــي الواقع، تصرفاتي فـــي المدينة تعتبر طائشـــة بصورة مفرطة، ولذا جياشـــين تشـــعر بالقلق والاضطراب، ولا يمكن أن تـــذوق طعـــم الطمأنينة من جراء القلـــق والارتباك اللذين يسيطران عليها.

ذات يـــوم، رجعت أدراجي إلى بيتـــي قادما من المدينة، وحالما جلســـت، حملـــت جياشـــين بيدها أربعـــة أطباق مـــن الخضار والضحـــك يملأ ثغرها، ووضعتها أمامـــي، كما صبت لي الخمر أيضا، وجلســـت بجـــواري تنتظـــر أن أتناول الطعام. وشـــعرت بالغرابـــة من جـــراء ضحكاتها وقهقهاتهـــا، ولا أدري ما الحدث السعيد الذي صادفها، وقلبت الأمر في ذهني، ولا أتذكر الحدث الذي شـــهده ذاك اليوم. ســـألتها، ولم تجب، وراحت تنهمك في الضحك وتحدق في وجهي.

كانت تلك الأطباق الأربعة من الخضار، وقامت جياشين بطهي أنواع مختلفة من الخضراوات، ولكن عندما تتناولها تكتشـــف أن تحتهـــا قطع متباينة الأحجام من لحـــم الخنزير، ولم يلفت ذلك اهتمامي في البداية، ولكن عند تناول سلطانية الخضار الأخيرة، كان في قعرها قطعة من لحم الخنزير أيضا. ألجمتني الدهشة،

ثم ضحكت عند النظر إلى تلك الأطباق حيث إن قعرها متشابه، وقلت لها:

«أدرك هذه الحقيقة أيضا».

أعرف مغزى هذه الحقيقة؛ تتباين ملامح النساء في النصف الأعلى، وما يدور في ذهني أن ملامحي مختلفة، ويُعد ذلك أمرا غريبا حقا.

زوجتي جياشين امرأة من هذا القبيل، ولا تشعر بالرضا نحوي، وتخفي ملامح وجهها مشاعر عدم الرضا، وتضطلع بالوسائل التي تنطوي على اللف والدوران في كلامها من أجل إثارتي واستفزازي، وأنا أصر على التراوح بين الخشونة والنعومة، ولا أعرف طعم الهزيمة، فحذاء والدي القماشي وأطباق جياشين لا يستطيعان فرض السيطرة علي، فأنا أهوى الهرولة إلى المدينة، وأحب أن أعرج على دار البغاء، ولا تزال والدتي تدرك ما يعتمل داخل قلوب الرجال، وتخاطب جياشين قائلة:

«الرجال مثل القطط يسيل لعابهم نحو الأنثى».

لم تكن كلمات والدتي دفاعا عني، بل كانت تنبش ماضي والدي المؤلم، ويجلس والدي فوق الكرسي، وعندما يسمع تلك الكلمات يزرّ عينيه ويصبحان مثل شقّ الباب، ويضحك بهدوء.

كانت تصرفات والدي متهورة في عهد الشباب، ولم تستقم أعماله إلا عندما بات طاعنا في السن.

ألعب القمار في مبنى تشينغ لو، نلعب عادة أجارة الماجيانغ، والدومينو، والنرد. وكانت الخسارة من نصيبي في لعب القمار، وكلما خسرت ينخرط تفكيري في استعادة مئة مو (*)، والتي

(*) المو: وحدة مساحة صينية تعادل 0.0667 هيكتار [المترجم].

أكثرها خسرها والدي في شبابه. في البداية، عندما أخسر في القمـــار أدفع النقود على طاولة القمار، وعندما أصبحت جيوبي خاوية، سرقت حُلي والدتي وزوجتي، بل حتى سرقت عقد ابنتي فينغ شـــيا. وفيما بعد، كنت أتعامل بالديـــن بوضوح، والدائنون يعرفـــون الأوضاع المالية لأســـرتي، ومن ثمّ ســـمحوا لي التعامل بالديـــن، ولا أعرف عدد المرات التي خســـرت فيها منذ التعامل بالديـــن، ولم يلفـــت الدائنون انتباهي إلى ذلـــك، وأنا أقدح زناد ذهني يوميا، وأفكر بقلق في أرض أســـرتي ومســـاحتها أكثر من مئة مو.

اســـتمرت هـــذه الحال حتى بعـــد التحرير، حتـــى عرفت أن الكَسَبة في القمار يضطلعون بالخدع، ويُلقى باللائمة علي لأنني أخســـر دائما ولا أكســـب؛ إنهم يحفرون حفرة ويجعلونني أقفز فيها. وكان هناك رجل يدعى مســـتر (شـــين) في مبنى تشـــينغ لـــو وقتئذ، يقترب من الســـتين عاما، تومض عينـــاه مثل القط، ويرتدي جلبابا أزرق، وظهره مســـتقيم كالألف، يجلس دائما في أحـــد الأركان في الأوقات العادية، ويغمض أجفانه ويأخذ غفوة، وينتظر حتى يتراكم الرهان فـــوق طاولة القمار، ويتنحنح وقتئذ عـــدة مرات، ويترجل بهدوء وأناة، ويختار مكانا يقف فيه ويرقب اللعـــب، ثم بعد برهة ينهض أحد الأشـــخاص ويتـــرك مكانه له قائلا:

«يا مستر شين تفضل بالجلوس هنا».

يرفع مســـتر شـــين ذيل الجلباب ويجلس، ويقول للمتقامرين الثلاثة الآخرين:

«تفضلوا باللعب».

الناس في مبنى تشـينغ لو لم يروا مسـتر شـين تذوق طعم الخسارة، وعندما يخلط الأوراق بيديه اللتين تبرز فيهما العروق الزرقاء بجلاء، تسمع فقط زئير العاصفة، وتلك الأوراق في يده أحيانا تطول وأحيانا تقصر، ويتداخل بعضها في بعض، وتصدر حفيفا، وأشعر بوخزة خفيفة في عيني.

ذات مرة، احتسى مستر شين الخمر حتى الثمالة، وقال لي:

«يعتمد القمار كلية على العينين واليدين، تصقل عينيك حتى يصبحـا مثل المخالب، وتصقل يديك وتصبحان ملسـاوتين مثل الأشبور(*)».

فـي ذاك العام، الذي شـهد استسـلام اليابانيـين الجبناء، حضـر لونغأر، ولهجته خليط، ومن نبـرة صوته تعرف أنه رجل ليس سـهلا، وطاف بالعديد من الأماكن، وذاق من الدنيا حلوها ومرها، ولا يرتدي جلبابا، بل الملابس الحريرية البيضاء، وجلب معه شخصين يسـاعدانه في حمل حقيبتين مجدولتين كبيرتين جدا.

كانت غرفة القمار لكل من مستر شين ولونغأر رائعة حقا في ذاك العـام، وتغص قاعة القمار في مبنى تشـينونغ لو بالناس، ويلعب مسـتر شـين القمار مع ثلاثة آخريـن. يقف خلف ظهر لونغـأر عامل في المطعـم يحمل صينية فوق راحتـه يوجد بها منشـفة جافة، ويتناول لونغأر دائما منشـفة ويمسـح يده، وهو لا يأخذ المنشفة المبللة، بل يأخذ المنشفة الجافة ويمسح بها يده، وعندما رأيناه يفعل ذلك شعرنا بالغرابة. كان مظهره وهو يمسح يـده كأنما انتهى مـن تناول الطعام توا، وكان يخسـر دائما في

(*) الأشبور: سمك من نوع الشبوط يعيش في المياه العذبة [المترجم].

البداية، ولا تبدو عليه ملامح الاكتراث بذلك، وعلى النقيض من ذلك، الرجلان اللذان حضرا معه لم يتحملا خسارته واستشاطا غضبا، فأحدهما أقحم في حديثه الشتائم المقذعة، والآخر يتأوه ويصعّد الزفرات. مستر (شين) يكسب دائما، ولكن ملامحه لا تظهر أمارات الكاسب البتة، ويقطب جبينه كأنما خسر مرات عديدة، ويتدلى رأسه، وتتسمر عيناه كالمسمار على أيدي لونغار. لقد أصبح طاعنا في السن، وقد لعب القمار فترة طويلة طوال المساء، وبدأت أنفاسه تتبهر، وجبهته تتصبب عرقا، ويقول:

«تشهد غرفة القمار هذه كسبي بالتأكيد».

يأخذ لونغار المنشفة الأخيرة في الصينية، ويمسح يده، ويقول:

«حسنا، آه».

مستر شين ولونغار يرهنان كل نقودهما فوق الطاولة التي تكاد تغص بالنقود، ولا يوجد بها فراغ إلا في منتصفها، ويوزع كل منهما خمسا من ورق اللعب، وبعد كشف أربع منها، يشعر شريكا لونغار بالغضب الشديد في التو، ويكومان تلك الأوراق، ويقولان:

«انتهى اللعب. خسر لونغار أيضا».

يقول لونغار في عجالة:

«لم أخسر، أنتما تكسبان».

يتفوه بتلك الكلمات ويكشف عن الورقة الأخيرة في يده، وكانت ورقة الخوخ الأسود (A)، وعندما رآه شريكاه ضحكا بهدوء، وفي الحقيقة، فإن الورقة الأخيرة في يدي مستر شين كانت ورقة الخوخ الأسود أيضا (A)، وعلى أية حال، فإن لونغار

يكشـــف أولا عن ورقته، مما أصاب مستر شين بالذعر، ويجمع الأوراق في يده، ويقول:

«أنا خسرت».

ورقة اللعب من فئة الخوخ الأسود (A) في يد لونغأر ونظيرتها في يد مســـتر شين انبثقتا من أكمامهما، وورق اللعب لا يمكن أن يشمل على ورقتين من هذه الفئة، ولكن لونغأر كشف النقاب عن ماهية ورقته أولا، ولذا مســـتر شـــين أدرك أنه ليس أمامه سوى الاعتراف بالسرقة، وكانت هذه المرة الأولى التي نرى فيها مستر شـــين يخســـر في اللعب، حيث دفع الطاولة بيده ونهض واقفا، وقدم تحية بيديه المضمومتين للونغأر، وأدار جسمه متوجها نحو الخارج، ثم ترجل إلى مدخل الباب وقال والابتسامة تعلو ثغره:

«لقد أصبحت طاعنا في السن».

لم ير أحدٌ مستر شـــين فيما بعد، وقد قيل إنه استقل محفة وغادر عند انبلاج الفجر يومئذ.

أصبـــح لونغأر كبير المقامرين هنا بعد مغادرة مســـتر شـــين، وهناك مواضع مختلفة بينهما؛ حيث إن مستر شين يكسب فقط، ولا يعرف الخسارة، أما لونغأر فيخسر عادة عندما يكون الرهان صغيرا، بينما لا يخســـر عندما يكون الرهـــان كبيرا. وأنا ألعب القمار دائما مع شركاء لونغأر في مبنى تشينغ لو حيث الخسارة والمكســـب، ولذا، أشعر دائما أنني لم أخســـر، وفي الواقع أنني أكسب نقودا ضئيلة، بينما أخسر مبالغ طائلة، ومازالت تخدعني أوهامي، وأرى أنني سأكون من الأجداد أو العظماء في الحال.

عندمـــا كنت ألعـــب القمار في المرة الأخيـــرة، جاءت زوجتي جياشين، وكان الليل يوشك أن يسدل سدوله وقتئذ، وقد أخبرتني

بذلــك، حيث إنني - آنــذاك - لا أعرف إذا كنا فــي النهار أو في الليل، وجاءت جياشــين إلى مبنى تشينغ لو وبطنها منتفخة، حيث يرقد داخلها ابني فوق ســرير يبلغ طوله ســبعة أو ثمانية أشــهر، وعندما عثرت علي جثت أمامي ولم تنبس ببنت شــفة، ولم أرها في البداية، حيث كان حظي في القمار طيبا على وجه الخصوص يومئذ، وأرمي النرد عشر مرات، أكسب ثماني مرات أو تسعا، ويجلس لونغأر ووجهه أمام وجهي، ويضحك في صمت عندما يرى احتساب النقاط في رمي النرد لصالحي، ويقول:

«يا أخي، أنا خسرت مرة أخرى».

لونغأر يكسب مســتر شين بطريقة تحسس ورق اللعب، وبعد ذلــك، لا يجرؤ أحد في مبنى تشــينغ لــو أن يضاهيه في هذه الطريقــة، وأنا كذلك لا أجرؤ، وألعــب القمار معه بطريقة رمي النــرد التي يجيدها باقتدار، ويكســب دائما وقلما يخســر، بيد أنه ســقط في يدي يومذاك، وخسر أمامي بصورة متتالية. يعلق سيجارة في فمه، ويغمض أجفانه كأنما لم يحدث شيء، ويضحك في صمتٍ في كل مرة يخســر فيها أيضا، ولا يتردد إطلاقا في دفع كومةً النقود بذراعيه النحيفين، وآمل أنه من اللازم أن تحلّ كارثة بلونغأر.

النــاس جميعهم تغمر الابتســامة وجوههم عندما يدســون أيديهم في جيوب الآخرين وينشلون نقودهم، وحين يجيء دورك وتعطي الآخرين نقودا، تبدو كئيبا حزينا.

أنا في غبطة غامرة حقا، وهناك مَنْ يشد ملابسي، وأخفض رأسي واكتشف أنها زوجتي، شعرت بالغضب عندما رأيتها تجثو على الأرض، وجال بخاطري أن ابني مازال في أحشائها، وتجثو

هكذا، فذلك ينذر بالشؤم، فقلت لها:

«انهضي، انهضي، يا ملعونة، انهضي».

زوجتي جياشين تسمع الكلام حقا، وتقف في التو، فأقول:

«لماذا حضرتِ إلى هنا؟ مازلت هنا لم ترجعي إلى المنزل؟».

لم أعِرْها اهتماما بعد أن فرغت من كلامي، ورأت عيني لونغأر يحمل النرد في بطن راحته ويرجه في يده عدة مرات كأنما يصلي لبوذا، ويرميه وتبدو عليه أمارات القبح، ويقول:

«لمس مؤخرة المرأة يجعل حظك في القمار سيئا».

وجدت نفسي أكسب مرة أخرى، فقلت:

«يا لونغأر، اذهب واغسل يدك».

ضحك لونغأر في صمت، ثم قال:

«تكلم معي بعد أن تنظف فمك».

زوجتي جياشين تشد ملابسي مرة أخرى، وأحدق إليها بنظرة وأجدها مازالت جاثمة على الأرض، وتقول بصوت ناعم:

«نعود إلى دارنا سويا».

أتريدينني أن أعود مع امرأة؟ وسلوك جياشين لا يهدف إلى كشف نقائصي عمدا. انتابتني مشاعر الغضب بصورة فجائية، ونظرت إلى لونغأر وشركائه والضحك يملأ أشداقهم بغرض السخرية مني، فصرخت في وجه زوجتي قائلا:

«ارجعي أنتِ بسرعة».

جياشين لا تزال تقول:

«نعود إلى دارنا معا».

صفعت زوجتي صفعتين، فاهتز رأسها عدة مرات مثل طبلة البائع المتجول، وأنّت من وطأة ضرباتي، ولكن لا تزال تجثو

هنالك، وتقول:

«إذا لم تعد معي إلى المنزل، لا أنهض من مكاني».

الآن يجول في ذهني ما يجعل قلبي يعتصر حزنا، ففي شرخ شبابي كنت سيئا حقا، أضرب المرأة اللطيفة وأركلها، وتجثو على الأرض ولا تنهض مهما ضربتها، وحتى إذا قهرتها في نهاية المطاف، فلا تشعر نفسي باللذة. وشعرها المتناثر ودموعها المنثالة يخفيان وجهها. أمسك حفنة من النقود التي كسبتها وأعطيها للرجلين اللذين يقفان بجانبي، وأطلب منهما أن يجرجرا جياشين إلى الخارج، وأقول لهما:

«كلما تجرجرانها بعيدا، كان أفضل وأحسن».

تغطي جياشين بطنها المنتفخة بيديها بصورة محكمة حيث إن ابني يرقد هناك، وذلك عندما كان الرجلان يجرجرانها حتى الطريق العام. ولم تصرخ، ولم تزعق، وبعد أن قذفا بها بعيدا، اتكأت على الجدار ونهضت واقفة، وقد غشى الليل حينئذ، ومشت وحيدة بخطوات وئيدة عائدة إلى دارها، وفيما بعد سألتها: هل كانت تمقتني مقتا شديدا آنذاك، فقالت وهي تهز رأسها:

«كلا».

تكفكف زوجتي دموعها، وتتقدم إلى مدخل دكان أرز والدها، وتقف فترة طويلة، وترى رأسه مطبوعا على الجدار بفعل ضوء مصباح الكيروسين، وتعرف أنه يقوم بجرد الحسابات، تقف هناك برهة وهي تبكي وتنتحب، ثم تنصرف إلى غايتها.

في مساء ذاك اليوم، عادت زوجتي إلى بيتي بعد أن قطعت مسافة أكثر من خمسة كيلومترات ليلا، وكانت بمفردها وتحمل

في بطنها مولودا سعيدا عمره سبعة شهور ونيف، ونباح الكلاب يمـــلأ الأصقاع على امتداد الطريــق الذي بات وعرا بعد هطول الأمطار.

كانت جياشـــين طالبة منذ عدة ســنوات خلــت، وكانت هناك مدرســـة ليلية في المدينة وقتئذ. وكانت ترتدي تشيباو (*) الأزرق الفاتح، وتحمل مصباح الكيروســـين، وتغشـــى المدرسة مع نفر من زملائهـــا، وكنت أرمقها بعيني في منعطف الشـــارع وهي تمشـــي متهادية، وحذاؤها ذو الكعب العالي يقرع الطريق الجبلي، وخطواتها بطيئة وئيدة مثل السماء تمطر قطرة قطرة، وتتسمر عيناي عليها ولا تتحركان؛ إنها فتاة جميلة حقا إذ ذاك، ويسدل شعرها بانتظام إلى قاعدة الأذن، وعندما تمشي يتجعد قماش تشيباو في خصرها، وأفكر في أعماقي يومذاك آملا أن تكون زوجتي.

سـألت الإسـكافي الجالس على الأرض بعد أن ابتعدت جياشين وأترابها وهن يضحكن ويمزحن:

«ما أسـرة تلك الفتاة؟».

يجيب الإسكافي:

«إنها البنت الكريمة الكبرى لتشين صاحب دكان الأرز».

رجعت أدراجي إلى المنزل وقلت لأمي في الحال:

«اذهبي وابحثي عن خاطبة، أريد أن أتزوج ابنة تشين صاحب دكان الأرز في المدينة».

شـــعرت بالندم بعد أن جُرجرت جياشـــين في مســـاء ذاك اليوم، وخســـرت مـــرات عديدة بصورة متتاليـــة، وحدقت في

(*) تشيباو: فستان مُقبب مشقوق الجانبين [المترجم].

النقود المتكدسة مثل سفح جبل صغير فوق الطاولة، ورميتها بعيدا مثل التخلص من ماء غسيل الأقدام. لونغأر لا يكف عن الضحك، وكادت الضحكات تفتك بوجهه، وفي تلك المرة، لعبت القمار حتى انبلاج الصباح، والقمار جعل رأسي يدوخ ويزيغ بصري، وتنفث المعدة رائحة خبيثة من فمي دائما. رهنت آخر قبضة نقود وأكبر رهان طوال حياتي، وغسلت يدي باللعاب، وقلبي يفكر بأن مآثر مئات السنين تكمن كلها في رمية النرد هذه المرة. وهممت أن أمسك النرد، ولكن لونغأر مد يده ليمنعني، قائلا:

«على مهلك».

يلوح لونغأر بيده للعامل، ويقول:

«أعطِ منشفة ساخنة للصبي الكريم من عائلة شيوه».

يأوي الأشخاص الذين يتفرجون على القمار وقتئذ إلى فراشهم، ولم يبق إلا بضعة أفراد يلعبون القمار، وقد جلب لونغأر رجلين معه، وعرفت - فيما بعد - أن لونغأر رشا ذاك العامل الذي قدم لي المنشفة الساخنة، وعندما كنت أمسح وجهي، غيَّر لونغأر النرد خلسة، وأحضر ذاك النرد الذي يخدع الآخرين، ولم أنتبه إلى ذلك البتة، ورميت المنشفة في الطبق بعد أن انتهيت من مسح وجهي، وأخذت النرد وقمت برجه في يدي بكل قوة، ثم رميته وأبليت بلاء حسنا وأحرزت نقاط كبيرة أيضا.

وجاء دور لونغأر ليضع النرد في وضع النقاط السبع، ويبسط ذاك الصبي راحة كفه، ويضرب الطاولة بكل قوته ويصرخ قائلا:

«النقاط السبع».

هناك فراغ في ذاك النرد مملوء بالزئبق، وعندما رجه لونغأر، ترسب الزئبق في القاع، وأخذه ورماه، فكانت مقدمة النرد ثقيلة وتدحرج حتى توقف عند النقاط السبع.

انظر إلى ذاك النرد وأجده في النقاط السبع حقا، وأشعر بالدوار في رأسي. لقد خسرت هذه المرة، وعقب ذلك، فكرت أنه يمكن التعامل بالدين، وهناك فرصة وأكثر في المستقبل، أكسب، وأسدد ديني، وأشعر بالفرج، ونهضت واقفا وقلت للونغأر:

«سجل في دفترك».

لوّح لونغأر بيده معترضا وطلب مني الجلوس، وقال:

«لا يمكن أن نجعلك تتعامل بالدين مرة أخرى، لقد خسرت ما تملكه أسرتك من مئة مو. تتعامل بالدين مرة ثانية، ماذا عندك لتسدد ديونك؟».

بعد أن سمعت كلامه، سحبت تثاؤبي الذي لم يكتمل، وقلت ملاحقا:

«أسدد ديني، أستوفي ديني».

أخذ لونغأر ودائنان دفتر المحاسبة، وحسبا حسابي بالتفصيل، وربت لونغأر على كتفي واقترب من رأسي، وقال لي:

«أيها السيد الكريم، أرأيت حسابك بوضوح؟ حسابك ممهور بإشارة من قِبلك».

عرفت أنني مدين لهم منذ قبل نصف عام، وخسرت تماما كل ثروة أجدادي التي تركوها في غضون نصف عام، وقلت للونغأر عندما حسبوا نصف ديوني:

«لا داعي للحساب».

نهضت واقفا مرة أخرى، وانصرفت من مبنى تشـينغ لو مثل دجاجـة مصابة بالوباء، وكانت صفحة السـماء مشـرقة تماما آنذاك، وتسـمرت قدمي في الشـارع لا أدري إلى أين أذهب؟! وأحد معارفي يحمل سلة جبن الصويا ويصيح عندما رآني قائلا:

«سيدي من عائلة شيوه الكريمة، صباح الخير».

بـث صراخه الفزع في نفسـي، ورمقته بنظـرة بلهاء، فقال مبتسما:

«أرى مظهرك قد أصبح كحُثالة العقاقير».

كان يعتقد أن أولئك الفتيات سببن لي آلاما وعذبنني، ولم يدر بخلـده أنني مفلس، وأصبحت فقيرا مثـل الأجير. تابعته بعيني وهو يمشي بعيدا وأنا أضحك بمرارة، ونفسي تأبى أن تقف هنا، وتحركت قدماي ومشيت بعيدا.

عندمـا وصلت إلـى دكان الأرز الخاص بحمـي، كان هناك عامـلان يفككان المصـراع الخشـبي للـدكان، وينخرطان في الضحك بعد أن رأياني، وجال بخاطرهما أنني أعرّج على حمي وأدعو له بالخير والصحة، وهل مازلت لدي الشـجاعة لأن أقوم بذلـك؟ تراجعت خجلا، ولصقت جسـمي بأحد أطراف الغرفة ومشـيت في عجالة، وسمعت حمي يسعل في الداخل، ثم يبصق على الأرض.

قادتنـي أقدامي إلى خـارج المدينة، وأنا مشـوش الذهن مضطـرب البال، وعلى غير المتوقع نسـيت - في فترة زمنية - أنني خسـرت كل ثروة أسـرتي في القمار، ورأسـي أجوف ومضطـرب كأنما حاصره عش الدبابيـر، ووصلت إلى خارج المدينة، ورأيت الطريق الصغير المعوج الممتد، وشعرت بالخوف

أيضــا. وأريد مواصلة الســير على ذاك الطريــق، ولكن ماذا أفعل؟ مشيت عليه بضع خطوات، ثم عزفت قدمي عن السير، ولم أر ظل رجل في الجهات الأربع، وجال بخاطري أن أشــنق نفســي بحزام البنطال، أفكر من الانتحار، وأستمر في المشي حتى أصل إلى شــجرة الــدردار، وألقي بنظــرة خاطفة على المكان، ولــم أفكر إطلاقا في فك حزام البنطال. وفي الواقع، لا أريد الانتحار، بيد أنني أفكر في وســيلة من أجل الحفاظ على كرامتي. وفكرت أن ديوني الملعونة لا تموت شــنقا معي، ثم قلت لنفسي:

«لا أفكر في ذلك، لا داعي للانتحار».

أطلب من والدي أن يســدد هذه الديون. وشــعرت بوخزة في صدري عندما تذكرت والدي، أليس يضربني حتى أقضي نحبي من جراء ذلك؟ أمشــي تارة وأفكر تارة أخرى، وتفكيري ينخرط دائمــا في طريق المــوت، ومن الأفضل أن أرجــع إلى بيتي، وأن يضربنــي والدي حتى المــوت أفضل دائما من الموت شــنقا في الخارج مثل الكلاب البرية.

فــي تلك اللحظة لا أعرف أنني أصبحت هزيلا وتحولت إلى كومة لحم كاملة، وظهرت رضوض زرقاء وحمراء أســفل عيني، ورجعت إلى بيتي والدهشــة تلجم والدتي عندما رأتني، وتحدق في وجهي وتسألني:

«أأنت فو قوي؟».

رأيت والدتي تطأطئ رأســها وابتسامة صفراء على وجهها، وســمعتها تتكلم والدهشة تصيبها بصورة فجائية، ولم أرها مرة أخــرى، ودفعت البــاب ودلفت إلى غرفتي، حيــث كانت زوجتي

جياشين في الداخل تمشط شعرها، وألجمتها الدهشة أيضا عندما رأتني، وتحدق في وجهي وثغرها مفتوح. فورا تذكرت أنها جاءت إليّ مساء أمس، وأسدت لي النصح بأن أعود إلى البيت، ولكني ضربتها وركلتها أيضا، وهمت وجثوت على الأرض أمامها، وقلت لها:

«جياشين، حياتي انتهت».

انتهيت من كلماتي وانخطرت في بكاء شديد، وانطلقت جياشين مسرعة تسندني بذراعها وهي تحمل في بطنها المولود السعيد، فهل تستطيع أن تساعدني وتسندني؟ وتطلب المساعدة من والدتي. المرأتان تحملاني إلى السرير، ومددت جسمي فوقه وأزبد فمي، ومظهري ينبئ بأنني على وشك الموت، أصابهما الذعر، وضربتا كتفي، وهزتا رأسي أيضا، ومددت يدي، ودفعتهما وقلت لهما:

«خسرت ثروة البيت كلها».

بدت أمارات الذهول على والدتي عندما سمعت كلماتي، وتستجمع قواها وتحدق في وجهي، ثم تقول:

«ماذا قلت؟».

قلت:

«خسرت ثروة البيت كلها».

الجدّية في ملامحي جعلت والدتي تصدق كلامي وتخبط مؤخرتها وتجلس على الأرض، وتكفكف دموعها، وتقول:

«الثلم الأعوج من الثور الكبير».

كانت والدتي لا تزال تحبني آنذاك، ولم تلمني، بل ألقت باللائمة على والدي.

تجهش جياشين بالبكاء أيضا، وتدق على ظهري حينا، وتقول حينا آخر:

«ما دمت لا تلعب القمار فيما بعد، فذلك أمر رائع».

خسرت الثروة كلية ولم يبق منها شيء، وليس في جعبتي مال من أجل المقامرة إذا فكرت في ذلك. سمعت والدي يسب ويلعن في الغرفة بذاك الجانب، ولم يدر بخلدي أنه بات فقيرا معدوما، وأزعجه صوت بكاء تينك المرأتين. أمسكت والدتي عن البكاء حالما سمعت صوت والدي، ونهضت واقفة ودلفت إلى الخارج تتبعها جياشين، وعرفت أنهما ذهبتا إلى غرفة والدي، وبعد لحظة سمعت والدي يصيح في ذاك الجانب قائلا:

«أيها الشرير، أيها الفاسق».

في هذه الأثناء، تدفع ابنتي فينغ شيا الباب وتدخل، ثم توصد الباب وهي تترنح، وتخبرني بصوتٍ حاد وناعم أيضا قائلة:

«يا أبي، انزوِ فورا، سيحضر جدي ويشبعك ضربا».

أرمقها بنظرة ولا أتحرك قيد شعرة، تتقدم فينغ شيا نحوي وتسحب يدي، بيد أنها تعجز عن تحريكي من مكاني وتتخرط في البكاء. شعرت بأن الدمع يوجه طعنات إلى قلبي عندما رأيتها تبكي. فينغ شيا غريرة وتعرف حماية أبيها، وأنظر إلى ابنتي الطفلة فأشعر أنه يجب تقطيع لحمي إربا إربا.

سمعت وقع أقدام والدي يرغي ويزبد، ثم يصيح قائلا:

«يا أيها الشرير، أمزق جسدك، وأخصيك، وأضع نهاية لحياتك أيها العاق».

آمل بأن يدخل والدي ويضع نهاية لحياتي، ولكنه يسقط على الأرض مغشيا عليه عندما تقدم إلى مدخل الباب، وتسنده

والدتي وزوجتي وهما تصرخان حتى يجلس على سـريره، وبعد برهة، سمعت صوت بكاء والدي في ذاك الجانب وكأنه ينفخ في بوق سونا.

يرقـد والدي فـي الفراش ثلاثة أيام؛ ففـي اليوم الأول بكى بحرقـة، ثم عزف عن البكاء، وبدأ يصعد الزفرات، وترامت تلك الأصوات إلى مسامعي، وسمعته يقول متحسرا:

«القصاص، يجب العقاب».

وفي اليـوم الثالث، يسـتقبل والـدي الضيوف فـي غرفته ويسـعل بصوتٍ حاد، وينخفض صوتـه عندما يتكلم لدرجة أنك لا تسـمعه، وعندما أتى المساء، جاءت والدتي إليّ وأخبرتني بأن والدي يطلب مني الحضور إليه، ونهضت من فراشي، وأفكر بأن ذاك الأمر لا ينتهي أبدا. والدي اسـتراح في الفراش ثلاثة أيام، ويتمتع بالقـوة ويذبحني، أو يضربني ويتركني بين الحياة والموت على الأقل، وقلت لنفسـي يضربني كما يحلو له ولا أرد الضربة بمثلهـا، وعندما تقدمت نحو غرفة والدي، شـعرت بأنني خائر القوة تماما وجسمي واهن أيضا وأسير على ساقين مصطنعتين. دخلت غرفتـه، ووقفت وراء والدتي، أختلـس النظر إلى منظر والدي الذي يمدد جسـمه فوق السـرير ويكور عينيه ويرمقني بنظراته، ويهز لحيته البيضاء، ويقول لوالدتي:

«انصرفي».

انصرفت والدتي من جواري، فشعرت بالخوف لحظة مغادرتها المكان، ومن المحتمل أن يقفز والدي من السرير في التو ويخاطر بحياته في معركة تنشـب بيننا. ولكنه يمدد جسمه ولا يتحرك، واللحاف أمام صدره يتزحزح ويسقط على الأرض.

«يا فو قوي».

والدي يناديني ويضرب حافة السرير بيده قائلا:

«اجلس».

قلبي يقفز بين ضلوعي، جلست بجوار والدي الذي يتحسس يدي، وكانت يدي باردة مثل الثلج وامتدت البرودة إلى قلبي. يقول والدي بصوتٍ خفيض:

«يا فو قوي، ديون القمار هي ديون، ومنذ أمد بعيد، لا أعرف إطلاقا عدم سداد الديون، لقد رهنت أكثر من مئة مو وهذا البيت أيضا، وسيرسلون العملات النحاسية غدا، أنا رجل عجوز، ولا أستطيع حمل الشيال، إذن، أنت تحمل النقود وتسدد الديون».

تنهد والدي تنهيدة طويلة أيضا بعد أن فرغ من كلامه. وشعرت بوخزة في عيني بعد أن سمعت كلامه، وعرفت أنه لا يغامر بحياته في الشجار معي، ولكن كلماته كانت تقطع رأسي بسكين كليل، ورأسي لا يتدلى، جعلني أحيا على درب الموت المؤلم. ربت والدي على يدي وقال:

«اذهب إلى فراشك».

في بكور اليوم التالي، وحالما نهضت من فراشي، رأيت أربعة رجال يدخلون باحة دارنا، في المقدمة رجل ثري يرتدي الملابس الحريرية، ويدلف إلى الداخل، ووراء ظهره ثلاثة حمالين يرتدون الملابس الخشنة، ويلوحون بأيديهم، ويقولون:

«أنزّل الشيال؟».

ثلاثة من الحمالين ينزلون الشيال، ويشدون أكمامهم ويمسحون وجوههم، وفي هذه الأثناء، حدق في وجهي ذاك الرجل الثري، ونادى والدي، وليس أنا، وقال:

«يا عمي شيوه، أحضرنا البضاعة التي تبتغيها».

خرج والدي وسعل مرارا وتكرارا، وفي يده سند ملكية الأرض وسند ملكية البيت، وسلمهما للثري وهو يحني ظهره، ويقول:

«لقد تعبتم».

أشـــار ذاك الثري إلى ثلاثة شيالات من العملات النحاسية، وقال لوالدي:

«العملات كلها هنا، أنت تعدّها جيدا».

يدل مظهر والدي على أنـــه فقير وثري، ويقول باحترام كأنه رجل فقير:

«لا داعي، لا حاجة، ندخل الغرفة ونحتسي الشاي».

يقول الثري:

«لا ضرورة لذلك».

حملق في وجهي بعد أن فرغ من كلامه، وسأل والدي:

«إنه الصبي الصغير الكريم، أليس كذلك؟».

يومئ والدي برأسه مرارا، ويبتسم الثري في وجهي قائلا:

«قطفنـــا بعض أوراق اليقطين وغطينا بها العملات ونحن في الطريق إليكم، إياك أن يخطفها الآخرون».

أحمل على كتفي - بدءا من اليوم - عملات نحاسية، وأقطع بها مســـافة أكثر من خمســـة كيلومترات، وأدلف إلى المدينة من أجل ســـداد الديون. وقد غطيت تلـــك العملات بأوراق اليقطين التـــي جمعتها أمي وجياشـــين، وعندما رأتهما فينغ شـــيا حذت حذوهما أيضـــا، واختارت أكبر ورقتـــين قطفتهما وغطت بهما الشـــيال. حملت الشـــيال على كتفي اســـتعدادا لمغـــادرة البيت، ولا تعرف فينغ شـــيا أنني أذهب إلـــى المدينة لكي أوفّي الديون،

فتخفض وجهها، وتسألني:

«يا والدي، هل تغيب عنا بضعة أيام ولا تعود إلى البيت؟».

شعرت بوخزة في الأنف عندما سمعت كلامها، وكادت الدموع تسح من عيني، وحملت الشيال وأسرعت خطواتي متوجها نحو المدينة. وصلت هناك، ورآني لونغأر أحمل الشيال وأذهب إليه، ويصيح بحرارة قائلا:

«حضر السيد الكريم من عائلة شيوه».

أنزلت الشيال أمامه، فنزع أوراق اليقطين وقطب جبينه، وقال لي:

«تحمل العملات النحاسية وتجلب لنفسك الشقاء، وإذا استبدلتها بالدولارات الفضية تتجنب العديد من المشكلات».

بعد أن حملت إليه آخر شيال من العملات النحاسية، لم يعد يناديني بالسيد الكريم، ويهز رأسه قائلا:

«يا فو قوي، أنزل الشيال هنا».

كان هناك دائن آخر لطيف بعض الشيء، يربت على كتفي، ويقول:

«يا فو قوي، اذهب واشرب الخمر».

يقول لونغأر - بعد أن سمع تلك الكلمات - في عجالة:

«حسنا، حسنا، احتس الخمر، أدعوك إلى مأدبة».

أطأطئ رأسي، وتفكيري لا يزال يصر على العودة إلى البيت، ومشيت وبكيت، وبكيت ومشيت، ورحت أفكر بأنني حملت على كتفي العملات النحاسية طوال اليوم، مما جعلني مفكك الأوصال، والأجداد الذين كسبوا أو كدسوا هذه الثروة لا يعرفون أنهم يسببون الشقاء والتعب للعديد من الأشخاص. عرفت آنذاك

لمـــاذا والدي يرفض الـــدولارات الفضية، ويصـــر على العملات النحاســـية؛ وذلك حتى يجعلني أدرك هذه الحقيقة، ومفادها أن الحصول على النقود يجابه آلاف الأخطار والمصاعب، وتسمرت قدماي على الطريق عندما جال بخاطري هذا التفكير، وجلست القرفصاء على جانب الطريق، ورحت أبكي وخصري يتشنج دائما. وفي تلـــك الأثناء، رأيت العامل الأجير العجـــوز الذي كان يعمل في بيتنا يمشـــي أمامي ويحمل صرة مهترئة على ظهره، ويدعى (تشانغ قين)، وكان يحملني على ظهره في طفولتي ويوصلني إلى المدرســـة الخاصة. اشتغل في بيتنا عشرات السنين، والآن غادر بيتنا. رحل أبواه عن دنيانا وهو طفل صغير، فأحضره جدي إلى بيتنا، وبعـــد ذلك لم يتزوج أبدا. يتقدم نحـــوي وقدماه عاريتان وجلدهمـــا تفلق، وأنا وهو تتدفق الدموع من مآقينا، رآني أجلس القرفصاء على جانب الطريق، وراح يناديني قائلا:

«السيد الصغير الكريم».

صرخت نحوه قائلا:

«لا تنادني بالسيد الصغير الكريم أيضا، أنا حيوان».

هز رأســـه وقال: «الإمبراطور الشـــحاذ هو إمبراطور أيضا، وإذا كان جيبك خاليا من النقود، فأنت ما زلت الســـيد الصغير الكريم أيضا».

تتدفق دموعي مرة أخرى والتي كفكفتها لتوي عندما ســـمعت كلماتـــه، وجلس القرفصاء بجواري، وغطـــى وجهه وانخرط في بكاء شديد، وبعد أن بكينا سويا لبرهة، قلت له:

«الظلمـــة تلف الكون حالا، يا تشـــانغ قين، ارجع أدراجك إلى بيتك».

ينهض تشـــانغ قين واقفا، وينصرف خطوة خطوة، وســـمعته يدندن قائلا:

«ليس عندي بيت في أي مكان».

لقد ســـببت ألما لتشـــانغ قين أيضا، ورأيته ينصرف بمفرده، وقلبـــي يعتصر ألما مـــرة تلو الأخرى. انتظرت حتى ســـار بعيدا ولـــم أره حتى نهضت واقفا وتوجهـــت نحو بيتي، وعندما وصلت هناك، كان الليل أســـدل ســـدوله، وقد انصـــرف العامل الأجير والخادمة اللذان كانا يعملان في دارنا، ووالدتي وجياشـــين أمام موقـــد المطبخ، إحداهما تضرم النار، والأخرى تطهو. أما والدي فمازال يمدد جسمه فوق الفراش، ولا يوجد سوى ابنتي فينغ شيا ما زالت - كعادتها - تشـــعر بالغبطة والبهجة، ولم يدر بخلدها أنـــه من الآن فصاعدا يتذوق طعم الشـــقاء وطعم الفاقة. تتقدم نحوي وتقفز في الهواء، وترتمي على ساقي وتسألني:

«لماذا يقولون إنني لست آنسة؟».

تحسست خدها الصغير، ولساني لم يتفوه بحرف، ومن حسن الحـــظ لم تواصل الأســـئلة مرة أخرى، وتنظـــف بأظافرها آثار الطين من بنطالي، وتقول بسرور:

«اغسل بنطالك».

حالمـــا حان ميقـــات تناول الطعام، دلفـــت والدتي إلى مدخل غرفة والدي وسألته:

«هل أحمل الطعام إليك؟».

يجيب والدي:

«أغادر غرفتي، وأتناول الطعام في الخارج».

يخرج والدي من الغرفة حاملا مصباح الكيروســـين بأصابعه

الثلاث، ويسطع ضوء المصباح على وجهه، ويبدو نصف وجهه مشرقا والنصف الآخر معتما، ويحني ظهره ويسعل مرارا وتكرارا. يجلس والدي ويسألني:

«هل سددت الديون؟».

أخفض رأسي وأقول:

«سددت الديون».

يقول والدي:

«حسنا، أحسنت صنعا».

ينظر إلى كتفي، ويقول أيضا:

«تهرأ لحم كتفك».

لم أنبس ببنت شفة، واختلست النظر إلى والدتي وزوجتي ودموعهما تنثال وهما تنظران إلى كتفي. تناول والدي الطعام ببطء، وأكل قليلا منه ثم وضع عيدان الطعام على الطاولة، ودفع السلطانية، وعزف عن الأكل، وبعد برهة، قال:

«في الماضي، كان الأجداد الأولون في عائلة شيوه يربون كتكوتا، وبعد أن يكبر الكتكوت يصبح وزة، والوزة تكبر وتصبح معزة، والمعزة تكبر وتصبح بقرة، وعلى هذا النحو نشأت عائلة شيوه وازدهرت».

صوت والدي يئز، ويتابع كلامه بعد توقف:

«وعندما جاء دوري أصبحت بقرة عائلة شيوه معزة، كما أصبحت المعزة وزة، وعندما جاء دورك، أصبحت الوزة دجاجة، والآن لا نمتلك حتى الدجاجة».

يضحك والدي بهدوء عندما تفوه بمثل تلك الكلمات، ويضحك ويقهقه، ثم يبكي وينتحب، ويمدّ إصبعيه نحوي قائلا:

«أنجبت عائلة شيوه اثنين من أبناء المبذرين».

حضـــر لونغأر في غضون أقل مـــن يومين، وقد تغير مظهره، وركّب في فمه ســنّين ذهبيتين، وابتسم ابتســامة عريضة. لقد اشــترى رهاننا مـــن العقار والأرض، وحضـــر يفحص ممتلكاته وثروتـــه، ويركل أســاس الحائط بقدمه، ويلصـــق أذنه بالحائط ويسمع، ويمد قبضته ويدق عليه، ويقول تباعا:

«أساس قوي، أساس متين».

كما عرج لونغأر علـــى الحقل ولف دورة هناك، وبعد أن رجع قدم لي ولوالدي تحية بيديه المضمومتين، ويقول:

«شعرت بالارتياح عندما شاهدت الأرض الخضراء اليانعة».

حالما حضـــر لونغأر، تحركنا من دارنا التـــي أقمنا فيها عدة أجيال متتالية وانتقلنا إلى كوخ نقطن فيه، وفي ذاك اليوم، الذي شهد نقل أثاثنا، كان والدي يعقد يديه خلف ظهره، ويذرع المكان جيئة وذهابا في الغرف، وأخيرا يقول لوالدتي:

«مازلت أرى أن نهاية حياتي ستكون في هذه الغرفة».

نفـــض والدي الغبار من ملابســـه الحريريـــة بعد أن فرغ من كلامـــه، ومد رقبته وخرج مـــن عتبة الباب. والـــدي ما زال كما كان عهده دائما يعقد يديه وراء ظهره، ويتقدم نحو كوم الســـباخ في مدخل القرية بخطوات وئيدة، وكان الليل قد أغشـــى وقتئذ، وهنـــاك نفرٌ مـــن الفلاحين المســـتأجرين الذين يشـــتغلون في الحقـــول، ويعرفون جميعهم أن والـــدي ليس مالكا للأرض، ومع ذلك يقبضون على المعازق في أيديهم، ويصيحون:

«يا سيدنا».

ترتسم ابتسامة خفيفة على وجه والدي، ويلوح إليهم بيده قائلا:

«لا أحب أن تنادوني بلقب سيدنا».

والدي يترجل بأرض ليست من ملكه العقاري، وترتجف ساقاه ويســـير نحو مدخل القرية، وتتســـمر قدماه أمام كوم الســـباخ، ويجيل بصره في كافة الأصقاع، ثم يفك حزام البنطال، ويجلس القرفصاء على الأرض.

في أصيـــل ذاك اليوم، لـــم يصرخ والدي عندمـــا كان يتبرز مرة أخـــرى، ويغمض عينيه نصف إغماضة وينتظر بعيدا، ويرى الطريـــق الصغير المؤدي إلى المدينة يتغير رويدا رويدا وبات غير واضح. وهناك مســـتأجر بجواره يحني جسمه ويجمع الخضار، وعندما اعتدل والدي في وقفته، لم ير ذلك الطريق الصغير.

والدي فوق كومة السباخ، وتزل قدماه إلى أسفل، ويسمع ذلك المســـتأجر صوت ســـقوطه ويدور جسمه بســـرعة، ويرى والدي جســـمه مائلا على الأرض، ورأســـه تســـتند على كومة السباخ ولا تتحرك البتة، يحمل المستأجر المنجل ويهرول حتى يقف أمام والدي، ويسأله:

«يا سيدي، هل أنت بخير؟».

يحرك والدي أجفانه ويرى المســـتأجر ويسأله بصوت أجش متعب:

«أنت تنتمي إلى أي عائلة؟».

يحني المستأجر جسمه، ويقول:

«يا سيدي، أنا وانغ شي».

يفكر والدي مليا، ثم يقول:

«آه، أنت وانغ شي.. يا وانغ شي، هناك حجر تحتي ويؤلمني».

وانغ شي يقلب جسم والدي، ويتحسس بيده ويعثر على حجر كبير فـــي حجم قبضة اليد ويرميه جانبا. والدي يمدد جســـمه

بانحراف هناك مرة أخرى، ويقول بصوتٍ خفيض:

«أشعر بالراحة في هذا الوضع».

يسأله وانغ شي:

«هل أسندك حتى تنهض واقفا؟».

يقول:

«لا داعي».

وبعد ذلك، يسأله والدي:

«هل شاهدت سقوطي في المرة السابقة؟».

وانغ شي يومئ برأسه، ويقول:

«نعم، يا سيدي».

يبدو والدي مغتبطا بعض الشيء، ويسأله مرة أخرى:

«سقطت في المرة الأولى، أليس كذلك؟».

يقول وانغ شي:

«معقول، يا سيدي».

يضحك والدي بهدوء، وبعد أن يفرغ من قهقهته يغمض عينيه، ورقبته مائلة، ورأسه زلقت على امتداد كومة السباخ حتى سقط على الأرض.

في ذاك اليوم، كنا نقلنا إلى الكوخ، وأقوم بترتيب الأثاث مع والدتي في الغرفة، كما قامت فينغ شيا بترتيب الأشياء وتشعر بفرحة غامرة، ولا ندري أننا من الآن فصاعدا نتذوق طعم الشقاء والعذاب. تحمل جياشين طست الغسيل قادمة من جانب البركة، وقابلت بالمصادفة وانغ شي الذي حضر مهرولا، ويقول:

«يا سيدتي، يبدو أن سيدي رحل عن دنيانا».

نحن في داخل الغرفة سمعنا في الخارج جياشين تصرخ بكل قوتها، وتقول:

«يا أمي، يا فو قوي، يا أمي..».

أصدرت عدة صرخات، ثم راحت في نوبة بكاء شديد. جال بخاطري وقتئذ أن والدي أصابه مكروه، وغادرت الغرفة وهرولت إلى الخارج حيث وجدت جياشين واقفة هناك، وانقلب طست الملابس على الأرض. وتصرخ جياشين عندما رأتني قائلة:

«يا فو قوي، هل أبونا..؟».

أشعر بالدوار في رأسي، وأهرول إلى مدخل القرية بأقصى جهد، وعندما وصلت إلى أمام كومة السباخ، كان والدي قد جاد بالنفس الأخير. أهز جسمه تارة، وأصرخ تارة أخرى، بيد أن والدي لا يعيرني اهتماما، ولا أعرف ماذا أفعل؟ وقفت ونظرت إلى الخلف ورأيت والدتي مكسورة قدمها وتهرول وهي تبكي وتصرخ أيضا، وجياشين تحتضن فينغ شيا وتسير وراءها.

بعد رحيل والدي، أصبحت خائر القوى من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي كأنما أصابني وباء. أجلس طوال اليوم على الأرض أمام الكوخ، تسح دموعي أحيانا، وأصعد الزفرات أحيانا أخرى. وترافقني فينغ شيا دائما ونجلس معا، وتداعب يدي وتسألني:

«هل جدي فاضت روحه؟».

وتسألني مرة أخرى عندما رأتني أومئ برأسي:

«هل عصفت به الريح؟».

لا تجرؤ والدتي وجياشين على البكاء بصوت عال، وتخشيان أن رحيل والدي يحزّ في نفسي وألحق بوالدي في الآخرة. وفي بعض الأحايين، لم أنتبه ويصيبني مكروه، وتنتابهما المخاوف من

جراء ذلك، وتتأكدان أنني لم أسقط على الأرض مثل والدي، وتشعران بالاطمئنان، ثم تقولان:

«أنت بخير».

وفي تلك الأيام، كانت والدتي تقول لي دائما:

«المرء لا يخشى الفقر مادام يعيش سعيدا».

تقوم والدتي بمواساتي، ومازالت تعتقد أن الفاقة تعذبني وتشقيني، وجعلتني على هذا النحو. وفي الحقيقة، أن تفكيري منخرط في رحيل والدي. لقد فاضت روحه في يدي. وتعيش معي والدتي وزوجتي جياشين في جحيم الحياة، بالإضافة إلى ابنتي فينغ شيا أيضا.

حضر حمي بعد انقضاء عشرة أيام عقب رحيل والدي، ودخل القرية ووجهه شاحب، ويحمل جلبابا في يده اليمنى، ويتبعه في الخلف هودج توشح بالحرير الأحمر، وزين باللون الأخضر، ناهيك عن عشرة شباب يقرعون الطبول ويدقون الصاجات، ويصطفون على الجانبين. وتزاحم أهالي القرية للفرجة، واعتقدوا أن هناك أسرة تزوج ابنتها، وقالوا لم نسمع هذا الخبر من قبل، وسأل أحدهم حمي:

«من الأسرة صاحبة الحدث السعيد؟».

حمي يتجهم وجهه، ويقول:

«بيتي صاحب الحدث السعيد».

في تلك الأثناء، كنت أقف أمام قبر والدي، وسمعت قرع الطبول، ورفعت رأسي ورأيت حمي يتقدم نحو مقدمة كوخنا ويستشيط غضبا، ويلوح بيده صوب الخلف، فيحط الهودج على الأرض، ويتوقف قرع الطبول. وعرفت ساعتئذ أنه حضر

ليستقبل جياشين وتعود أدراجها، وتتسارع دقات قلبي وتضطرب، ولا أعرف ما العمل.

سمعت والدتي وجياشين صوت الجلبة، وتخرجان من الغرفة، وتنادي جياشين:

«أبي».

حمي يحملق في وجه ابنته، ويقول لوالدتي:

«مَنْ ذاك الحيوان؟».

تقول والدتي والابتسامة تعلو ثغرها:

«تقصد من كلامك فو قوي، أليس كذلك؟».

يقول:

«هل هناك حيوان آخر غيره؟».

يدور حمي وجهه، ويحدق في وجهي، ويتقدم نحوي خطوتين، ويصرخ:

«تعال هنا يا حيوان».

أقف وأتسمر في مكاني، ولم أجرؤ على التقدم نحوه. يلوح حمي بيده نحوي، ويصرخ:

«تعال أنت أيها الحيوان، لماذا لا تأتي إلي وتدعو لي بالصحة والعافية؟ سمعت - أيها الحيوان - في الماضي تزوجت جياشين وغادرت بيتي، واليوم حضرت حتى تعود إلى بيتها. انظر إلى هذا الهودج، وانظر إلى الطبول، وكلاهما أفضل، بل وليسا أقل ما جهزته أنت في يوم زواجك».

يدور حمي رأسه بعد أن فرغ من صراخه، ويقول لجياشين:

«ادخلي بسرعة إلى غرفتك ورتبي أمتعتك وأغراضك».

تقف جياشين ولا تتحرك قيد أنملة، وتنادي:

«أبي».

يضرب حمي الأرض بقدمه بكل ما أوتي من قوة، ويقول:

«مازلتِ هنا، اذهبي بسرعة».

ترمقني جياشين بنظراتها، وأنا أقف في مكانٍ قصيّ، وتدور جسمها وتدلف إلى الغرفة، وتتدفق دموع والدتي آنذاك، وتقول له:

«حسنا، حسنا، اترك جياشين هنا».

لوح حمي بيده نحو والدتي، وأدار جسمه مرة ثانية وصرخ في وجهي:

«أيها الحيوان، من الآن فصاعدا لا توجد ثمة علاقة بينك وبين جياشين، ونقطع التبادل بين أسرتي تشين وشيوه إلى الأبد».

تحني والدتي ظهرها، وتتوسل إليه:

«نرجوكم أن تترك جياشين تمكث معنا من أجل خاطر أبي فو قوي».

صرخ حمي في وجه والدتي قائلا:

«أبوه جعله ينفجر غضبا».

يشعر حمي بأن تصرفاته كانت مفرطة إلى حدٍ ما بعد أن انتهى من صراخه، ثم يخفف من حدة نبرته، ويقول:

«وأنت لا تلوميني إذا كنت قاسيا، وما نحن فيه اليوم من جراء عبث فو قوي وتصرفاته السيئة».

يدور حمي جسمه نحوي مرة أخرى بعد أن يفرغ من كلامه، ويصرخ:

«فينغ شيا تبقى في عائلة شيوه، والطفل في أحشاء جياشين ينتمي إلى عائلتنا عائلة تشين».

تقف أمي جانبا وتتخرط في البكاء، وتكفكف دموعها، وتقول: «تصرفك على هذا النحو كيف أبرره لأجداد عائلة شيوه؟».

تخرج جياشين وتحمل في يدها صرة. وحمي يقول لها:

«اصعدي الهودج».

تلتفت جياشين وتحملق في وجهي، وتتقدم نحو الهودج، وتلتفت مرة أخرى، وترمقني بنظراتها، وتنظر إلى والدتي مرة ثانية، وتندفع إلى داخل الهودج، ولا أعرف - وقتئذ - من أين جاءت فينغ شيا تهرول، وحالما رأت أمها تركب الهودج، تريد أن تجلس معها، وينحشر نصف جسمها داخل الهودج، ولكن أمها تدفعها بيدها إلى الخارج.

يلوح حمي بيده نحو الهودج، ويُحمل الهودج وفي داخله جياشين التي تبكي بحرقة، ويصيح حمي:

«دقوا الطبول والصاجات من أجلي».

يقرع عشرة الفتيان الذين اصطحبوا حمي الطبول ويدقون الصاجات بكل قوة، ولذا لم أسمع صوت بكاء زوجتي جياشين. والهودج يسير على الدرب، وحمي يحمل في يده جلبابا، ويسير الهودج بسرعة. وأمي تمزقت قدمها، وتحاول يائسة أن تكون على مقربة من الهودج وتلاحقه في الخلف حتى تسمرت قدماها أمام مدخل القرية.

تهرع ابنتي فينغ شيا وتصبح على مقربة مني آنذاك، وتفتح عينيها، وتقول لي:

«يا والدي، أمي ركبت الهودج».

مظهر فينغ شيا المغتبط يجعلني أدرك الشقاء والعذاب، وقلت لها:

«تعالي هنا، يا فينغ شيا».

تأتي فينغ شيا إلى جواري، وأتحسس وجهها، وأقول:

«يا فينغ شيا! لا يمكن أن تنسي أنني أبوك».

تسمع فينغ شيا كلامي وتقهقه قائلة:

«وأنت أيضا لا يمكن أن تنسى أنني ابنتك فينغ شيا».

* * *

يرمقني فو قوي بعينيه، وأنا أضحك في هدوء عندما سرد قصة حياته إلى هذا الحد، وهو متسكع منذ أربعين عاما خلت، ويجلس الآن فوق العشب النضير، صدره عارٍ، وتخترق أشعة الشمس الشقوق بين أوراق الأشجار وتتسلط على عينيه المغمضتين نصف إغماضة، وتغص ساقاه بآثار الطين، وينتشر بعض الشعر الخفيف الأبيض فوق رأسه الأصلع، ويتجعد جلد صدره في شكل خطوط متوازية تتماوج داخلها حبات العرق المتدفقة. في هذه الأثناء، تجلس تلك البقرة العجوز القرفصاء في وسط مياه البركة الغزيرة مثل مياه النهر الأصفر، ويظهر فقط رأسها وظهرها الطويل، وأرى مياه البركة ترتطم بظهرها الأسمر.

قابلت ذاك الرجل العجوز في مستهل حياة الترحال والتجوال التي بدأتها وقتئذ منذ فترة قصيرة، وكنت مطمئن النفس وخالي البالي في شرخ شبابي، وكل وجه جديد يجعلني أشعر بحماسة بالغة، وكل الأشياء التي لا أعرفها تجذبني بشدة، وقابلت فو قوي في مثل تلك اللحظة التي تنتابني فيها تلك المشاعر، ويتحدث عن نفسه بإسهاب شديد، ولم أر أبدا رجلا مثله أفرغ لي كل ما في جعبته من معارف، فهو يرغب عن طيب خاطر في كشفها ما دمت أريد أن أعرفها.

لقائي مع فو قوي جعل نفسي تغص بالآمال المبهجة إزاء الأيام المقبلة التي أقوم فيها بجمع الأغاني الشعبية، وجال بخاطري أني أينما توجهت فسوف أجد ذاك الرجل فو قوي الذي يعيش فوق تلك الأرض الخصبة الغنية. وفي الأيام المقبلة، قابلت - فعلا - أشخاصا كثرا مثل الرجل العجوز فو قوي، ويرتدون - مثل فو قوي - البنطال، وتتدلى فرجة البنطال إلى الركبة، وتغص تجاعيد وجوههم بضوء الشمس والتراب، وعندما يبتسمون في وجهي، أرى بضع أسنان باقية في تجويف أفواههم. وتتدفق دموع آسنة من عيونهم عادة، وذلك ليس من جراء شعورهم بالحزن دائما، بل تنثال دموعهم عندما يشعرون بالغبطة التي تتخللها لحظات عدم الاستقرار والاطمئنان بسبب الأحداث، ثم يرفعون أيديهم الخشنة، التي تشبه الطرق الترابية في القرية، ويكفكفون دموعهم مثل فض قش الرز من أجسامهم.

وعلى كل حال، لم أقابل رجلا لا يمكن أن انساه مثل فو قوي، حيث يتذكر سيرته بجلاء شديد، كما يتمكن من شرح ذاته بدقة وعناية. كما أنه يعد نموذجا للذين يستطيعون إدراك حياته الماضية، ويستطيع أن يتذكر بدقة مشيته في عنفوان شبابه، بل حتى إنه يتمكن من معرفة ذاته، وكيف أصبح عجوزا هرما. وفي الواقع، أن لقاء مثل ذاك العجوز يُعد صعبا، وربما حياة الفقر أفسدت ذاكرته، وأمام الأحداث الماضية يبدو - عادة - لسانه مثل قطعة من الخشب ويتكلم ببطء، ويتصرف بغير اهتمام، والابتسامة الحائرة تعلو وجهه في الغالب. مثل هؤلاء تعوزهم الحماسة إزاء سيرتهم الذاتية، ويتذكرون فقط أشياء متفرقة والنذر اليسير مثل القيل والقال، وحتى هذه الأشياء المبعثرة

المتناثرة تقــع على هامش ذاكرتهم، ويعبــرون باقتضاب عن كل مــا يجول في خاطرهــم، وفي هذا المقام، أســمع دائما ذريتهم يلعنونهم ويقولون:

«قضوا عمرهم المديد كله في الحياة بجوار الكلاب».

يختلــف فو قوي عنهــم تماما؛ حيث يحب اســتعادة ذكريات الماضي، ويشغف بسيرته الذاتية، ويبدو أن حياته على هذا المنوال مكّنته أن يعيش الحيــاة من جديد مرة تلو الأخرى. وحديثه عن ســيرته سيطر على أقطار نفسي مثل استمساك مخالب الطائر بفروع الشجرة بإحكام شديد.

* * *

تجلــس والدتــي دائما جانبــا وتكفكف دموعهــا بمنأى عن الأنظار. وأريد فعلا أن أتحدث معها مواســيا إياها، بيد أنني لم أجد كلمات في جعبتي عندمــا رأيت مظهرها الكئيب، بل كانت تقول لي دائما:

«جياشــين هي زوجتك، وليس إنســانا آخــر، ولا يوجد أحد يجبرها على ترك بيتها».

ســمعت كلامها، وأســتطيع فقط أن أتنهد فــي قلبي، وهل أستطيع التفوه بكلمات أخرى؟ كرست اهتمامي من أجل أسرتي، ولكنهــا أصبحت مفككــة الأوصال مثل جرة مكســورة. وعندما يغشــى الليل، أمدد جسمي فوق السرير، ويهرب النوم من عيني دائمــا، وأكره هذا أحيانا، وأحــب ذاك أحيانا أخرى. وفي نهاية المطاف، مازالت نفســي تحظى بكراهيتي القصوى. وأفكر كثيرا في جوف الليل، وأشعر بالدوار في النهار، كما أنني حزين وكئيب طوال اليوم، وأشعر بالتحسن إلى حدٍ ما عندما تأتي ابنتي فينغ

شيا، وتسحب يدي دائما وتسألني:

«يا أبـــي، الطاولة الواحدة تحتوي على أربع زوايا، وإذا نزعنا زاوية منها، فكم واحدة تبقى؟».

لا أعرف أيضا في أي مكان ســمعت فينغ شــيا ذلك الكلام، وعندمــا قلت تبقى ثــلاث زوايا، تضحك فينغ شــيا في حبور، وتقول:

«خطأ، تبقى خمس زوايا».

حاولــت أن أضحــك بعــد أن ســمعت كلام ابنتــي، ولكني لم أســتطع، وتذكــرت أن أســرتي قوامها أصلا أربعــة أفراد، ومغادرة جياشــين تعني نقصان زاوية، ناهيك عن أنها حُبلى، ثم قلت لابنتي:

«انتظري حتى تعود أمك، ويكون لدينا خمس زوايا».

بعد أن بيعت كافة الأشــياء القيمة عن بكرة أبيها، تصطحب والدتي دائما فينغ شيا وتذهبان للتنقيب عن الخضراوات البرية، وتحمل والدتي سلة في يدها وتمشي متهاوية بأقدامها الصغيرة، ولا تمشــي بســرعة مثل حفيدتها فينغ شــيا. لقد غزا الشيب شعرها، ولكنها تريد أن تتعلم العمل الجسماني الذي لم تمارسه مــن قبل. وانثالــت دموعي عندما رأيت أمي تســحب حفيدتها وتمشــيان على مهلٍ خطوة خطوة، وأمارات الحذر والحيطة تعلو وجهيهما.

انخرطت فــي تفكير عميق بأنني لم أســتطع مرة أخرى أن تكون حياتي كمــا كانت في الماضي، ويجــب إعالة أمي وابنتي، وتشاورت مع والدتي أن أسافر إلى المدينة، وأقترض بعض النقود من الأهل والأصدقــاء حتى ندير دكانا صغيرا. والدتي لم تتفوه

بحرف بعد أن سـمعت كلامي، إذ يعز عليهـا فراق هذا المكان، والناس عندما يبلغون هذا السّن كلهم سواء يرغبون عن الانتقال إلى مكان آخر، ثم قلت لها:

«في الوقت الحاضر، لونغأر يمتلك البيت والأرض، وسيان أن تقيم أسرتنا هنا أو في أي مكان آخر».

سمعت والدتي كلامي، وقالت بعد فترة طويلة:

«قبر أبيك مازال هنا».

كلام والدتــي جعلني لا أجرؤ على أن أفكــر في طرح أفكار أخــرى مرة ثانية. وقدحــت زناد ذهني، واضطــررت إلى زيارة لونغأر.

أصبــح لونغــأر مالك الأرض هنــا، ويرتدي دائمــا الجلباب الحريــري، ويحمل في يــده اليمنى إبريق الشــاي ويذرع المدك الترابي ذهابا وإيابا، وروحه المعنوية مرتفعة، ويبتســم ابتســامة عريضــة من فمه المرصع بســنّين ذهبيتين، كما يقلص شـفتيه عندما يلعن المنظر المقزز للمأجورين. كنت أعتقد في البداية أنه يرحــب بالآخرين بحرارة وود، حتى أدركت رويدا رويدا أنه يريد أن يرى الآخرين سنّيه الذهبيتين.

وعندمــا يقابلنــي لونغأر يعتبر أنــه يعاملني بــأدب، ويقول والضحك يملأ شدقيه دائما:

«فو قوي، أدعوك إلى احتساء الشاي في بيتي».

أخشى دائما الذهاب إلى منزل لونغأر خشية أن يعتصر قلبي حزنــا عندما تطأ قدمي أرض تلك الغرفة التي كنت أقطن فيها، والآن أصبحت ملكا لأســرة لونغأر، وحاول أن تدرك الألم الذي يملأ قلبي.

وفي الواقع، عندما يهوي المرء إلى مثل هذه الحالة، لا يكترث كثيرا بمثل هذه الأمور، وأرى نفسي تنصاع لمقولة القدماء المأثورة: «عندما يكون المرء فقيرا، فإن طموحه ليس ساميا». وعندما قمت بزيارة لونغأر في ذاك اليوم، وجدته جالسا على أريكة من الطراز القديم في قاعة الضيوف بمنزلنا، ويضع قدميه على المقعد، ويحمل إبريق الشاي في يد، والمروحة في اليد الأخرى. وعندما رآني أدلف إلى الداخل، ابتسم ابتسامة عريضة قائلا:

«حضر فو قوي، هات مقعدا واجلس».

يمدد لونغأر جسمه فوق تلك الأريكة ولم يتحرك البتة، وأنا ليس عندي رغبة أن يدعوني لشرب الشاي المنقوع.

بعد أن جلست، قال:

«يا فو قوي، هل جئت لزيارتي من أجل الاقتراض؟».

لم أتفوه بكلمة «لا»، حتى أردف قائلا:

«يقول المنطق يجب عليَّ أن أقدم لك قرضا، ويقول القول المأثور: المساعدة في وقت الضيق، ولا لإغاثة الفقير، وأنا أستطيع فقط مساعدتك في وقت الضيق، ولا أقدم مساعدة للفقر الذي تعاني منه».

أومأت برأسي قائلا:

«أريد استئجار بضعة موات من الأرض».

بعد أن سمع كلامي، سألني والابتسامة تعلو وجهه:

«أأنت تريد استئجار بضعة موات؟».

أجبت قائلا:

«استئجار خمسة موات».

قال: «خمسة موات؟»،

رفع لونغأر حاجبيه وسأل:

«أنت ضعيف البنية تقدر على العمل، أليس كذلك؟».

قلت:

«الممارسة على العمل حتى يقوى جسمي».

يدوّر الفكرة في ذهنه، ويقول:

«نحن معارف قدامى، أعطيك خمسة موات من الأرض الخصبة».

كما تحدث لونغأر عن المشاعر المتبادلة، وأعطاني فعلا خمسة موات من الأرض الغنية، وأقوم بزراعتها بنفسي، ولم أشعر بالإرهاق قط، ولم أضطلع بالأعمال الزراعية أبدا، وتعلمتها من أهالي القرية، ولا تقل إنني تعلمت ببطء شديد. أعمل في الحقل طوال النهار، وعندما يغشى الليل أستمر في العمل بالأرض ما دام هناك ضوء للقمر. المحاصيل يجب أن تلحق بركب الموسم، وإذا فاتها موسم واحد يعني ضياع كل شيء. ولا تقل إعالة الأسرة يومذاك، بل لا أستطيع دفع الإيجار من المحاصيل للمالك لونغأر. والقول المأثور: «الطائر البطيء يطير قبل غيره»، وأنا يجب عليّ أن أكون الطائر البطيء الذي يطير كثيرا.

والدتي تحبني من أعماقها، وترافقني إلى الحقل وتعمل هناك، وقد أصبحت طاعنة في السن، ومن العسير أن تمشي، وعندما تحني ظهرها تحتاج وقتا طويلا حتى تنتصب، وتحط مؤخرتها دائما وتجلس في الحقل. وقلت لها:

«يا أمي، ارجعي إلى البيت بسرعة».

تومئ برأسها، وتقول:

«أربع أيادٍ أقوى من يدين».

قلت:

«إذا تعبت وأصابك المرض، فذلك يفقدك يديك، ويجب عليَّ العناية والاهتمام بكِ».

سمعت كلامي وعادت إلى الممر الترابي رويدا رويدا، وجلست هناك مع فينغ شـيا. وتصطحبني فينغ شـيا وتجلس على الممر الترابي يوميا، وتجني أزهارا كثيرة وتضعها بجوار قدمي، وترفع باقة من الزهور وتسـألني عن اسـمها، وأنـا كيف بمقدوري أن أعرف أسماء الزهور، ثم أقول:

«اسألي جدتك».

والدتـي تجلس على الممر الترابي، وتصيح عادة عندما تراني أستخدم المعزقة:

«احترس، إياك أن تجرح قدمك».

كما تصبح والدتي أكثر قلقا عندما أسـتخدم المنجل، وتقول باستمرار:

«لا تحدث قطعا وتجرح يدك».

اعتـادت والدتي أن تجلـس دائما فـي ذاك الجانب وتلفت انتباهـي، ولكـن دون جدوى؛ حيـث الأعمال الزراعيـة كثيرة، ويجب أن أعمل بسـرعة، والسـرعة لا يمكن أن تتجنب حدوث قطع وجروح في الأيادي والأقدام، وينزف الدم من يدي وقدمي، وتقلق والدتي بشـدة، وتتهادى أقدامها الصغيرة وتهرول، وتسد نزيف الدم بقطعة من الطين، وتعنفني بكل قوة، ويستمر توبيخها طويلا، ولا أستطيع الرد عليها حتى لا تسح دموعها.

تقول والدتـي دائما إن الطين في جـوف الأرض يعد الأكثر قدرة على نماء الإنسان، وليس نمو المحاصيل فحسب، بل القدرة

على الشـــفاء من الأمراض، وطوال العديد من السنوات الطويلة؛ إذا حـــدث جرح في أي مكان من جســـمي، ألصـــق عليه قطعة مـــن الطين الرطب، وقـــد أصابت والدتي فـــي كلامها؛ لا يمكن الاستخفاف بالطين لأنه يعالج الكثير من الأمراض.

إذا شـــعر المرء بالإعياء الشديد طوال اليوم، وكان خائر القوة لا يمكن أن يطلق العنان لتفكيره. وبعد أن استأجرت حقل لونغأر، انخرطت في سُـبات عميق بمجرد أن تأوي نفسي إلى فراشي، وليـــس عندي وقت إطلاقا للتفكير في أي شـــيءٍ. عشـــت أياما تجمع بين الشـــقاء والإرهاق، ولكن قلبي يشـــعر بالارتياح. وجال بخاطري أن عائلتنا شيوه تعتبر لديها كتكوتا صغيرا سيصبح وزة في غضون أقل من بضع سنوات، وسيأتي اليوم الذي تشهد فيه عائلة شيوه الازدهار من جديد.

منذ ذلك الحين فصاعدا، لم أرتد اللباس الحريري مرة أخرى، بل أرتدي الملابس الخشـــنة التي حاكتها والدتي بنفســـها. شعرت بوعكة صحية بعد ارتداء تلـــك الملابس لفترة من الزمن، وانتابتني نوبة من الحك الجلدي مرارا وتكرارا، ثم ما لبثت أن شعرت بالراحة مع تقادم الأيام. ورحل عن دنيانا وانغ شي في القرية من بضعة أيام خلت. وكان المستأجر لدينا منذ أمد بعيد، وعمره أكبر مني بعامين، وأوصى نجله - قبل وفاته - أن يهدي إليّ ملابســـه الحريرية، ولم ينس أبدا أنني الســـيد الكريم من عائلة محترمة، ويأمل أن يجعلني وتراني الأعين مرتديا الملابس الحريرية قبل أن تعاجلني المنية. أنا أحس بالتقصير إزاء مشـــاعره الرقيقة، ولا يتحمل جسمي اللباس الحريـــري، أخلعه لتـــوي عندما أرتديه؛ إنه ناعم وأملس، وتشـــعر عندما ترتديه بأنه لباس صُنع من مخاط الأنف.

جاء الفلاح الأجير في بيتنا تشـانغ قين لزيارتنا بعد انقضاء ثلاثة شهور أو أكثر، وكنت منهمكا بالأعمال الزراعية في الحقل ذلك اليوم، وتجلس والدتي وفينغ شيا على المدك. يمسك تشانغ قين في يده غصنا جافا يابسـا، ويدخل مرتديا أحماله البالية، ويحمل صرة في يده، كما يحمل سـلطانية فوهتها مكسورة، لقد تغيـر وأصبح اسـمه (هواتزي)، ورأته فينغ شـيا أولا، فنهضت واقفة، ونادته:

«يا تشانغ قين، يا تشانغ قين».

وعندما رأت والدتي تشـانغ قين، الذي تربـى في بيتنا منذ نعومة أظفاره حتى شب عن الطوق، هرولت للترحيب به. يمسح تشانغ قين دموعه، ويقول:

«يا سـيدتي، اشتاقت نفسي إلى سـيدي الكريم وفينغ شيا، وحضرت لرؤيتهما».

يسير تشانغ قين إلى الحقل، ويراني مرتديا الملابس الخشنة، ويغص جسمي بالطين، ويبكي بحرقة قائلا:

«سـيدي الكريم، لماذا أصبحت في حالـة يرثى لها على هذا النحو!».

كان تشـانغ قـين الأكثر شـقاء وعذابا بعد أن خسـرت ثروة أسرتي كلها، وكان يعمل في أسرتنا طوال حياته، وحسب الأعراف التقليدية، من اللازم أن تقوم أسرتي بإعالته بعد أن أصبح طاعنا في السن، ولكن أسرتي صارت في الحضيض، واضطر لأن يغادر بيتنا، حتى يتمكن من الحصول على الطعام ويعيش حياته.

اعتصـر قلبي حزنـا فترة من الزمن عندما عاد تشـانغ قين ورأيت ملامحه؛ ففي طفولتي كان يحملني على ظهره طوال اليوم

ونتجـــول في كافة الأصقاع، وبعد أن كبرت لم أعره اهتماما، ولم يخطر ببالي أنه يعود إلينا لزيارتنا، وسألته:

«أأنت بخير؟».

كفكف تشانغ ڤين دموعه قائلا:

«لا بأس».

سألته:

«ألم تحصل على أسرة تستخدمك؟».

طأطأ تشانغ ڤين رأسه، وقال:

«لقد تقدمت بي السنون، أهناك أسرة تستخدمني؟».

ذرفت الدموع عندما سمعت كلامه، وتشانغ ڤين لم يشعر بأنه ذاق طعم الشقاء، ويبكي على حالي أيضا، ويقول:

«يـــا ســيدي الكريم، هــل أنت تتحمــل وطــأة ذاك العذاب والشقاء؟».

بات تشانغ ڤين في كوخنا في مساء ذاك اليوم. وتشاورت مع أمي أن يمكث تشـــانغ ڤين في بيتنا حتى إذا أصبحت أيامنا أكثر شقاء، وقلت لها:

«أيا كان الشـــقاء والعذاب، نُصر أن يبقى معنا، ويمكن إعالته إذا وفر كل واحد منا جزءا من طعامه».

تومئ والدتي برأسها، وتقول:

«تشانغ ڤين طيب القلب حقا».

وأخبرت تشانغ ڤين في بكور اليوم التالي:

«يا تشـــانغ ڤين، لقد أحســـنت صنعا عندما عدت إلينا، ففي الوقــت الحاضر أحتـــاج مســـاعدا، وأنت تقطن هنـــا من الآن فصاعدا».

بعد أن سمع تشانغ قين كلامي، حدق في وجهي وضحك، واستمر في الضحك والقهقهة حتى تدفقت دموعه، وقال:

«يا سيدي الكريم، تكفيني مشاعرك الودية، وليس في جعبتي ما يعزز قوتك». وهمّ بالانصراف بعد أن فرغ من كلامه، فأصرت والدتي وأنا على ألا ينصرف، بيد أنه قال:

«لا تمنعاني من الانصراف، سوف أقوم بزيارتكما من الآن فصاعدا».

بعد أن غادر تشانغ قين بيتنا في ذاك اليوم، جاء لزيارتنا مرة أخرى، وأحضر هدية لابنتي، وهي عبارة عن شريط حريري أحمر تعقد به ضفيرتها، وقد عثر عليه، وبعد أن غسله علقه على لبان صدره، ولم أره ثانية منذ مغادرته في تلك المرة.

استأجرت حقل لونغأر، ويعني ذلك أنني المستأجر لديه، ومن ثم لا أستطيع أن أناديه باسمه لونغأر كما كان في الماضي، ويجب أن أناديه بالعم لونغأر. سمعني أناديه بهذا اللقب في أول الأمر، وهو يلوح بيده دائما ويقول:

«يا فو قوي، لا داعي للتكلف بيننا».

لقد اعتاد على ذلك مع مرور الأيام، وكان يأتي دائما ونتجاذب أطراف الحديث عندما أضطلع بالأعمال الزراعية في الحقل، وذات مرة، عندما كنت أقطع عيدان الأرز، وتجمع فينغ شيا السنابل وراء ظهري، جاء لونغأر يتهادى في مشيته، وقال لي:

«يا فو قوي، قررت الابتعاد عن المقامرة، ومن الآن فصاعدا لا ألعب القمار مرة أخرى. وقاعة القمار لا تعرف فائزا، وقد رأيت بأم عيني ذلك، ولذا قررت نبذ القمار حتى لا تتدهور حياتي في المستقبل وتصبح مزرية مثل أحوالك الآن».

أحنيت ظهري احتراما لونغأر، وقلت في أدب جم:

«أجل، يا عم لونغأر».

أشار لونغأر إلى فينغ شيا، وسأل:

«إنها ابنتك الصغيرة، أليس كذلك؟».

أحنيت ظهري مرة أخرى احتراما له، وقلت:

«أجل، يا عم لونغأر».

أرى ابنتـي فينغ شـيا تقف هناك، وتحمل سـنابل الأرز في يدها، وتحملق في لونغأر مذهولة، وبادرت وقلت لها:

«يا فينغ شيا، أدّي التحية للعم لونغأر بسرعة».

تتعلم فينغ شيا وتحني ظهرها احتراما له على غرار ما فعلت، وتقول:

«أجل، يا عم لونغأر، أنا ابنته».

أشعر دائما بالقلق على زوجتي جياشين؛ حيث مازال ابني في أحشـائها. وبعد انقضاء شهرين ونيف منذ مغادرتها، كلفت أحد الأشخاص أن يحمل إلينا رسالة شفوية، وذكرت أنها أنجبت ابنا، وأطلق حمي اسـم «يوي تشينغ». والدتي تسـأل حامل الرسالة بهدوء:

«وما لقب يوي تشينغ؟».

يقول ذاك الرجل:

«لقبه شيوه».

كنت أعمل في الحقل وقتئذ، تتهادى والدتي بقدمها الصغيرة وتهرول نحوي وتخبرني، لم تفرغ من كلامها إلا وراحت تمسـح دموعها، وعندما عرفت أن جياشين أنجبت ابنا لي، رميت المعزقة وهرولت نحو المدينة؛ هرولت أكثر من عشـر خطوات، ولا أجرؤ

علــى الهرولة، وفكرت مليا إذا ذهبت إلــى المدينة لرؤية زوجتي وابني، وأخشى أن حمي قد يرفض دخولي من عتبة الباب، وقلت لوالدتي:

«يــا والدتي، أنــتِ تلملمين وترتبين الأشــياء، ونذهب لزيارة جياشين وأسرتها».

ذكرت والدتي مرات عديدة أنها تعتزم السـفر إلى المدينة من أجل رؤية الطفل، بيد أنها لم تتحرك البتة منذ بضعة أيام خلت، وليس من اللائق أن أحثها على زيارة زوجتي، وحسب عاداتنا هنا فإن أسرة جياشين أجبرت زوجتي على مغادرة بيتها، ويجب على الأسرة ذاتها أن تعيد زوجتي إلينا، وقالت والدتي لي:

«ابنك يوي تشينغ لقبه شيوه، ولذا يجب على جياشين أن تعود فورا».

وأردفت:

«جياشــين صحتهــا هزيلة الآن، ومن الأفضــل أن تمكث في المدينة، ويجب عليها أن ترمم وتقوى صحتها».

عادت زوجتي جياشــين أدراجها عندما بلغ يوي تشــينغ ستة شــهور، ولم تركب هودجا عندما رجعــت إلينا، بل وضعت ابنها في صرة بعد ولادته، وترجلت أكثر من خمســة كيلومترات حتى وصلت إلى بيتنا. يغمض يوي تشينغ عينيه، ويسند رأسه الصغيرة على كتف أمه ويهزها ويعدو ليتعرف عليّ.. أنا أبوه.

ترتدي جياشــين فستان تشيباو لونه أحمر، وتحمل في يدها صــرة لونها أبيض ناصع فوق أرضية زرقــاء، وملامحها جميلة الطلعة. تتفتق زهور الشــلجم على جانبي الطريق ولونها أصفر ذهبي. أســراب النحل تذرع المكان ذهابا وإيابا، وتصدر الطنين.

تتقدم جياشـــين إلى مدخل كوخنا، ولــم تدلف إلى الداخل على حـــين غرة، ووقفت أمام المدخل، وتحملــق في والدتي والضحك يملأ ثغرها.

تجلـس والدتي في الغرفة وتصنع نعلا، وترفع رأســها وترى امرأة حســناء تقف أمام المدخل، ويحجب جسمها الضوء ويتلألأ وجهها، ولم تتعرف إليها والدتي بأنها جياشين، ولم تر ابني يوي تشينغ المتواري خلف أمه، وتسألها والدتي:

«أيتها الفتاة، مَنْ أسرتك؟ وجئتِ لزيارة مَنْ؟».

تنفجر جياشـــين في الضحك بعد أن ســمعت كلام والدتي، وتقول:

«أنا، أنا جياشين».

في ذلك الحين، كنت أنا وفينغ شــيا في الحقل. تجلس فينغ شـــيا على المدك وتـــرى أباها يعمل في الحقل، وســـمعت صوتا يناديني، الصوت يشبه صوت والدتي، كما لا يشبه صوتها بعض الشيء، وسألت فينغ شيا:

«مَنْ يناديني؟».

تدور فينغ شيا جسمها، وتنظر في كافة الأنحاء، وتقول:

«جدتي».

نهضـــت واقفا ورأيت أمـــي تقف عند مدخـــل الكوخ وتحني ظهرها وتناديني بكل قوة، وتقف بجوارها جياشـــين حيث ترتدي فســـتان تشـــيباو الأحمر وتحمل صرة في يدها. فينغ شيا تطلق الريـــح لأرجلها عندما رأت أمها. أنـــا أقف في حقل الأرز، وأرى والدتي تحني ظهرها وتناديني وتستجمع قواها الخائرة، وتسند يدها على ســـاقيها حتى لا تسقط من عليائها. تهرول فينغ شيا

بســـرعة جدا، وتتمايل على المدك يُمنة ويُسرة حتى ارتمت على قدم أمها أخيرا، وتجلس القرفصاء وجياشين التي تحمل الصرة، وتحتضن فينغ شـــيا. أســـير على المدك وقتئذ، ومازالت والدتي تناديني، وكلما اقتربت منهن أشـــعر بالـــدوار والدوخة. وقادتني قدمي على طول الطريق إلى أمام جياشين، وضحكت في وجهها. تنهض جياشـــين، وتســـمر عينيها وتحملق فيّ فتـــرة من الزمن. وملامحي الكئيبة البائسة آنذاك جعلت جياشين تحتضن رأسها وتبكي بكاء صامتا.

والدتي تنخرط في البكاء جانبا، وتقول لي:

«قلت لك إن جياشين زوجتك، ولا يمكن أن يخطفها أحد».

اكتملـــت أركان البيت بعودة جياشـــين. وبات عندي مســـاعد عندما أقـــوم بالأعمـــال الزراعية، وبدأت أحـــب زوجتي، وهذا ما أخبرتني به جياشين، ولكن نفسي لم تشعر بذلك.

أقول دائما لجياشين:

«اذهبي إلى الممر الترابي واستريحي قليلا».

الفتاة جياشين ولِدت في الحضر، وجلدها ناعم طري، ورأيتها تضطلع بالأعمال البســـيطة، وأحببتها طبعا. وابتسمت مغتبطة عندما سمعت كلامي وأجعلها تستريح، ثم قالت:

«أنا، لا أشعر بالتعب».

وتقـــول والدتي دائما: المرء لا يخشـــى الفقر مادام يعيش في سعادة. تخلع جياشين فستان تشـــيباو وترتدي الملابس الخشنة مثلي، وتشـــعر بالإعياء الشـــديد طوال اليوم حتى لا تستطيع أن تلتقط أنفاســـها، والابتســـامة لا تفارق ثغرها. وابنتي فينغ شيا طفلة جميلة، وتشـــعر بالفرح والسرور على الرغم من أننا انتقلنا

من المنـــزل المبني بالقرميد إلى الكوخ، ونــأكل الحبوب الغذائية الخشـــنة ولا نتقيأ في الخارج. وبعد أن حضر شقيقها الصغير كانت أكثــر بهجة وغبطة، ولم تعد ترافقنـــي في الحقل، وتركز تفكيرها في حمله بين ذراعيها. لقد جاء إلى الدنيا يوي تشينغ، وعاشـــت شـــقيقته الكبرى أياما طيبة في غضون أربع أو خمس ســنوات، أما هو فقد مكث فقط ستة شهور في المدينة، ثم جاء إلى جوارنا يتذوق الشــقاء والمعاناة، وأشعر نحوه بوخز الضمير الأكثر ألما.

ســقطت والدتي مريضـــة بعد انقضاء عام مـــن الأيام التي ذقنا فيها العذابات، وشـــعرت - في البـــدء - بالدوار، وذكرت أنها تشـــعر بـــأن ذهنهـــا كليل عندما تنظـــر إلينا، لـــم أعِرْها اهتمامـــا، وأفكر أنها باتـــت طاعنة في الســـن، ومن الطبيعي ألّا ترانـــا بوضوح. وبعد ذلك، وذات يـــوم كانت تضرم النار، ثم مالت برأسها على حين غرة واستندت على الحائط كأنها تغط فـــي النوم، ولا تزال تتكئ علـــى الحائط حتى عندما رجعت أنا وجياشـــين من الحقل، وجياشـــين تناديها، ولكنها لا ترد أيضا، وتمد يدها وتهزها، وتنزلق من الحائط بسلاسة. تفزع جياشين وتصرخ بصوتٍ عال وتناديـــي، هرولت إلى الموقد. نهضت من سُـــباتها حينئذ، وحملقت في وجوهنا فترة من الزمن، اشتمّت رائحة الطبخ المحترق، وأدركت أن الطعام شاط، وفتحت ثغرها آنذاك وقالت:

«آه، كيف غلبني النوم؟».

نهضت والدتي مضطربة الذهن، تقف حتى منتصف ســـاقها وترتخـــي وتهوي على الأرض. حملتها إلى الســـرير فورا، وقالت

إنها تتغمس في النوم بصورة تؤكد أنها لم تمت، وتخشى أننا لا نصدقها، جياشين تطرحني جانبا، وتقول:

«اذهب إلى المدينة وادعُ طبيبا تقليديا».

دعوة الطبيب التقليدي تحتاج إلى النقود، وقفت ولم أتحرك قيد أنملة تدس جياشين يدها في قاع فراش محشو بالقطن، وتأخذ دولارين من الفضة مربوطين في منديل، نظرت إلى تلك الدولارين الفضيين، تطوي جياشين المنديل بصورة متناسقة وتدسه في قاع الفراش مرة أخرى، ثم تُخرج ملابس نظيفة، وتطلب مني أن أغيّر ملابسي. قلت لها:

«أنصرف وأذهب إلى المدينة».

لم تنطق جياشين بكلمة، تبعتني وسارت حتى المدخل، مشيتُ بضع خطوات، وأدرت رأسي ورمقتها بنظرة، وكانت تهندم شعرها إلى الخلف، وتومئ برأسها نحوي. كانت المرة الأولى التي أفارقها منذ عودتها إلى البيت، وعلى الرغم من أنني أرتدي أسمالا بالية، ولكنها نظيفة جدا، وألبس النعل القشي الجديد الذي صنعته أمي، وذلك من أجل السفر إلى المدينة. تجلس فينغ شيا على الأرض أمام المدخل، وينام في حضنها شقيقها يوي تشينغ، وترتدي ملابس نظيفة، وتسألني:

«يا والدي، أتذهب إلى الحقل؟».

أسير بخطوات سريعة جدا، ووصلت إلى المدينة في أقل من نصفِ ساعة، ولم أذهب إلى هناك منذ عام ونيف، وشعرت بالارتباك حقا عندما دلفت إلى داخل المدينة، وأخشى مقابلة المعارف القدامى بالمصادفة ويرون الملابس البالية التي أرتديها، ولا أدري ماذا يقولون عني؟ وكانت رؤية حمي أكثر ما أخشاه،

ولا أجرؤ على المشي في الشارع الذي يقع فيه دكان الأرز. آثرت سلوك الطريق ذي المنعطفات. وأعرف في المدينة قليلا من الأطباء التقليديين من ذوي فن الطب، كما أعرف من يطلب أجرا باهظا، ومن يطلب أجرا معقولا. فكرت مليا في الأمر، وقررت الذهاب إلى الطبيب (لين) القاطن بجوار دكان الحرير، وهو الرجل العجوز صديق حمي، وربما يطلب أجرا قليلا إلى حدٍ ما من مال جياشين.

عندما كنت أمر أمام البيت الكريم للجد الأكبر شيان، رأيت طفلا صغيرا يرتدي الملابس الحريرية، ويقف على رؤوس أصابعه، ويحاول بكل قوة أن يقبض على حلقة طرق الباب النحاسية، وعُمر ذاك الطفل يناهز عمر ابنتي (فينغ شيا)، ظننت أنه ربما يكون حفيد الجد الأكبر شيان، وتقدمت نحوه، وقلت له:

«أساعدك في طرق الباب».

طأطأ الطفل رأسه مغتبطا، وقبضت بيدي على الحلقة النحاسية وطرقت عدة طرقات على الباب بكل قوة، فردّ أحد الأشخاص في الداخل قائلا:

«تعال».

يقول الطفل لي وقتئذ:

«نهرب بسرعة».

لم أفهم كلام الطفل الذي يلتصق بالحائط ويهرب خلسة. بعد أن فُتح الباب، نظر خادم مهندم اللباس إلى ملابسي، ولم ينطق بكلمة، ومد يده ودفعني بها، ولم يخطر ببالي أن يتصرف على هذا النحو، فسقطت وتدحرجت على درجات السلم في

لحظة. ثم نهضت واقفا، وصرفت النظر عما حدث أصلا، ولكن هذا الفتى ينزل على السلم ويركلني، ويقول:

«تسول، ولكن ليس في هذا المكان».

أشعر بالغضب الشديد بصورة فجائية، ولعنته قائلا:

«لا أتسول منك، وأبوك يقضم عظام أجدادك النخرة في القبر».

انقض عليّ وضربني، وصفع وجهي، وركل قدمي، وكنا متشابكين يضرب كلٌ منا الآخر. كانت بشرة هذا الفتى سمراء، ولم يستطع أن يهزمني على حين غرة، وراح يمسك منفرج بنطالي ويرفع قدمي، أما أنا فركلت مؤخرته مرات عديدة، وكلانا لا يجيد الشجار، تعاركنا فترة من الزمن حتى سمعنا أحد الأشخاص يصيح في الخلف:

«منظر قبيح جدا، هذان الحيوانان يتعاركان ومنظرهما قبيح للغاية».

كففنا عن تحريك اليدين والقدمين، ونظرنا إلى الخلف، فرأينا جنديا من حزب الكومنتانغ يرتدي الملابس الصفراء يقف هناك، وعربة تجر أكثر من عشرة مدافع. والشخص الذي كان يصيح وينادي علينا يشبك مسدسا في الحزام؛ إنه موظف كبير. وذلك الخادم خفيف الحركة حقا، طأطأ رأسه وأحنى ظهره بمجرد أن رآه، وقال:

«الضابط الكبير، هييه، الضابط الكبير».

يلوح الضابط الكبير بيده نحونا قائلا:

«أنتما الحماران الأحمقان اللذان لا تجيدان الشجار، اسحبا المدفع الكبير».

أحسسـت بوخزات في رأسي عندما سمعت هذا الكلام، لقد أُجبرت أن أكون مجندا قسريا، وشعر ذاك الخادم بالقلق، فتقدم نحو الأمام، وقال:

«أيهـا الضابط الكبير، أنا من عائلة الجد الأكبر شـيان في هذه المحافظة».

قال الضابط الكبير:

«نجل الجد الأكبر شـيان يجب عليه أن يبذل الجهود بشـكل أكبر من أجل دولة حزب الكومنتانغ».

الخادم شعر بالخوف، وقال:

«لا، لا. لسـت ابنه، ولا أجرؤ أن أكـون ابنه حتى إذا ضربني ضربا مبرحا. يا قائد الفصيل، أنا خادم الجد الأكبر شيان».

لعنه الضابط الكبير بصوت عالٍ قائلا:

«يا ابن العاهرة، معلمكم قائد السرية».

قال:

«أجل، نعم، قائد سرية، وأنا خادم الجد الأكبر شيان».

كلام الخـادم غير ذي جدوى، بل جعل قائد السـرية يشـعر بالضيق الذي يمد يده ويصفعه على وجهه، ويقول:

«يا ابن العاهرة، لا تكترث بالكلام الأجوف، انصرف واسحب المدفع الكبير»، ثم نظر إليّ وقال: «أنت هنا أيضا».

اضطررت إلى السير، وقبضت على عنان الحصان، وتبعتهما في الخلف وهما يتقدمان إلى الأمام، وحاولت البحث عن فرصة وقتئـذ لألوذ بالفرار، مازال الخادم في الأمام يتوسـل إلى قائد السرية، وبعد أن قطع شوطا من الطريق، استجاب قائد السرية لتوسله على غير المتوقع، وقال:

«نعم، أجل، انصرف، أنت أيها الصبي جعلتني أشعر بالضيق الشديد».

الخادم طار من شدة الفرح، وأراد أن يجثو أمامه ويسجد من أجله، ولكنه لـم يركع، وظل يفرك يديه بلا انقطاع أمامه. يقول قائد السرية:

«مازلت هنا؟ امشِ من هنا!».

يقول الخادم:

«أمشي، أنصرف، أغيب عن وجهك الآن».

تفوه الخادم بمثل تلك الكلمات وأدار جسمه وانصرف، واستل قائد السـرية وقتئذ مسدسا يشبكه في خصره، ومد ذراعه على نحو معتدل، وأغمض إحدى عينيه واستهدف الخادم المنصرف. الخادم يمشـي عشـر خطوات وأكثر، ويدور رأسه وينظر وراءه، فيرى الرجل الذي بث الفزع في نفسه واقفا هناك، وتعلو ملامحه البلاهـة، ولا يتحرك قيد أنملة، إنه يشـبه عصفور الدوري في الليل، مما جعل قائد السرية يتخذه هدفا، ويقول له:

«انصرف، امشِ».

سـقط الخادم على الأرض جاثيا، وانتحب بصوتٍ مصحوب بالبكاء:

«يا قائد السرية، قائد السرية، قائد السرية».

صوب قائد السـرية المسدس نحوه، ولم يضربه في مقتل، بل ضـرب الأرض بجواره وتطاير الحصى وأحـدث جرحا في يده التي تنزف الدم، وقبض قائد السـرية على المسـدس بيده ولوّح نحوه قائلا:

«انهض، انهض».

ينهض واقفا، ويقول قائد السرية أيضا:

«امشِ، انصرف».

يبكي حزينا، ويقول متلعثما:

«يا قائد السرية، أنا سحبت المدفع الكبير».

قائد السرية، يمد ذراعه معتدلا مرة أخرى، ويستهدفه للمرة الثانية، ويقول:

«انصرف، امشِ».

في ذلك الحين، يدرك الخادم بصورة فجائية ويدير جسمه، ويلوذ بالفرار بصورة مجنونة، وعندما يصوب قائد السرية مسدسه نحوه للمرة الثانية، كان تسلل في التو إلى إحدى الحارات. يحملق قائد السرية في مسدسه، ويسب قائلا:

«اللعنة عليك، أغمضت عيني بالخطأ».

يدور قائد السرية جسمه، ويراني واقفا في خلفه، ويأخذ مسدسه ويتقدم نحوي، ويصوب فوهة المسدس نحو صدري، ويقول لي:

«وأنت تنصرف أيضا».

ترتجف ساقاي بكل قوة آملا أن يغمض عينيه تماما هذه المرة على سبيل الخطأ، ويرسلني بطلقة واحدة إلى الجنة الغربية في الديانة البوذية. ثم قلت:

«أنا سحبت المدفع الكبير، سحبت المدفع الكبير».

تسحب يدي اليمنى عنان الحصان، وتقبض يدي اليسرى على الصرة التي أعطتني إياها جياشين ويوجد بها دولاران فضيان. وعندما غادرت المدينة، ألقيت نظرة على الحقل وعلى بيتي الذي يشبه الكوخ، وأخفضت رأسي وانخرطت في البكاء.

مشــيت وراء قائد المدفعية المتوجه نحو الشمال، وكلما مشينا ننـــأى بعيدا حتى وصلنا إلى مقاطعة أنهوي بعد أكثر من شـــهر. وفـــي بدايـــة الأيام الأولى، كنـــت أفكر في الهـــرب، ولم أكن أنا الوحيد الذي يفكر في الهرب آنذاك. ويختفي من ســـريتنا وجه أو وجهان كل يومين من الوجـــوه المألوفة لدينا. وجال بخاطري، أنهم لاذوا بالفرار، وســـألت جنديا قديما يدعى (لاوتشوان) إذا كان الأمر كذلك أم لا؟

ويجيب قائلا:

«لا يستطيع أي جندي الهرب».

سألني لاوتشوان:

«هل سمعت في جوف الليل أصوات إطلاق الرصاص أم لا؟».

قلت: «سمعت».

فقال:

«إنها أصوات إطلاق الرصاص على الجنود الهاربين، والذين لا يلقون حتفهم من ذوي العمر المديد، تقبض عليهم سائر وحدات الجيش».

قلبي يرتعد خوفا بعد ســـماع كلام (لاوتشوان) الذي أخبرني بأنـــه أجبر أن يكـــون جنديا قســـريا أثناء حـــرب المقاومة ضد اليابان، ثم هرب عندما وصل إلى مقاطعة جيانغســـي، وما لبث أن قبـــض عليه بعد بضعة أيـــام من قِبَل القـــوات المتوجهة إلى مقاطعـــة فوجيان. ولم يخض غمار الحرب ضـــد اليابانيين في فترة تجنيده التي اســـتمرت ست ســـنوات أو أكثر، ولكنه خاض حربا فقط مع ميليشيات الحزب الشيوعي الصيني، وهرب سبع مـــرات خلال تلك الفترة، وكانت تقبض عليه القوات الأخرى في

كل مــرة، وفي المرة الأخيرة، كان يبتعد عن بيته بحوالي خمســة كيلومتــرات وأكثر، وكانت النتيجة أنــه اصطدم بفريق المدفعية. وأضاف أنه لا يعتزم الهرب مرة أخرى، وأردف قائلا:

«لقد سئمت الهرب».

ارتدينا السترات المبطنة بعد عبورنا نهر اليانجتسي، وتبددت رغبتي تماما في الهرب بعد عبور هذا النهر، وتضاءلت جسارتي علــى الهرب كلما نأت نفســي عن بيتي. تضم ســريتنا أكثر من عشرة شباب تتراوح أعمارهم من الخامسة عشرة إلى السادسة عشــرة، ناهيك عن الطفل المجند ويدعى (تشــون شينغ)، وهو من أهالي جيانغصو، ويســألني دائمــا إذا كانت الحرب تقع في الشــمال أم لا؟ وكانت إجابتي بالتأكيد. وفــي الواقع، لا أعرف شــيئا، ويسرح تفكيري أنني أصبحت جنديا ولا أستطيع الهرب، وأســتعد لخوض غمار الحرب. كنت أنا وتشون شينغ الأكثر ألفة ومودة، ويقترب مني دائما ويسحب ذراعي ويسألني:

«هل تذوقت طعم الهزيمة؟».

وأجيب:

«لا أعرف».

أشــعر بالحزن الدفين في ســويداء قلبي عندما أتفوه بمثل تلك الكلمات. وبعد عبور نهر اليانجتســي، بدأنا نســمع صوت طلقات الرصــاص. وفي البداية، كانت بعيــدة، وبعد يومين من المشي، أصبحت أصوات الأسلحة النارية أكثر دويا. ووصلنا إلى قريــة إذ ذاك، ولا تقل ليس فيها إنســان، بــل لا ترى فيها حتى الســوائم. وأمرنا أن ننصب المدافع، وأعرف أن هذا الأمر يعني وقوع الحرب حقا. يتقدم أحد الجنود ويسأل قائد السرية:

«يا قائد السرية، ما اسم هذا المكان؟».

يجيب قائد السرية:

«أنت تسألني، أيها الوغد، وأنا أسأل مَنْ؟».

قائد السرية لا يعرف المكان الذي وصلنا إليه، وأهالي القرية فروا عن بكرة أبيهم. وأجيل بصري في كافة البقاع، فلا أرى ثمة شيئا عدا الأشجار عارية الأوراق وبعض الأكواخ. وبعد انقضاء يومين، زاد عدد الجنود الذين يرتدون الملابس الصفراء يوما بعد يوم، جاؤوا من الجهات الأربع فرقا، وانصرفوا فرقا أيضا، ورابضت بعض القوات بجوارنا. وبعد انقضاء يومين آخرين، أطلقنا نار المدفعية، ولم يبادلنا أحد إطلاق النار، وأخبرنا قائد السرية قائلا:

«لقد تمت محاصرتنا».

لم تُحاصر سريتنا فحسب، بل حوصرت أيضا القوات التابعة للدولة، وقوامها أكثر من مئة ألف جندي في محيط مكان يبعد فقط عشرة آلاف كيلو متر ويغص بالملابس الصفراء كأنما يشهد حضور مهرجان المعبد. يركز لاوتشوان انتباهه آنذاك، ويجلس على كومة تراب خارج الممر، ويدخن سيجارة، ويرقب هؤلاء الجنود من ذوي البشرة الصفراء ويذرعون المكان جيئة وذهابا، ويتبادل التحية دائما مع بعض المشتغلين بالسمسرة، إنه يعرف أناسا كثرا حقا. وقد جاب لاوتشوان البلاد شمالا وجنوبا، وعمل داخل صفوف سبع وحدات عسكرية، وتبادل اللعنات والسباب مع نفر من معارفه القدامى وانخرط في الفرح والمرح، كما يتبادلون الاستفسار ومعرفة أسماء بعض الأشخاص، وسمعتهم يسألون عن أشخاص رأيتهم قبل يومين،

وليس أشــخاصا رحلوا عن دنيانا. ويخبرني لاوتشوان وتشون شينغ أن هؤلاء الأشخاص في البداية لاذوا بالفرار معه، وعندما كان يتحدث لاوتشوان بتلك الكلمات صاح أحد الأشخاص نحو المكان الذي نجلس فيه قائلا:

«يا لاوتشوان، أنت مازلت على قيد الحياة؟».

قابل لاوتشـــوان أحد معارفه القدامى أيضا، وضحك بهدوء قائلا:

«متى يعود ابنك بعد إلقاء القبض عليه؟».

لم ينطق ذلك الشخص بكلمة. ويصيح شخص ما على الجانب الآخر، وينادي لاوتشوان، يلتفت لاوتشوان التفاتة، وينهض واقفا في عجالة، ويصيح:

«آه، أتعرف أين يوجد لاونيانغ؟».

الضحك يملأ شدق ذلك الرجل، ويقول:

«لقد مات».

يجلس لاوتشوان، وهو كسير الفؤاد، ويسب قائلا:

«أيها الوغد، هو مدين لي بدولار فضي».

لاوتشوان يخبر تشون شينغ وأنا، وهو يشعر بالفخر:

«انظر، لم يفلح أحدٌ في الهرب».

في البداية، تمت محاصرتنا، ولم يضربنا جيش التحرير في التو، ولم نشعر بالخوف، وكذلك قائد السرية أيضا. ويقول إن رئيس اللجنة ويدعى بيانغ سيرســل دبابة لإنقاذنا، وبعد ذلك، تدوي أصوات الأسلحة النارية أكثر فأكثر، ولم نشعر بالخوف بدرجة كبيرة، ونشــعر فقط بالفراغ، ونضيع الوقت بالتكاسل وعدم الاضطلاع بأي شــيءٍ، ولم يأمرنا قائد السرية بإطلاق

النار. جندي قـــديم ينخرط تفكيره في أن إخواننا في المقدمة ينزفون دمـــا ويفقدون حياتهـــم، وأذهاننا خاليـــة، وأعصابنا هادئـــة، ولم نفكر في أي وســـيلة لإنقاذهم، ثم ذهب إلى قائد السرية وسأله:

«هل نطلق عدة قذائف؟».

قائد السرية يتوارى آنذاك داخل النفق ويلعب القمار، ويرغي ويزبد، ويرد على السؤال بسؤال:

«نطلق قذائف، أين نطلق هذه القذائف؟».

كان كلام قائد الســـرية صائبـــا، وإذا أطلقنا عدة قذائف قد تســـقط على رؤوس أشقائنا في جيش الدولة، وجيش الدولة في المقدمـــة يقاتل -بلا توقف- الذين عادوا إلى الانتقام منا، وليس ذلك مداعبة إطلاقا. وأمرنا قائد الســـرية أن ننتظر في النفق، ونضطلع بما يحلو لنا عدا الخروج وإطلاق القذائف.

بعـــد الحصار، اعتمد حصولنا علـــى الأغذية والذخيرة على الإنـــزال الجوي. وتتدافـــع أعداد غفيرة من جيـــش الدولة مثل النمـــل عندما تظهـــر للعيان الطائرات في الســـماء، وتســـقط صناديق الذخيـــرة التي لا يريدها أحـــد، ويتزاحم الجميع على أكيـــاس الأرز. وعند مغادرة الطائرات، يحمل جنديان شـــقيقان من هذا الجيش كيس الأرز بعد الســـطو عليه، ويسير بجوارهما جنـــدي يحمل بندقية من أجل توفير الحمايـــة لهما. وعلى هذا النحو، رجع الجنود إلى نفقهم بعد أن تفرقوا فرقا وجماعات.

وبعـــد انقضاء فترة قصيرة، تدفقت أفـــواج العصابات التابعة لجيـــش الدولة إلى البيوت والأشـــجار العارية الأوراق، وتســـلقت ســـقوف الأكـــواخ القريبة والبعيـــدة، كما أزالوا الأكـــواخ وقطعوا

الأشـــجار أيضا، ويشـــبه ذلك الحرب أيضا. والأصوات المشوشة المبعثرة أخمدت تقريبا أصوات الأسلحة النارية على طول الجبهة، واندثرت البيوت والأشجار التي شهدتها الأعين في غضون نصف يوم، وغصت الأرض العراء بالجنـــود الذين يحملون على أكتافهم عوارض البيوت الخشـــبية وأخشاب الأشـــجار، كما يحملون في أيديهـــم ألواح الأخشـــاب والمقاعد، ويرجعون إلـــى النفق الخاص بهم، وبعد ذلك تتصاعد أدخنة طهي الأرز وتتهاوى في الجوزاء.

كان الخرطوش أكثر ما يغص به المكان وقتئذ، ولا يشعر المرء بالراحـــة في أي مكان يطرح جســـمه فيه. تمت إزالة المباني في الجهات الأربع، وقطعت الأشـــجار عـــن بكرة أبيها أيضا، وقوات جيـــش الدولة التـــي تملأ كافـــة البقاع تحمل الحـــراب وتقطع الأعشـــاب اليابســـة، وتشـــبه هذه الحال انهماك المزارعين في قطع عيدان الأرز، وبعض الأفراد تغص رؤوســـهم بحبات العرق ويقتلعون جذور الأشـــجار. كما أن بعـــض الأفراد حفروا القبور، ويستخدمون ألواح التوابيت التي يستخرجونها من باطن الأرض في إضـــرام النـــار. وعظام الموتى فـــي تلك التوابيـــت يقذفون بها فـــي مكان خـــارج النفـــق، ولا يقومون بدفنها مـــرة أخرى؛ لا يخشـــى أحد عظام الموتى حينئذ، وينامون بجوارها في الليل ولا يعرفون الكوابيـــس، ويتناقص حطب طهي الأرز أكثر فأكثر، بينمـــا تزيـــد كميات الأرز يومـــا بعد يوم، ولا يســـطو أحد على الأرز، وقـــد حملنـــا نحن الثلاثـــة على أكتافنا عـــدة أكياس من الأرز وفرشـــناها في النفق وجعلناها ســـريرا ننام عليه، ونطرح أجســـامنا على هذا النحو، ولا نخشـــى الخرطوش أن يقلقنا ولا نشعر بالراحة.

وانتظرنا حتى نفد حطب طهي الأرز لدينا، ومع ذلك لم ينقذ حياتنا رئيس اللجنة جيانغ. ومن حسن الطالع، أن الطائرات آنذاك لم تقم بإنزال الأرز مرة أخرى، بل أنزلت أرغفة الخبز بدلا منه، ويتهافت الأخوة الأشقاء مثل الحيوانات على تلك الأرغفة بمجرد إنزالها على الأرض. وتتكدس أكوام الأرغفة مثل النعل الذي تخيطه أمي، ويزعقون ويصيحون ولا يختلفون عن الذئب البري.

يقول لاوتشوان:

«نفترق ونسطو على أرغفة الخبز».

لم يعد في جعبتنا سوى أن نفترق ونسعى إلى نهب الخبز حتى نستطيع العودة بأكبر عدد ممكن من الأرغفة. ونخرج من النفق زحفا، ويختار كلٌّ منا الجهة التي ينطلق إليها، وكانت هناك دائما رصاصات طائشة تقفز في الهواء عندما تدور طلقات الخرطوش في مكانٍ قريب منا. وذات مرة، كنت أهرول أهرول، ثم سقط شخص بجواري على حين غرة، وجال بخاطري أنه أصابه الدوار من جراء الجوع، ولكن عندما نظرت إلى رأسه وجدته فقد نصفها، وأصابني الفزع وتراخت أرجلي وأصبحت على وشك السقوط. السطو على أرغفة الخبز أكثر صعوبة من نهب الأرز، وقد قيل إن جنود جيش الدولة يخاطرون بحياتهم ويموتون يوميا، وعندما تحلق الطائرات من ذاك الجانب في السماء، ينطلق الأفراد كلهم من تحت الأرض، كأنما الأرض الجرداء العارية من الخضرة ينمو فوقها أرتال من الحشائش فجأة، ويهرولون ويقتفون أثر الطائرات التي تقوم بإنزال أرغفة الخبز حتى يفترقوا وينتشروا في كل اتجاه بحثا

عـــن مظلة. تغليف الخبز ليس في حالة جيدة، وتتبعثر الأرغفة بمجرد إنزالها، ويتدافع زهاء مئة شـــخص إلى المكان نفســـه، وبعضهم يســـقط على الأرض من شـــدة الـــدوار قبل أن يصل إلى هناك. وســـطوت على أرغفة الخبز ذات مرة، وعلقوني من رأسي وضربوني ضربا مبرحا بالحزام الجلدي، وتأملت أقطار نفسي، وفي نهاية المطاف، انتزعت بضعة أرغفة فقط. ورجعت أدراجي إلى النفق، وكان لاوتشـــوان جالسا هناك، ويغص وجهه بالبقع الزرقاء والبنفســـجية، والأرغفة التي استولى عليها ليس أكثر مني. وكان لاوتشـــوان جنديا لمدة ثماني ســـنوات، ومازال طيب القلب ونقي الســـريرة، ووضع أمامي أرغفة، وقال ننتظر عودة تشون شينغ ونأكل سويا. جلست أنا وهو القرفصاء داخل النفق نطل برؤوسنا لنرقب عودة تشون شينغ.

بعد فترة وجيزة، رأينا تشون شينغ يحتضن كومة من الأحذية الرياضية المطاطية، ويقوس ظهره ويأتي مهرولا، وأمارات الحمرة تعلو وجهه من شدة الغبطة والسرور، ويدلف إلى النفق متدحرجا، ويشير إلى تلك الأحذية التي يغص بها المكان، ويسألنا:

«تلك الأحذية، كثيرة أم لا؟».

يحدق لاوتشوان في وجهي، ويسأل تشون شينغ:

«هل نستطيع أن نأكلها؟».

يجيب تشون شينغ:

«يمكننا سلق الأرز».

فكرنا في كلامه وارتأينا أنه صائب حقا. كما أن وجه تشـــون شينغ خالٍ تماما من الجروح، وقال لاوتشوان لي:

«هذا الصبي لا يضاهيه أحد».

فيما بعد، لم نذهب للسطو على أرغفة الخبز، واحتكمنا إلى طريقة تشون شـينغ حيث إننا عندما يتدافع الناس على خطف الخبـز ويتكومون، ننزع أحذيتهم المطاطيـة من أقدامهم، بعض الأقدام تستجيب لفعلنا، وبعض الأقدام مشاكسة، ونلتقط خوذة فولاذية ونضرب بشدة تلك الأقدام التي تقاومنا، فتتشنج الأقدام التي ندهمها بالضرب وتصبح صلبة كأنما جمدها البرد. نحمل الأحذية المطاطية ونعود إلى النفق ونشـعل النـار، ولدينا الأرز على كل حال، وعلى هذا النحو نتحاشى الصعاب والمشاق أيضا. ونحـن الثلاثة نسـلق الأرز تارة، وتارة أخرى نرقب الأشـخاص الحفاة يسيرون قفزا في الهواء من شدة برودة الشتاء، ونتخرط في القهقهات بهدوء وبلا انقطاع.

اشتداد دوي أصوات الأسلحة النارية يوما بعد يوم في المراكز الأماميـة جعلنا لا نعـرف إذا كنا في النهار أو فـي الليل. وقد تعودنا على سـماع تلك الأصوات داخـل النفق الذي نمكث فيه، وتتفجـر قذائف المدفعية دائما في مـكان ليس بعيدا، ومدافعنا قـد دُمرت، ولم نطلق طلقة واحدة، وأصبحت كومة من الخردة، وليس لدينا عمل نضطلع به بشكل أكبر. ومضت تلك الأيام قدما إلى الأمام، ولم يشـعر تشون شـينغ بالخوف، والشعور بالخوف آنـذاك غير ذي جدوى. وتقترب أصوات الأسـلحة النارية أكثر فأكثر، ونشـعر دائما أنها مازالت بعيدة، وأقصى ما لا نستطيع تحمله برودة الطقس يوما بعد يوم، ننام بضع دقائق، ونسـتيقظ وأجسـامنا متجمدة. وانفجار قذائف المدفعية في الخارج يدوي في آذاننا ويهز أركاننا، وتشون شينغ مازال صبيا غريرا، وعندما يسـتبد به النعاس، وتهوي قذيفة مدفع من مكان قريب وتتفجر،

وتهز أركان جسمه كله وتزعجه في نومه، يقف مستشيطا غضبا فـــي النفق، ويصيـــح بصوتٍ عال في مجابهة أصوات الأســـلحة النارية قائلا:

«أيتها الأصوات القبيحة رفقنا بنا، لقد سببتِ إزعاجا، وطار النوم من عيني».

أسحب تشون شينغ بسرعة، حيث القذائف تطير ذهابا وإيابا فوق النفق.

تتضاءل جبهة جيـــش الدولة يوما بعد يوم، ونحن لا نجرؤ علـــى مغادرة النفق بصورة ارتجاليـــة، ولا نخرج إلا بحثا عن الطعام عندما نشعر بذروة الجوع. وكل يوم يُحمل على النقالة بضعـــة من الجرحـــى، وجبهتنا في المؤخـــرة وأصبحت ملاذ الجرحى.

استمرت هذه الحال لبضعة أيام، ونمكث نحن الثلاثة أنا، ولاوتشوان، وتشـــون شينغ داخل أروقة النفق، ونطل برؤوسنا ونشاهد الجرحى فوق النقالة الذين فقدوا أذرعهم وانكسرت أرجلهم. وبعد فترة ليست طويلة، جاءت نقالة طويلة، ويقوس حاملوها ظهورهم ويهرولون علـــى مقربة منا بحثا عن أرض عـــراء، ويصيحون: واحد، اثنان، ثلاثة، وفي الصيحة الأخيرة تنقلـــب النقالـــة ويرمـــون الجرحى في الأرض العـــراء كأنما يرمونهـــم في الزبالة، ولا يكترثون بأي شـــيء. يعول الجرحى ويصرخون من شـــدة الألم، وتدوي أصـــوات صراخهم وألمهم وهم يشـــكون عذابهم للسماء، ويســـتنجدون بالأرض بمرارة.

يرى لاوتشوان حاملي النقالة يغادرون المكان ويسبهم قائلا:

«أنتم أيها الحيوانات».

عدد الجرحى يزيد أكثر فأكثر، ومادامت أصوات الأسـلحة النارية لا تزال تدوي في الآفاق تأتي إلى هنا النقالات، ويصيح حاملوها: واحـد، اثنان، ثلاثة، ثم يقذفون بالجرحى في العراء. وكان الجرحى -في البداية- يتكدسون في أكوام، ثم ما لبثوا أن ملؤوا المكان، ويصرخون وينتحبون دائما من شدة الآلام. لا يمكن أن أنسى هذا العويل والصراخ طوال حياتي، وقد شعرت بموجة من الهواء البارد تعصف بقلبي وقلب تشـون شينغ عندما نظرنا إلى هؤلاء الجرحى، حتى لاوتشـوان كان يقطب حاجبيه دائما، وفكرت كيف نخوض هذه المعركة؟

يغشـى الليل، وتتسـاقط الثلـوج أيضا، ولم نسـمع أصوات الأسـلحة النارية فترة طويلة، ثم نسـمع أصوات عويل وانتحاب بضعـة آلاف من الجرحـى الممددين خارج النفـق من الذين لم يرحلـوا إلى العالم الآخر، ويبدو أنهـم يبكون، ويبدو أيضا أنهم يضحكـون، إنه صـوت الذين لا يتحملون الألم، ولم أسـمع في حياتي صوتا يبث الخوف في النفس هكذا. تتكدس أكوام الثلوج مثل تدفق ماء البحيرة من داخلنا، وتتساقط رقع الثلج، والسماء مظلمة جدا، ولا نرى رقع الثلج، ولكن نشعر فقط بالبرودة والبلل، وقطعة الثلج في اليد تذوب ببطء شـديد، ثم ما تلبث أن تتراكم طبقة سمكية من الجليد.

ننام نحن الثلاثة وأجسامنا متلاصقة، ونشعر بالبرد والجوع أيضا، والطائرات قلما تأتي آنذاك، ومن ثم من الصعب الحصول علـى الطعام، ولم يعد أحد يرغب في الذهاب إلى رئيس اللجنة جيانـغ من أجـل إنقاذنا، ولا يدري أحدٌ بعـد ذلك أيضا إذا كنا أمواتا أم أحياء. تشون شينغ يدفعني دفعا ويسألني:

«يا فو قوي، هل أنت نائم؟».

قلت:

«لا».

كما دفع لاوتشــوان بقوة أيضا، ولاوتشــوان ليس في جعبته كلمات يتفوه بها. تشون شينغ يتنشق مرتين، ويقول لي:

«لا يمكن أن نعيش هكذا».

شعرت بألم شــديد في أنفي عندما ســمعت كلامه. ويتكلم لاوتشوان آنذاك، ويمد ذراعيه قائلا:

«لا تتحدث بكلام مثبط للهمم».

يجلس، ويقول أيضا:

«أنا شــهدت حروبا كثيرة، وأقول لنفسي كل مرة: أريد الحياة حتى إذا مت. الخرطوش اخترق جسمي ولم يصبني أذى. ياتشون شينغ، أنت لا يمكن أن تموت مادمت ترغب عن الموت».

بعد ذلك، يلتزم الجميع الصمت، ويفكرون في ما يشغل بالهم، أما أنا فأفكر مرارا وتكرارا في أسرتي، أفكر مليا في فينغ شيا تحمل ابني يوي تشــينغ وتجلس أمام مدخــل البيت، وأتوق إلى أمي وزوجتي جياشـــين، ويملأ التفكير أقطار نفسي وكأنما قلبي انسدّت أبوابه ولا ينفذ منها الهواء مثل تكميم الأفواه والأنوف.

ســمعت بعد منتصف الليل أصوات عويل وبكاء من الجرحى خارج النفــق تنخفض تدريجيــا، وجال بخاطــري أن معظمهم يغــط في النوم، ومن بينهم نفــر قليل فقط لا يزال يدوي صوت انتحابهم وألمهــم، ويدوي هذا الصوت مرة تلــو الأخرى، ويروح ويجيء، وعندما تسمعه كأنما هناك أشخاص يتجاذبون أطراف الحديــث، أنت تســأل، وهو يجيب. كما أن هــذا الصوت يائس

موحــش كأنما لا يصدر مــن أفواه الأحياء، وبعــد فترة طويلة، بقي صوت واحد فقط يئن ويتدنى ويشــبه طنين حشرة البعوض التي تطير بهدوء فوق وجهي ذهابا وإيابا، وتســمع ذاك الصوت لا يشــبه الأنين، بل يشبه صوت أغنية شعبية. السكوت يعم كافة الأصقاع تماما، ولا يوجد ســوى ذاك الصوت الذي استمر يلف هنــا ويدور هناك فترة طويلة. وتدفقت دموعي عندما ســمعته، وأذابت الثلج فوق وجهي الذي تســلل إلى رقبتي مع هبوب الهواء البارد.

تلاشــت الأصوات تماما عند انبلاج صفحة الســماء، ونطل برؤوســنا ونــرى أن الآلاف من الجرحى الذيــن كانوا يصرخون ويتألمــون أمس قد قضــوا نحبهــم، وتتمدد الجثامــين بصورة فوضويــة، ولا تتحرك البتة، وتطمرها طبقــة خفيفة من الثلج. ونحــن الذين مازلنا على قيد الحياة ونتوارى داخل النفق، نحدق نحو هؤلاء الموتى بنظرة بلهاء فترة طويلة، ولم ننبس ببنت شفة. حتى لاوتشــوان الذي لا يدري عدد الأموات الذين شاهدهم من الجنود القدامى يرمقهم بجنون ردحا طويلا، وفي النهاية، يرسل زفرة، ويطأطئ رأسه، ويقول لنا:

«وحشية رهيبة».

يخرج لاوتشــوان من النفق عندما يســمع كلامه، ويتقدم إلى كومة كبيرة من الأموات، ويسير بينهم، ويقلب هذه الجثة، ويفرز تلك الجثــة، ويحني ظهره ويقفز بين الجثامين هنا وهناك، ومن حين لآخر يجلس القرفصاء ويمسح وجه شخص ما بالثلج. وفي تلك الأثناء، تدوي أصوات الأســلحة النارية من جديد، وتتطاير بعض طلقات الخرطوش في اتجاهنا، وتعود الروح إلى جســمي

وإلى روح تشـون شـينغ على حـين غرة، ونـنادي لاوتشـوان في عجالة:

«ارجع بسرعة».

لاوتشوان لم يكترث بنا، ويستمر في تفقد أحوال الموتى، وبعد لحظة، تتسمر أقدامه، ويجيل بصره في كافة الأنحاء، وبعد ذلك يتقدم نحو الباب، وعندما اقترب مني ومن تشـون شـينغ، مدّد أربعا من أصابعه، وأومأ برأسه قائلا:

«يوجد أربعة موتى، أعرفهم».

لاوتشـوان يحملق فـي وجوهنا بغتة بمجـرد أن يفرغ من كلامه، تيبسـت ساقاه وتسمرت قدماه هناك، وبعد ذلك تدلى إلى أسـفل وركع هنـاك، ولا ندري ما أصابـه، وبات في هذه الحالـة، رأينـا فقط طلقـات الخرطوش تتطاير فـي الهواء، وصرخنا بكل قوة:

«يا لاوتشوان، ارجع بسرعة».

مازال لاوتشوان يقبع في هذه الحالة على الرغم من صراخنا بضع مـرات، وجال بخاطري وقتئذ أنـه أصابه مكروه. خرجت من النفق في عجالة، وهرولت نحو لاوتشـوان حتى اقتربت منه ونظرت إليه، ووجدت بقعة دماء على ظهره، واسـودت الدنيا في عيني، وانفجر صوتي ينادي تشـون شينغ. وبعد أن جاء مهرولا، حملنا لاوتشوان، ورجعنا إلى النفق حيث طلقات الخرطوش تمر بجوارنا دائما بصورة فجائية.

جعلنا لاوتشوان يطرح جسمه أرضا، وأوقفت بقعة الدماء في ظهـره بيدي. ولكن مازال الدم ينزف حيث الجرح بليل وسـاخن جدا، ويتدفق الدم من بين شقوق أصابعي. لاوتشوان يفتح عينيه

رويدا رويدا، وينظر إلينا برهة، ثم يحرك فمه، ويسـألنا بصوت الوشوشة:

«ما اسم هذا المكان؟».

أرفع رأسـي، وتشون شـينغ أيضا، ونحملق في كافة البقاع، وكيف نعرف اسـم هذا المكان؟ ونضطر أن نرعى حالة لاوتشوان من جديد. يغمض لاوتشـوان عينيه بإحكام شديد، ثم يفتحهما ببطء، وتكبران كلما فتحهمـا، وفمه أعوج كأنه يضحك بمرارة، سمعناه يقول بصوتٍ متهدج:

«حتى لا أعرف اسم المكان الذي أودّع فيه الدنيا».

لاوتشـوان يقضي نحبه ويرحل إلى العالم الآخر بعد أن فرغ من كلامه بوقت قصير. كانت رأسـه تميـل جانبا عندما مات، وعرفت أنا وتشـون شـينغ أنه رحل إلى العالـم الآخر، وتبادلنا النظرات لفترة طويلة، بكى تشون شينغ أولا، وأنا لا أتحمل رؤيته وهو يبكي، فانفجرت باكيا.

فيما بعد، رأينا قائد السرية الذي بدّل ملابسه وارتدى لباس عامة الشـعب، ولف عملات ورقية حول خصـره بكثرة، وحمل صـرة وتقدم نحو الجهـة الغربية. عرفنا أنـه يعتزم الهرب من الموت، والعملات الورقية الملفوفة والتي تكتظ بها ملابسه جعلته يمشـي مثل امرأة عجوز سـمينة شـمطاء تتهادى في مشيتها، وهناك الطفل المجند قسرا يناديه قائلا:

«يا قائد السرية، يا رئيس اللجنة جيانغ، تنقذ حياتنا أم لا؟».

يدير قائد السرية رأسه، ويقول:

«أيها الوغد، أمك لا تسـتطيع إنقاذك في هذه اللحظة، أنقذ نفسـك بنفسـك». ويطلق عليه جندي قـديم رصاصة، ولكن لم

يصبه. يسمع طلقات الخرطوش تتطاير نحوه، ويطلق ساقيه لعنان الريح ويلوذ بالفرار بصورة مجنونة راميا وراء ظهره كل مظاهر الهيبة في الماضي. يحمل نفر من الأشخاص البنادق ويطلقون الرصاص، يصرخ قائد السرية بصوتٍ عال، ويهرب يُمنة ويُسرة فوق الأرض المغطاة بالثلوج، حتى يهرب بعيدا بمنأى عن الأنظار.

تدوي أصوات الأسلحة النارية حتى أسفل ذقوننا، ونرى ظل الذين يطلقون الرصاص يتمايلون ويترنحون ويسقطون على الأرض في خضم دخان البارود. وأحسب أنني لا أحيا حتى الظهر، وقد يأتي دوري في الموت قبل حلول هذا الميقات، بيد أنني لم أخش الموت بعدما ألفت نفسي الأسلحة النارية في غضون شهر، وشعرت فقط بأنني إذا متُّ ميتة غامضة فهذا يعد ظلما حقا، ولا تعرف والدتي وجياشين في أي بقعة فاضت روحي.

أحملق في وجه تشون شينغ ولا يزال يضع يده على جسم لاوتشوان. كما يحملق في وجهي وتعلو وجهه أمارات الأسى والاكتئاب. وتناولنا الأرز النيّئ بضعة أيام، وتورم وجه تشون شينغ. ويلمس شفتيه بلسانه، ويقول لي:

«أريد أن آكل خبزا».

في هذه الأثناء، كان الموت أو الحياة ليسا مهمين، ويرضى كل منا بنصيبه إذا استطاع تناول أرغفة الخبز قبل الموت. يقف تشون شينغ، ولم ألفت انتباهه إلى الحذر من طلقات الخرطوش، ويجيل بصره، ويقول:

«ربما يوجد خبز في الخارج، اذهب واعثر عليه».

يخرج تشون شينغ من النفق، ولم أمنعه، وعلى كل حال كنا على وشك الموت قبل الظهر، وإذا استطاع أن يأكل خبزا

حقـــا، فذلك يعد أمرا رائعا. ورأيته يقفز بين الجثامين وهو حي لا حول له ولا قوة، ويخطو هذا الطفل بضع خطوات، ويســـتدير رأسه، ويقول لي:

«لا تتصرف، أبحث لك عن أرغفة خبز، وأعود إليك».

يسبل يديه، ويخفض رأسه، ويسير وسط الدخان الكثيف في المقدمة. ويغص الهواء برائحة العظـــام المحترقة ودخان البارود فـــي ذلك الحين، ويستنشـــق هذه الرائحة التـــي تتخلل حنجرته وعينيه، ويشعر كأنها حبات الحصى الصغيرة.

وقع الأشـــخاص الأحيـــاء داخل النفق في الأســـر قبل حلول الظهيرة، وعندما اقتحم جنود جيش التحرير المدججين بالبنادق النفـــق، طلب جندي قـــديم أن نرفـــع أيدينا عاليا وهو يشـــعر بالاضطراب وعلائم السواد تغطي وجهه، وصرخ غاضبا وأمرنا أيضـــا ألا نلمس بنادقنا، ويخشـــى أن يلازمـــه النحس في تلك اللحظـــة. وهناك جندي آخر من جيش التحرير أكبر من تشـــون شينغ بسنوات قليلة يصوب فوهة البندقية السوداء نحوي، وتدق نبضـــات قلبي بعنف، وجال بخاطري أنني أرحل عن الدنيا فعلا في هذه المرة. بيد أنه لم يطلق الرصاص، وصرخ بقوة في وجهي حتى أنصاع لأوامره، وأخرج من النفق، ويقفز قلبي بين ضلوعي على حين غرة، ولدي الأمنية الغالية في البقاء على قيد الحياة. وبعد أن خرجت من النفق، قال لي:

«أسبل يديك».

أســـبلت يدي، وقلبي راجف واجـــف. ونصطف في رتل يضم أكثر من عشـــرين أســـيرا تحت حراســـته بمفرده، ونتقدم نحو الجنوب، وقطعنا مسافة ليست بعيدة، ثم اندمجنا في رتل يضم

عددا أكبر من الأســـرى. وتغص كافـــة الأصقاع بأعمدة الدخان الكثيفة التي تطاول عنان الســـماء، وننعطـــف ونتقدم إلى مكان واحد. والطريق وعر وشـــاق، ويكتظ بالجثامـــين وكميات كبيرة من الأسلحة النارية التي تم تدميرها، وتدوي فرقعات المدرعات المتفحمة أيضا. وبعد أن قطعنا شـــوطا طويلا من الطريق، تقدم نحونا من ناحية الشمال عشرون جنديا ونيفا من جيش التحرير حاملين خبز المانتو الأبيض، والخبز ينفث بخارا، ويســـيل لعابي عندما رأيته. ويقول ضابط كبير يقوم بحراستنا:

«اصطفوا في أرتال بصورة جيدة».

لـــم يخطر ببالنا أنهم يرســـلون إلينا طعامـــا، وحبذا لو كان تشـــون شينغ موجودا. أجيل بصري في مكان قاص، ولا أعرف إذا كان هـــذا الطفل حيا أم ميتا. نصطـــف بصورة تلقائية في تشـــكيلة قوامها أكثر من عشـــرين فـــردا متجاورين ويأخذ كل واحد رغيفي خبز، ولم تســـمع أذني نفرا كبيرا يتناول الطعام، ويدوي بقـــوة صوت بضع مئات من الخنازيـــر يأكلون. الجميع يأكل بسرعة جدا، وبعضهم يسعل بقوة، ويتعالى صوت السعال أكثر فأكثر، ويســـعل فرد بجواري وصوته يفوق الجميع، ويضع يده على خصره وتنهمر دموعه من شـــدة الألم. والأغلبية تغص حلوقهم، ويرفعون رؤوسهم، ويحملقون في السماء، ولا يتحركون قيد أنملة.

في صباح اليوم التالي، تم حشـــدنا في أرض فضاء، وجلسنا علـــى الأرض في ترتيب وتنســـيق. وتوجد طاولتـــان في الأمام، ويتحدث إلينا رجل تدل هيئته على أنه ضابط كبير، ويشرح أولا أسباب تحرير الصين بأسرها، ويعلن أخيرا أن الذين يرغبون في

المشــاركة بجيش التحرير يبقون جالسين على الأرض، أما الذين يريدون العودة إلى بيوتهم يقفون ويأخذون مصاريف السفر.

تتســارع نبضات قلبــي وتضطرب عندما ســمعت أنه يمكن العــودة إلى البيــت، ولكن عندمــا رأيت ذاك الضابــط الكبير يشــبك في خصره المسدس، شــعرت بالخوف، وفكرت أنه ليس مــن المعقول أن يكون هذا الأمر علــى ما يرام. يجلس أفراد كثر ولا يتحركون، وبعض الأفــراد يغادرون أماكنهم، ويتقدمون فعلا نحو تلك الطاولة، ويأخذون مصاريف الســفر، ويحملق الضابط الكبير في وجوههــم دائما. وبعد أن أخذوا النقود، حصلوا على رخصــة المرور أيضا، ثم وضعوا أقدامهــم على درب العودة إلى ديارهــم. ويقفز قلبي إلى الحنجرة، ومن المؤكد أن ذاك الضابط الكبير يستل مسدســه ويعدمهم رميا بالرصاص. أصابني ذلك بالتوتــر، وأعرف أن جيــش التحرير يرغب حقا فــي أن يتركنا نعود إلى بيوتنا، وهذه المعركة القادمة حامية الوطيس بكل معنى الكلمة، وقلت لنفســي لم أعد قادرا علــى خوض غمار المعركة، وأفكــر في العودة إلــى البيت، ثم نهضت واقفا، ومشــيت حتى وصلت أمام الضابــط الكبير، وطببت وركعت ثم انفجرت باكيا. أريــد أصلا أن أقول أريد العودة إلــى البيت، ولكن الكلام يتعثر في فمي، وأصرخ مرة تلو الأخرى قائلا:

«يا قائد السرية، يا قائد السرية، يا قائد السرية..».

لم أتفوه بكلمات أخرى، ويســندني الضابط الكبير، ويسألني عما أبغي التفوه به؟ مازلت أصرخ وأنادي قائد السرية، كما أنني أنخرط في البكاء، وبجواري جندي من جيش التحرير يقول لي:

«إنه قائد الفوج».

تنويهه جعلني أشعر بالخوف، وتفكيري في حالة يرثى لها. بيد أن الأسرى الجلساء الذين سمعوا ذلك، انفجروا في الضحك، كما أنهم ينظرون إلى قائد الفوج والضحك يملأ أشداقهم، ويسألونني:

«ماذا تبغي قوله؟ ماذا تريد أن تقول؟».

شعرت وقتئذ فقط بالارتياح والطمأنينة، وقلت لقائد الفوج: «أريد العودة إلى البيت».

جيش التحرير يتركني أعود إلى البيت، كما يقدم لي مصاريف السفر. وأسير على الطريق بسرعة متوجها نحو الجنوب في عجالة. اشتريت رغيفا من مصاريف السفر التي قدمها لي جيش التحرير عندما داهمني الجوع، وبحثت عن مكانٍ هادئ أنام فيه عندما استبد بي النعاس. إنني أتوق إلى رؤية أسرتي، وعندما أفكر أنني مازالت لدي القدرة في هذه الحياة على اللقاء العائلي مع والدتي وزوجتي وابنتي وابني، أبكي تارة، وأضحك تارة أخرى، وأهرول متهورا ومسعورا ناحية الجنوب.

عندما وصلت إلى ضفة نهر اليانجتسي، كان الجنوب مازال لم يتحرر بعد، وجيش التحرير يستعد لعبور النهر، ولم أستطع المضي قدما إلى الأمام، ومكثت وتأخرت هناك بضعة شهور، وبحثت عن عمل في كافة الأصقاع تحاشيا للموت جوعا. أعرف أن جيش التحرير يحتاج إلى الذين يجيدون التجديف، وشعرت في الماضي بأن تجديف القارب ممتع جدا عندما كان عندي نقود، ومن ثم تعلمت التجديف، وفكرت مرات عديدة في الالتحاق بجيش التحرير، وأقوم بالتجديف بالإنابة عنه ونعبر نهر اليانجتسي، وأتذكر جيدا أن جيش التحرير يعاملني معاملة

حسـنة، ويجب عليَّ رد الجميل، بيد أنني أخشـى الحرب حقا، أخشـى ألا أرى أفراد أسـرتي، ومن أجل زوجتي وأولادي قلت لنفسي:

«لا أرد الجميل، وأتذكر فضل جيش التحرير».

رجعت إلى بيتي مع مؤخـرة جيش التحرير التي توجهت إلى الجنوب لخوض غمار المعركة، وعلى الصعيد الزمني، فقد غادرت البيت منذ سنتين تقريبا. وفارقت بيتي في ذروة الخريف، وأرجع إليه في بواكير الخريف. أسـير على الطريق المؤدي إلى مسقط رأسي وجسمي يغص بالطين من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، ثم رأيت قريتي التي لم تشهد أي تغير، رأيتها من النظرة الأولى، ومشـيت إلى الأمام بسـرعة هائلة. رأيت بيتي السـابق المغطى بالقرميـد، كما رأيت الكوخ الذي نقطن فيـه الآن، ولم أتحمل، وهرولت نحوه في التو عندما رأيته.

في مكان لا ينأى كثيرا عن مدخل القرية، رأيت طفلة عمرها يتأرجح بين السـابعة والثامنة، تقطع الحشائش بمصاحبة طفل فـي الثالثة مـن عمره. وتعرفـت إلى تلك الطفلـة التي ترتدي الملابس المهترئة؛ إنها ابنتي فينغ شـيا التي تسحب يد ابني يوي تشـينغ الذي لا يزال يمشـي في تباطؤ وتثاقل. وهتفت نحوهما قائلا:

«يا فينغ شيا، يا يوي تشينغ».

يبدو أن فينغ شـيا لم تسمع صراخي، ولكن يوي تشينغ يدور جسـمه، وينظر إليَّ، وتسحبه أخته ولا يزال يسير على الطريق، ويميل برأسه نحوي. أهتف مرة أخرى قائلا:

«يا فينغ شيا، يا يوي تشينغ».

في هذه الأثناء، يشد يوي تشينغ شقيقته الكبرى، ويستدير رأسه نحوي. هرولت إلى الأمام وجلست القرفصاء، وسألت فينغ شيا:

«يا فينغ شيا، هل تعرفين من أنا؟».

تجحظ فينغ شـيا عينيها وتنظر إليّ برهــة، وتحرك ثغرها ولا تنطق بحرف. قلت لها:

«أنا أبوك».

تضحك فينغ شـيا، وتفتح ثغرها، ولكن لم تنبس ببنت شفة. وشــعرت آنذاك بأن هناك شيئا غير ســوي، وهو أنني لم أفكر بدقة في مــا يعتمل داخلها. أدرك أن فينغ شــيا تعرفني وتفتح فمها، وتضحك في وجهي، وفقدت القواطع من أسنانها، ومددت يدي وأتحســس معالم وجهها، وتتلألأ عيونها، ويرتاح وجهها في قبضة يدي. ذهبت لرؤية ابني يوي تشــينغ الذي لم يتعرف عليّ طبعا، ويخاف ويلتصق بجســم شقيقته، فأسحبه من يده، ولكنه يتجنبني، وقلت له:

«يا ابني، أنا أبوك».

يتوارى يوي تشينغ وراء شقيقته، ثم يدفعها قائلا:

«نمشي بسرعة».

تهــرول امــرأة نحونا وقتئذ، وتهتف باســمي بصــوت عال، وتعرفت عليها، إنها زوجتي جياشــين التي تهرع متعثرة الخطى، تهرول إلى الأمام، وتصرخ:

«يا فو قوي».

تجلس على الأرض، وتنخرط في نوبة بكاء بصوت عال، قلت لها:

«علام كل هذا البكاء، لماذا تبكين؟».

بعد أن تفوهت بتلك الكلمات بكيت أنا منتحبا أيضا.

أحسب أن نفسي عادت أدراجها إلى بيتي، وشعرت بالطمأنينة؛ حيث رأيت جياشين وابني وابنتي، وأنهم يعيشون في أحسن حال. والتفوا حولي وتوجهنا إلى دارنا، وما إن اقتربنا من كوخنا حتى هتفت مرات عديدة قائلا:

«يا أمي، يا أمي».

أصرخ وأهرول، أهرول حتى وصلت على الكوخ، وأنظر داخله، ولم أر والدتي، فاسودت الدنيا في عيني ساعتئذ، ورجعت أدراجي أسأل جياشين:

«أين أمي؟».

لم تتفوه جياشين بحرف، وحدقت في وجهي وتدفقت دموعها كالنهر، فعرفتُ أين رحلت أمي؟ وقفت أمام مدخل الباب، وتدلى رأسي، وسحت دموعي كالسيل.

افترقت عن عائلتي منذ سنتين ونيف، ورحلت والدتي إلى العالم الآخر خلالهما، وأخبرتني جياشين أن والدتي قبل وفاتها قالت لها مرة تلو الأخرى:

«إن فو قوي لا يلعب القمار أبدا».

ذكرت والدتي ذلك بعد أن دلفت زوجتي جياشين إلى المدينة مرات عديدة من أجل أن تتقصى أخباري، ولم يكن في الحسبان أن أحدا لم يخبرها بأنني أُلقي القبض عليّ وأصبحت مجندا قسريا. وللأسف أن والدتي لم تعرف مكاني قبل لفظ أنفاسها الأخيرة، كما أن ابنتي فينغ شيا تثير الشفقة، حيث انتابتها الحمى القاسية ذات مرة قبل عام، وبعدها لم تعد قادرة على الكلام، وعندما أخبرتني جياشين بذلك وهي تبكي، كانت فينغ

شـيا تجلس أمامي وتدرك الكلام المتبادل بيننا، وراحت تضحك بهدوء في وجهي. وشـعرت بوخزة إبرة فـي قلبي عندما رأيتها تضحـك. كما تعرّف يوي تشـينغ عليّ أنا أبـوه، بيد أنه لا يزال يشـعر بالخوف نحوي بعض الشيء، وعندما أضمه إلى صدري، يصر على رؤية أمه وشـقيقته. وأيـا كانت الأحاديث والحكايات كما يحلو لنا، فإنني قد رجعت إلى بيتي. في مسـاء اليوم الأول، لم أنم نوما مريحـا، ونتزاحم أنا وزوجتي وطفلانا في الفراش، ونسمع هبوب العاصفة التي تعصف بالأعشاب والحشائش فوق سـقف الغرفة، ونرى في الخارج ضوء القمر الوضاء يتسلل إلى الداخل عبر شـقوق الباب، وأشـعر بالارتياح التام، كما أشـعر بالدفء أيضا، وأتحسـس زوجتي، وأداعـب ابني وابنتي، وأقول لنفسي مرارا وتكرارا:

«لقد رجعت أدراجي».

تزامـن مع عودتي بـدء ثورة الإصلاح الزراعـي في القرية، وحصلـت على خمس ماوات من الأرض والتي كانت أصلا تابعة لأجداد لونغأر. وعلـى كل حال، فإن لونغأر أصابه العفن الكبير وكان مالكا للأرض، وتغطرس لمدة أقل من أربع سـنوات، إلا أنه أفل نجم حياته بمجرد تحرره، وصادر الحزب الشيوعي الصيني ممتلكاتـه مـن الأراضي، ووزعهـا على المسـتأجرين القدامى، ولا يـزال لونغـأر يصر على عـدم الاعتراف بالديـن، بل وراح يهدد هؤلاء المسـتأجرين، ولا يحترم نفسه أيضا، وشرع يبطش بالآخرين. ولونغأر يبحث عن المصائب والكوارث لنفسه، وقبضت عليه الحكومة الشـعبية بتهمة أنه من طواغيت مُلّاك الأراضي، ثـم أُرسـل إلى السـجن الكبير فـي المدينة، وبعد ذلـك مازال

لا يحسن تقدير الموقف، وكلامه أشد صلابة من الحجر، وقُتل رميا بالرصاص في نهاية المطاف.

رحت أتفرج على إعدام لونغأر رميا بالرصاص في ذاك اليوم. وخارت قواه وعزيمته قبيل إعدامه، وسمعت أن دموعه انثالت عندما انتقل من المدينة تحت الحراسة، ويقول لأحد المعارف المألوفين ولعابه يسيل:

«لم يخطر ببالي ولو في الأحلام أن الإعدام يكون نهاية حياتي».

لونغأر مضطرب البال، وكان يعتقد أنه سيطلق سراحه بعد حبسه ببضعة أيام، ولا يصدق أبدا أنه سيُقتل بالرصاص. بعد الظهيرة في ذلك اليوم، أعدم رميا بالرصاص في قرية مجاورة لنا، وقبل الإعدام، حُفرت حفرة، وشهد ذلك اليوم حضور عدد كبير من أهالي القرية المتاخمة لمشاهدة إعدام لونغأر الذي جاء تحت الحراسة ومربوط اليدين خلف ظهره، لقد جاء هنا مجرورا تقريبا، وفمه نصفه مفتوح ويلهث. يمر لونغأر أمامي ويرمقني بنظرة، وأشعر أنه لم يعرفني، ولكن بعد أن خطا عدة خطوات أجهد نفسه وأدار رأسه، وأجهش بالبكاء، وصرخ في وجهي قائلا:

«يا فو قوي، أموت بالإنابة عنك».

ارتعدت أوصالي عندما سمعت صراخه، وفكرت مليا أنه من الأفضل أن أنصرف من هنا، ولا داعي لمشاهدة عملية إعدامه. أنصرف إلى الخارج مخترقا الكتل البشرية المتزاحمة. مشيت نحو عشر خطوات وأكثر، ثم سمعت دوي إطلاق رصاصة، واعتقدت أن لونغأر انتهت حياته، ولكن ما لبثت أن سمعت دوي

طلقة ثانية، ثم إطلاق ثلاث رصاصات أخرى، وبذلك كان إجمالي طلقات الرصاص خمسا. وفكرت هل هناك أفراد آخرون قد تم إعدامهم أيضا؟ وأثناء عودتي في الطريق، سألت أحد أبناء القرية ذاتها، قائلا:

«كم شخصا تم إعدامه؟».

يجيب قائلا:

«تم إعدام لونغأر فقط».

في الواقع، أن لونغأر منكود الحظ للغاية، ولم يتوقع أن يُعدم بخمس طلقات، وحتى لو كان يتمتع بخمس حيوات، فقد تمت إبادتها كلها تماما.

وتوجهت إلى بيتي إبان إعدام لونغأر بالرصاص، وأثناء ذلك، كان الهواء البارد يلفح رقبتي، وتنتابني المخاوف كلما فكرت في ذلك. ولولا كنا أنا وأبي - من البداية - من أبناء المبذرين لكان الإعدام من نصيبي دون الاحتكام إلى أي معايير. أتحسس وجهي، كما أتحسس ذراعي، وكلاهما بخير. قدحت زناد ذهني أنني يجب أن أموت، ولكن لم أمت، ورجعت حاملا حياة جديدة من ميدان المعركة. وعندما وصلت إلى بيتي، بات لونغأر شيطان الموت بالإنابة عني، وتتبوأ قبور الأجداد في أسرتي مكانا ملائما، ولذا قلت لنفسي:

«بفضل ذلك، يجب أن أحيا حياة طيبة».

كانت زوجتي جياشين تخيط نعلا من أجلي عندما رجعت إلى البيت. وفزعت عندما تفرست أمارات وجهي، واعتقدت أنني مريض. وعندما أخبرتها بما يدور في خلدي، بدت ملامح الخوف الباهتة على وجهها حينا، والأمارات السوداء حينا آخر،

وتمتمت الكلمات في ثغرها، وقالت:

«الأمر جد خطير حقا».

وتفتحــت آفاق تفكيري فيما بعد، وشــعرت بأنه لا داعي أن أجعل نفســي تشــعر بالخوف، فذلك كله من القضــاء والقدر. والقــول المأثور يقول: المصائب التي تــدوم طويلا يجب أن تكون نهايتها سعيدة. ورغبت أن يكون النصف الثاني من حياتي سعيدا يومــا بعد يوم. وكانت هذه كلماتــي لزوجتي التي تقضم الخيط بأسنانها، وتحدق في وجهي، وتقول:

«وأنــا أيضا لا أفكر في الحظ الســعيد، وكل ما أطلبه أنني أستطيع أن أصنع لك زوجا من الأحذية كل سنة».

أدركت مغزى كلام جياشــين؛ زوجتي ترجو أننا لا نفترق مرة أخــرى من الآن فصاعدا. أحدق في معالــم وجهها التي زحفت عليها الشيخوخة كثيرا، وقلبي يتألم حينا من الزمن، وقد أصابت جياشين عندما ذكرت أنه مادام أفراد الأسرة يجتمعون سويا كل يوم، فإنها لا تعير اهتماما بما يطلق عليه حسن الحظ.

* * *

يســرد فو قوي قصته إلى هنا ويكف عن الحديث. اكتشــفت أننا نجلس تحت ضوء الشــمس، يتحرك ضوء الشــمس ويجعل ظلال الأشجار تنأى عنا بهدوء، وننتقل إلى الجانب الآخر.

فو قوي يتماســك عدة مرات حتى ينهض واقفا، ويربت على ركبتيه، ويقول لي:

«أصبح جسمي كله صلبا أكثر فأكثر»(*).

(*) ترجمت بتصرف [المترجم].

لم أتمالك نفسي وانفجرت في نوبة ضحك بعد أن سمعت كلامه، وتقدمت نحوه وسحبت فرجة البنطال، وأرى بعض الحشيش الأخضر يلتصق بها. ضحك بهدوء بلا ضجة أيضا، وشعر بالغبطة لأنني فهمت ما يدور في خلده. ثم أدار جسمه، وصرخ على تلك البقرة قائلا:

«يا فو قوي».

تخرج تلك البقرة من البركة، وتأكل الحشيش الأخضر على ضفة البركة، وتقف أسفل شجرتي الصفصاف، وتفقد أغصان الصفصاف فوق ظهرها منظرها المتدلي باستقامة، وتُظهر الانحناءات والتقوس المضطرب، وتسقط رويدا رويدا بعض أوراق الصفصاف التي تطمر ظهر البقرة.

ينادي الرجل العجوز مرة أخرى، ويقول:

«يا فو قوي».

مؤخرة البقرة تشبه الحجر وتنزل إلى المياه بتمهل، وبعد ذلك تظهر رأسها بين فروع الصفصاف، وتحملق في وجوهنا بعينيها المستديرتين، وتتحرك نحونا ببطء شديد. يخاطبها الرجل العجوز قائلا:

«تعمل جياشين وأسرتها في الحقل منذ الصباح الباكر، وأنت أخذت قسطا كافيا من الراحة. وأعرف أنكِ أكلت، ولكن لستِ شبعانة، ومَنْ جعلكِ تمكثين في الماء فترة طويلة هكذا؟!».

يسحب الرجل العجوز البقرة إلى الحقل من أجل أن تضطلع بالحراثة، ويقول لي:

«البقرة باتت عجوزا مثل الرجل الطاعن في السن، ويجب أن تستريح أولا إذا شعرت بالجوع، وتأكل حتى تستطيع مزاولة العمل».

أجلس مـرة أخرى تحت ظل الأشـجار، وحقيبة الظهر وراء خصري، وأستند على جذع الشـجرة، وأستخدم القبعة القشية كمروحـة من أجل تلطيف حرارة الجو. ويتدلى جلد بطن البقرة العجوز على هيئة خطوط طويلـة، وعندما تحرث الأرض، يبدو جلد بطنها مثل كيس الماء الكبير يتمايل يُمنة ويُسرة.

بقيت جالسـا - في ذاك اليوم - تحت الشجرة حتى غروب الشمس، ولم أغادر مكاني لأن فو قوي لم يكمل بعد سرد قصته.

* * *

كانت أيامي شاقة ومريرة بعد عودتي إلى البيت، بيد أنها تعتبر هادئة ومستقرة. وفينغ شيا، ويوي تشينغ يكبران يوما بعد يوم. أما أنا فأصبح عجوزا أكثر فأكثر، ولم أشعر بذلك، وزوجتي جياشين لم تشـعر بذلك أيضا، وشعرت فقط أن قوتي خائرة وليست كما كانت في الماضي. وذات يوم، حملت شـيال الخضار وعرجت على المدينـة لبيعها، وفي الطريق مررت على ذاك المكان الذي كان في الأصل دكانا للحرير، ورآني أحد المعارف المألوفين ويناديني:

«يا فو قوي، الشيب غزا شعرك».

في الواقع، لم ير كل منا الآخر منذ نصف عام، وعندما صرخ بي شـعرت بأنني عجوز بشـكل كبير، وحملقت في وجه زوجتي جياشـين عندما رجعت إلى البيت، وهـي لا تعرف ماذا حدث؟ تحتضن رأسـها وترمقنـي بنظراتها، كما تنظـر خلف ظهرها، ثم تسألني:

«لماذا تحملق في وجهي؟».

يخبرني بوجهه الضحوك قائلا:

«لقد غزا الشيب شعرك أيضا».

في ذاك العام، تبلغ ابنتي السابعة عشرة ربيعا، وتشب عن الطوق وتكبر في هيئة امرأة، ولولا أنها صماء وبكماء لكان من اللازم أن يطرق العرسان أبوابها. ويذكر أهالي القرية أن شيا كبرت وهي جميلة الطلعة، وتشبه أمها جياشين في عنفوان شبابها تقريبا. أما ابني يوي تشينغ فبلغ من العمر اثني عشر عاما ويتعلم في المدرسة الابتدائية بالمدينة.

في البداية، ترددت أنا وجياشين فترة من الزمن حول إرسال يوي تشينغ للدراسة أم لا من جراء الافتقار إلى النقود. وكان عمر فينغ شيا يتراوح بين الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وقتئذ، وعلى الرغم من قولنا إنها تستطيع مساعدتي في الأعمال الزراعية بالحقل، ومساعدة والدتها في الشؤون المنزلية، بيد أنها دائما تعتمد علينا في إعالتها واستمرارها على قيد الحياة. وتشاورت مع جياشين هل نرسل فينغ شيا إلى أناس يتبنوها وينتهي أمرها أم لا؟ ونوفر بعض النقود من أجل تعليم يوي تشينغ.

لا تستخف بالفتاة فينغ شيا لأنها بكماء وصماء، ولكنها ذكية، فعندما قررت أنا ووالدتها إرسالها للتبني من قبل الآخرين، التفتت إلينا في التو، ورمقتنا بنظراتها وأرخت أجفانها، وترى قلبي وقلب أمها يعتصران ألما، وبعد انقضاء بضعة أيام لم نعد نذكر هذا الموضوع مرة أخرى.

يقترب سن التحاق يوي تشينغ بالمدرسة أكثر فأكثر، ويجب عدم إهماله، ولا يمكن ألا ننجزه. كلفت أهالي القرية عندما يسافرون بأن يسألوا إذا كانت هناك أسرة تبغي تبنّي طفلة عمرها اثنا عشر عاما. وقلت لزوجتي جياشين:

«إذا صادفنا أسرة عريقة الأصل، فإن فينغ شيا سوف تعيش أياما أفضل من الوقت الحاضر».

تسمع جياشين كلماتي وتومئ برأسها، وتتدفق الدموع من مآقيها. وقلب الأم يكون دائما رقيقا بعض الشيء. وأسديت النصح إلى جياشين بألا تستعظم الأمر وإن عظم، حياة فينغ شيا مريرة، ويبدو أن حياتها ستكون شاقة إلى النهاية. ويوي تشينغ لا يمكن أبدا أن يتذوق الشقاء طوال حياته، نجعله يتعلم، والتعليم فقط يجعل أيامه تتمتع بالطموح، ولا يمكن أبدا أن نجعل طفلينا فريسة لأصفاد الشقاء والمرارة، ويكون مستقبلهما الأفضل إلى حدٍ ما.

عاد أبناء القرية الذين راحوا يسألون عن أسرة تريد تبني فينغ شيا، وذكروا أن سنها كبيرة إلى حدٍ ما، وهناك أناس كثر يريدونها إذا أسقطنا نصف سنة من عمرها. تخلينا عن فكرة التبني من جراء ذلك، ولا يدري أحد بعد انقضاء زهاء شهر، أرسلت أسرتان خطابين إلينا تعربان عن رغبتيهما في تبني ابنتنا فينغ شيا؛ إحداهما تتبناها وتعتبرها ابنتها، والأخرى تجعل فينغ شيا تقوم على خدمة رجلين طاعنين في السن. شعرت أنا وجياشين بأن الأسرة التي ليست لديها ابنة تعد الأفضل، وتعتبر فينغ شيا بمثابة ابنتها وتحبها دائما بعض الشيء، ثم أرسلنا رسالة شفوية نطلب منها الحضور ورؤية فينغ شيا، وحضر أفراد تلك الأسرة ورأوا أبا فينغ شيا وأمها وحظيا بحبهم وتقديرهم، بيد أنهم غيروا فكرتهم عندما عرفوا أنها لا تستطيع الكلام، ويقول ذاك الرجل:

«لقد شبت عن الطوق وهي جميلة الطلعة، ولكن..».

لـــم يكمل كلامـــه، وانصرف فـــي أدب جم، واضطـــررت أنا وجياشين أن نطلب من الأسرة الأخرى الحضور وتبني فينغ شيا. لا تكترث تلك الأســـرة إذا كانت فينغ شيا تستطيع الكلام أم لا، وذكرت أنها تتطلع إلى أنها تكون نشيطة مجدة في العمل.

جاء اليوم الذي شهد تبني فينغ شيا ومغادرتها البيت، وعندما حملت على كتفي المعزقة اســـتعدادا للذهاب إلى الحقل، حملت فينغ شـــيا الســـلة والمنجـــل، واقتفت أثر خطواتـــي، واضطلعت بالأعمـــال الزراعية في الحقل بضع ســـنوات، واعتادت أن تكون بجواري وتقطع الحشائش. رأيتها في ذاك اليوم تتبعني، ودفعتها دفعا حتى ترجع إلى البيت. حملقت في وجهي، وأسبلت المعزقة، وســـحبتها عائدا إلى الغرفة، وأخذت من يدها المنجل والســـلة، ورميتهمـــا في ركـــن الغرفة. لا تزال ترمقنـــي بنظرات محدقة، ولا تعرف أن أناســـا آخريـــن قد تبنوها. وحالما كانت جياشـــين تبدّل ملابس فينغ شـــيا وتلبسها اللباس الأحمر الكرزي، لم تعد تنظر إليّ، وتخفض رأســـها، حتى تتمكن أمها من تلبيســـها ذاك اللباس الذي كان أصلا فستان تشيباو الخاص بأمها بعد تعديله. وعندما تقفل جياشـــين أزرار معطف ابنتها، تنثال دموع الأخيرة قطرة قطرة على ساقها. تعرف فينغ شيا أنها تغادر بيتنا. أخذتُ المعزقـــة وانصرفت، ومشـــيت حتى المدخل، وخاطبت جياشـــين قائلا:

«أذهب إلى الحقل، وإذا جاء الرجل المتُبني فينغ شـــيا، اطلبي منه أن يأخذها وينصرف، وألا يأتي لرؤيتي».

دلفت إلى الحقل، ألوح بالمعزقة وأشـــتغل، وكنت أشعر دائما آنـــذاك بأن قوتـــي لا تصيب جوهر العمـــل، وانتابتني المخاوف،

أجيل بصري في كافة البقاع، ولم أر فينغ شـيا تقطع الحشائش هناك، فشعرت بالفراغ. فكرت مليا بأنني فيما بعد لم أعد أرى فينغ شـيا عندما أقوم بالأعمال الزراعيـة، وتألمت كثيرا لأنني فقدت قوتي تماما. وفي تلك الأثناء، رأيت فينغ شـيا تقف فوق الممر الترابي وبجوارها رجل عمره خمسـون عاما يسحب يدها، وتتدفـق دموعها على وجهها، وترتعد أوصالها من شـدة البكاء، وتبكـي بصوت مكتوم، وبين الحين والآخر ترفع ذراعها وتكفكف دموعها، أدركت أنها تفعل ذلك من أجل رؤية أبيها بجلاء. يضحك ذاك الرجل في وجهي قائلا:

«اطمئن، أعاملها معاملة حسنة».

يفرغ من كلامه، ويسـحب فينغ شيا التي تقتفي أثر خطواته، وعندما كانت تُسحب من يدها وتمشي، كان جسمي يلتفت دائما نحـو ذاك الجانب، وهـي ترمقني بنظراتها على طول. تمشـي فينغ شيا وتمضي قدما إلى الأمام، ولم أر عيونها. وبعد انقضاء برهة أخرى، ترفع ذراعها وتمسـح دموعها، ولكن لم أر شيئا. لم أتحمل فراقها وقتئذ حقا، وتميل رأسي وتنهمر دموعي، وعندما حضرت جياشين، ألقيت باللائمة عليها قائلا:

«طلبت منك ألا تجعليهمـا يحضران هنا، وأنت تصرين على أن يأتيا لرؤيتي».

تقول جياشين:

«لست أنا، بل ابنتك فينغ شيا التي حضرت من تلقاء نفسها».

بعد مغادرة فينغ شـيا، لم يعمل ابني يوي تشـينغ. وبادئ ذي بدء، عندما انصرفت فينغ شـيا مع المتبني، حملق يوي تشـينغ بعينيه ولم يعرف ماذا حدث؟ حتى سارت فينغ شيا بعيدا، وحك

رأسه وعاد إلى البيت خطوة خطوة. رأيته يجيل بصره نحوي هنا، بيد أنه لم يأت ويسألني عما يدور في خلده. لقد ضربته عندما كان في أحشاء أمه، ولذا يخشى رؤيتي.

عند تناول الغداء، لم تكن فينغ شيا بجوار الطاولة، ويتناول يوي تشينغ لقمتين، ثم يعزف عن الطعام، ويجيل بصره بيني وبين أمه إيابا وذهابا. وجياشين تقول له:

«كل بسرعة».

يطأطئ رأسه الصغير، ويسأل أمه:

«أين أختي؟».

تخفض جياشين رأسها عندما تسمع كلامه، وتقول:

«أنت تأكل بسرعة».

هذا الصبي يضع عيدان الطعام بسرعة، ويقول لأمه:

«متى تعود أختي؟».

تضطرب نبضات قلبي أصلا منذ مغادرة فينغ شيا، وعندما رأيت يوي تشينغ في هذه الحال، أضرب الطاولة بيدي قائلا:

«لا تعود فينغ شيا».

ترتعد أوصال يوي تشينغ من شدة الخوف، ويرى أنني استشطت غضبا، يميل فمه على الجانبين، ويخفض رأسه، ويقول:

«أريد أن تعود أختي».

تخبره جياشين بأننا أرسلنا فينغ شيا إلى أناس آخرين تبنوها حتى نوفر بعض مصاريفه الدراسية. يفتح فمه وينفجر في نوبة بكاء صاخبة عندما سمع أن أخته قد تبناها أناس آخرون، يبكي تارة، ويصرخ تارة أخرى.

يقول:

«لا أريد الذهاب إلى المدرسة، أريد عودة أختي إلى البيت».

لم أعره اهتماما، وفكرت أن أتركه يبكي كما يشاء، ولا يعرف أحد أنه يصرخ مرة أخرى قائلا:

«لا أريد الذهاب إلى المدرسة».

أشعر بالاضطراب في قلبي، وأصرخ في وجهه قائلا:

«ابك كما يحلو لك، ولا نكترث بك».

الخوف يسيطر على يوي تشينغ، ويتقهقر إلى الوراء، ويرى أباه يخفض رأسه ويأكل مرة أخرى، ولذا يغادر مقعده، ويمشي إلى ركن الحائط، ويصرخ أيضا على حين غرة، ويقول:

«أريد أن تعود أختي».

في هذه المرة، أدركت أنه من اللازم ضربه، وأخذت المكنسة من خلف الباب، وقلت له:

«أدر وجهك صوب الحائط».

حملق يوي تشينغ في وجه جياشين، وأدار وجهه بتذلل، وأسند يديه على الحائط. ثم قلت:

«اخلع البنطال».

يلتفت يوي تشينغ، ويحدق في أمه، ويخلع البنطال، ثم يدير وجهه وينظر إلى أمه، ويرى أنها لا تمنعني من ضربه، ويشعر بالخوف، وعندما رفعت المكنسة عاليا، قال في استحياء:

«يا أبي، لا تضربني، حسنا أم لا؟».

أصبحت رقيق القلب عندما سمعت كلامه. ويوي تشينغ لم يقترف جريرة، وقد قامت فينغ شيا على تربيته حتى كبر، ولذا يحبّها كثيرا، ويتوق إليها. أربت على رأسه قائلا:

«اذهب بسرعة وتناول الطعام».

بعد انقضاء شهرين، حان ميقات التحاق يوي تشينغ بالمدرسة، وكانت ملابس فينغ شيا جيدة عندما غادرت البيت بعد التبني. ولكن يوي تشينغ يذهب إلى المدرسة مرتديا أسمالا بالية، ولا تتحمل أمه ذلك إطلاقا، وتجلس القرفصاء أمامه، وبالإنابة عنه تهندم ملابسه وتنفض عنها الغبار، وتقول لي:

«ابني ليس عنده ملابس جيدة».

لم يخطر ببالنا أن يوي تشينغ يقول وقتئذ:

«لا أريد الذهاب إلى المدرسة».

لقد انقضى شهران تماما، واعتقدت أنه نسي أخته فينغ شيا، وفي اليوم الأول لالتحاقه بالمدرسة، راح ينادي أخته أيضا، ولم أغضب هذه المرة، وأخبرته في كلمات رقيقة أن فينغ شيا تبناها آخرون من أجل أن نوفر مصاريف التحاقه بالمدرسة، ويجب عليه الاجتهاد في الدراسة حتى يشعر براحة الضمير نحوها. يأتي يوي تشينغ إليّ مكابرا، ويرفع رأسه، ويقول لي:

«لا أذهب إلى المدرسة بالتأكيد».

وأقول:

«هل تشعر بحكة جلدية في مؤخرتك؟».

يستدير جسمه بوضوح، ويدق الأرض بقدميه بكل قوة، ويدلف إلى الغرفة. جياشين تعترض طريقي، وتقول بصوتٍ خفيض:

«كن رحيما بابنك، ومن الأفضل أن تبث الخوفَ في نفسه، ولا تضربه حقا».

يوي تشينغ يضطجع على الفراش عندما دخلت الغرفة، ويخلع البنطال حتى الفخذ وتظهره مؤخرته، وينتظر حضوري

حتـــى أضربه، وعلى كل حـــال، منظره على هـــذا النحو جعلني لا أستطيع أن أباشر ضربه، فقمت تخويفه أولا بالكلام، وقلت:

«الآن لدينا متسع من الوقت لتذهب إلى المدرسة».

يصرخ بصوت حاد قائلا:

«أريد عودة أختي».

أضرب مؤخرته برفق، ويدس رأسه بين يديه، ويقول:

«لا أشعر بألم».

أضربه مرة أخرى، ولا يزال يقول:

«لا أشعر بألم».

في الواقـــع، جعلني هذا الطفل أستشـــيط غضبا، وأجبرني أن أســـتجمع قـــواي وأضربه بقســـوة، وضربـــت مؤخرته بقوة، ولا يتحمل قسوة الضرب، وينفجر باكيا، ولا أكترث ببكائه أيضا، وأســـتمر في ضربه بعنف. مازال يوي تشينغ صغيرا، وبعد برهة يتألم ألما شديدا حقا، ولا يتحمل الضرب، ويتوسل إليّ قائلا:

«يا أبي، كفَّ عنِ الضرب، أنا أذهب إلى المدرسة».

يوي تشـــينغ طفل ودود. بعد أن عاد إلى البيت في ظهر اليوم الأول لالتحاقه بالمدرسة، كان يرتعش عند رؤيتي، وجال بخاطري أنه بات يخشـــى بأســـي بعد أن ضربته في البكور، ثم أسأله في مودة عن أحواله المدرســـية أجيدة أم لا، ويخفض رأسه، ويهمهم بصوتٍ خفيض. وحالما يتناول الطعام، يرفع رأسه دائما ويحملق فـــي وجهي، ومنظره يبـــدي ملامح الخوف، مما جعلني أشـــعر بالقســـوة، وتذكرت أنني ضربته بعنف في الصباح. وعندما كان يوشك أن يفرغ من طعامه، يناديني يوي تشينغ قائلا:

«يا أبي».

ويردف:

«طلب مني المُعلم أن أخبركم بنفسي أنه انتقدني؛ وذكر أنني أتحرك فوق المقعد، ولا يستقر لي مقام فوقه، ولست مجتهدا في الدراسة».

انفجرت في ثورة غضب عندما سمعت كلامه، لقد تبنى آخرون فينغ شيا، وابني ليس مجتهدا في دروسه. أضع السلطانية بقوة على الطاولة، ويبكي ابني أولا، ويستمر في البكاء، ويقول لي:

«يا أبي، لا تضربني، أشعر بألم شديد في مؤخرتي، ولا أستطيع الجلوس».

أشد بنطال يوي تشينغ إلى أسفل بسرعة، وأرى مؤخرته تحتوي على بقع سوداء وأخرى أرجوانية من جراء الضرب المبرح في الصباح، وكيف تطلب منه أن يجلس فوق المقعد بصورة مستقرة؟ وأحدق في منظره المؤلم على هذا النحو، ويسيل المخاط من أنفي، وتبلل الدموع عيني.

لم تمض إلا بضعة شهور على تبني الآخرين لابنتي فينغ شيا، ثم ما لبثت رجعت إلينا مهرولة. لقد عادت في منتصف الليل، وأنا وجياشين في الفراش سمعنا شخصا ما يطرق الباب الخارجي، ففي البداية، كان يطرق الباب برفق، ثم طرق مرتين بعد لحظة. وأفكر مَنْ يطرق الباب والوقت متأخر. نهضت من الفراش وفتحت الباب، وجدت أمامي فينغ شيا، ونسيت أنها صماء، وأصرخ في عجالة:

«فينغ شيا، ادخلي بسرعة».

جياشين عندما سمعت صراخي غادرت الفراش وهرولت نحو مدخل الباب حافية القدمين. سحبت فينغ شيا إلى الداخل

واحتضنتها وانخرطت في بكاء شديد، أدفعها بيدي وأطلب منها أن تكف عن البكاء.

الندى يبلل ملابس فينغ شيا وشعرها، ونسحبها إلى السرير حتى تجلس، وهي تشد كُمي بيدها، وتجذب ملابس أمها باليد الأخرى، وترتعد أوصالها وتشرق بالبكاء. جياشين تبغي أن تأخذ المنشفة وتجفف شعرها، ولكنها تشد بقوة ملابس أمها، ولا تنوي أن ترخي يدها، وتضطر جياشين أن تجفف شعر فينغ شيا بيدها. وبعد فترة طويلة، تمسك فينغ شيا عن البكاء، وتقبض على أيدينا بإحكام شديد، ولا ترخي يدها أيضا. وأخذت يديها أنظر فيهما، وأريد فحصهما حتى أعرف هل تلك الأسرة جعلتها تشتغل مثل العبيد أم لا؟ حملقت فيها طويلا ولم أحصل على نتيجة، ولا تزالان تعلوهما طبقة سميكة من الجُسأة كما كانت في بيتنا. كما أمعنت النظر في وجهها ولم أجد فيه أي ندوب جروح، وبعد ذلك شعرت بالاطمئنان رويدا رويدا.

بعد أن جف شعر فينغ شيا، تخلعها أمها ملابسها وتجعلها تنام في الفراش مع يوي تشينغ، وبعد أن تمددت فوق الفراش تفتح عينيها وتحملق برهة في وجه يوي تشينغ النائم، وتضحك خلسة، ثم تغمض جفونها. يتقلب يوي تشينغ في الفراش، ويضع يده على ثغر فينغ شيا كأنما يصفع أخته الكبيرة. وكانت فينغ شيا تشبه القطة الصغيرة عندما سقطت في النوم، وهي مؤدبة وهادئة أيضا، وتنام نوما هادئا.

يستيقظ يوي تشينغ في البكور ويرى أخته، ويفرك عينيه بقوة، وبعد ذلك يرى بجلاء أخته فينغ شيا، ولا يرتدي ملابسه

ويقفز من فوق السرير، ويفتح فمه، ويصيح بصوتٍ عال:

«أختي الصغيرة، أختي الصغيرة».

يضحك هذا الطفــل بلا انقطاع منذ الصباح الباكر، وتدعوه أمـــه إلى تناول الطعام بســـرعة، والذهاب إلى المدرســـة. ويكتم ضحكاتـــه ســـاعتئذ، ويختلـــس النظر إليّ، ويســـأل أمه بصوت خفيض:

«لا أذهب إلى المدرسة اليوم، حسنا أم لا؟».

وأقول: «مستحيل».

لا يجـــرؤ يوي تشـــينغ على الكلام مرة أخـــرى، ويدق الأرض بقدمـــه بعنف عندما يخرج من الباب حاملا الحقيبة المدرســـية على ظهره، ويخشـــى أن أستشـــيط غضبا في التوّ، ويهرول على جناح السرعة مغادرا البيت.

بعـــد انصرافه، طلبتُ من جياشـــين أن ترتدي ملابس نظيفة ونخرج سويا استعدادا لأن نرســـل فينغ إلى الأسرة التي تبنتها، والتفت وأرى فينغ شـــيا تحمل السلة والمنجل وتقف أمام المدخل، وتنتظرني، وتنظر إليّ بتوســـل، ممـــا جعلني لا أطاوع قلبي على إعادتها إلى تلك الأسرة، وأحملق في وجه جياشين والتي بدورها تحدق في عيوني كأنما تتوسل إليّ. وقلت لها:

«نجعل فينغ شيا تمكث يوما آخر».

قمت بإعادة فينغ شـــيا إلى الأســـرة التي تبنتهـــا بعد تناول طعام العشـــاء. لم تبك فينغ شيا، ورمقت أمها بنظرات الإشفاق والاشتياق، وتحدق في وجه أخيها الصغير، وتسحب كُمي وتسير معي. يبكي يوي تشينغ في الخلف، ويحدث جلبة. وعلى كل حال، فينغ شيا لا تسمع شيئا، ولم أعرها اهتماما.

ذكريات الترجل على ذاك الطريــق جعلتني حزينا كئيبا، ولم تطاوعني نفســي على رؤية فينغ شــيا، وأمضي قدما إلى الأمام على طول، وقطعت شــوطا طويلا من الطريــق حتى حل الليل، وتهــب الريح وتصيب وجهي بالجفاف، كما تداهم رقبتي. وتدس فينــغ شــيا يديها داخل كُمــي، ولم تصدر أي صــوت. وبعد أن أظلمت الدنيا، تتعثر فينغ شــيا بالحصــى على الطريق، وتقطع بعضا من الطريق، ثم تترنــح وتتمايل، وأجلس القرفصاء وأقوم بتدليــك قدميها، وتضــع يديها الصغيرتين فــوق رقبتي، ويدها باردة جدا ولا تتحرك البتــة. أحملها على ظهري طوال الطريق الذي قطعناه، حتى وصلنا المدينة، واقتربنا من منزل تلك الأسرة، وأحط فينغ شــيا أسفل مصباح الشــارع، وأنظر إليها وأتفحص ملامحهــا، إنها طفلة رائعة؛ لم تبك أيضا حتى ذاك الحين، غير أنها ترمقني بعينين جاحظتين، وأمد يدي وأتحسس وجهها، كما تمد يدها وتتحســس وجهي. يدها على وجهي تتحسس معالمه، ولا أرغب أيضا في إعادتها إلى بيت تلك الأســرة، وأحملها على ظهري عائدين أدراجنا إلى بيتنا. وذراعها الصغيرة تعانق رقبتي، ومشــينا بعضا من الطريق، وتحتضنني بقوة على حين غرة، لقد أدركت أنني أصطحبها ونرجع إلى البيت.

عدنا إلى البيت، وجياشين يصيبها الذعر عندما رأتنا، وأقول: «حتى لو هلكنا جميعا من الجوع، لا نعيد أبدا فينغ شــيا إلى تلك الأسرة».

تضحك جياشين بهدوء، وتواصل الضحك وتتدفق دموعها.

تلقّى يوي تشينغ تعليمه لمدة عامين، وعندما قارب العاشرة من عمره، كنا نعيش أياما أفضل بكثير عن ذي قبل. وتصطحبني

فينغ شـــيا آنذاك للعمل في الحقل ســـويا، وهي قد أصبحت قادرة على إعالة نفســـها. كما نربي عنزتين في بيتنا ويعتمد إطعامهما على الحشـــائش التي يقطعها يوي تشينغ. وكل يوم عند انبلاج تباشـــير الفجر، توقظ جياشين ابنها يوي تشينغ. وهذا الطفل يقذف المنجل في السلة ويحملها بيد، ويفرك عينيه باليد الأخرى، ويخرج من الباب متعثر الخطى ويذهب لقطع الحشائش، ومنظره يثير الشفقة حقا، والطفل في هذه السن لا يســـتيقظ فـــي أحلى أوقات النوم، ولكن مـــا العمل؟ تموت المعزتـــان جوعا إذا لم يقطع يوي تشـــينغ الحشـــائش لهما. وعندما يعود يوي تشـــينغ حاملا سلة الحشائش؛ يكاد يتأخر عن الذهاب إلى المدرســـة، ويلتهم بســـرعة سلطانية الطعام، ويمضغ تارة، ويهـــرول إلى المدينة تارة أخرى. كما يجب عليه قطـــع الحشـــائش عندما يعود مهـــرولا في الظهـــر، ويطعم العنزتـــين أولا، ثم يتناول طعامه بعد ذلـــك، وطبعا الوقت لا يتسع للذهاب إلى المدرسة. وعندما كان يوي تشينغ في حدود العاشرة كان يجب عليه قطع مسافة خمسة وعشرين كيلومترا ونيفا ذهابا وإيابا كل يوم.

من الطبيعي، أن يبلى حذاء يوي تشـــينغ بسرعة، حيث يقطع تلك المسافة الطويلة مهرولا. وتنحدر جياشين من أسرة ميسورة الحال تقطن في المدينة، وتشعر بأن يوي تشينغ طفل يذهب إلى المدرسة ولا يمكن أن يكون حافي القدمين، وتصنع حذاء له. أما أنا فأشـــعر أنه مادام يذهب إلى المدرسة ويتعلم باجتهاد، فذلك يعد عملا رائعا، وما علاقة ذلك إذا لبس حذاء أم لا؟ يلبس يوي تشينغ الحذاء الجديد لمدة شهرين فقط، ورأيت أمه تخيط نعلا

من أجله أيضا، وسألتها لمن تصنعين الحذاء؟ وتجيب من أجل يوي تشينغ.

العمل في الحقل جعل جياشين تشعر بالإعياء الشديد لدرجة أنها فقدت القدرة على الكلام، ويصر يوي تشينغ على أن يجعل أمه تموت من شدة الإعياء. وأفحص الحذاء الذي لبسه يوي تشينغ لمدة شهرين فقط، وأجده لم يعد يشبه الحذاء، فلا تقل إن نعله تآكل تماما، بل إنه حذاء سقطت منه فرعة الحذاء. وعندما رجع يوي تشينغ حاملا السلة المكتظة بالحشائش، رميت حذاءه، وجذبت أذنه، وجعلته يمعن النظر في حذائه:

«أنت تلبس الحذاء، أم تقضمه بأسنانك؟».

يتحسس يوي تشينغ أذنه التي جذبتها، ويقلص شفتيه، ويريد أن يبكي، ولا يجرؤ على البكاء. وأحذره قائلا:

«سوف أقطع قدميك إذا لبست الحذاء هكذا مرة أخرى».

في الواقع، ليس في جعبتي حجة في هذا الأمر، والعنزتان في بيتنا تعتمدان في طعامهما على يوي تشينغ. ويضطلع هذا الطفل بالعمل المهم هذا، ويؤخره عن الذهاب إلى المدرسة، ولذا يهرول دائما إلى هناك، وتنتهي دراسته في الظهر، ويريد دائما أن يعود مبكرا ويذهب لقطع الحشائش، ويعود مهرولا أيضا، بالإضافة إلى أنه يستخدم روث المعز في تسميد التربة. وكل عام يجزّ صوف العنزتين ويبيعه ويحصل على نقود، ولا أدري كم حذاء نستطيع تصنيعه من أجل يوي تشينغ؟ وبعد أن تفوهت بتلك الكلمات، يهرول يوي تشينغ إلى المدرسة حافي القدمين، وعندما يصل إلى المدرسة يلبس الحذاء. وذات مرة، سقطت الثلوج، ومع ذلك يهرول إلى المدرسة حافي القدمين

فـوق الثلج ويزمّ شـفتيه، مما جعلني أتألم بشـدة باعتباري والده، وأسأله:

«ماذا تحمل في يدك؟».

يقـف هذا الطفل علـى الأرض المغطاة بالثلـوج، وينظر إلى الحذاء في يده، وربما ذهنه مشوش، ولا يدري ماذا يقول، وأقول:

«في يدك الحذاء، وليس قفاز اليد، وأنت تحمله، وأنا ألبسه؟».

يلبس الحذاء في ذلك الحين، ويتراجع إلى الخلف، وينتظر أن أستمر في حديثي. وألوح له بيدي قائلا:

«انصرف».

يدور يوي تشينغ جسـمه ويهرول صوب المدينة، ويمشي إلى مـكان ليس بعيدا جـدا، ورأيته يخلع حذاءه، لقـد جعلني هذا الطفل أفقد ما في جعبتي من وسائل للتعامل معه.

تأسست الكومونة الشـعبية في عام 1958. والأرض ملك الأسـرة ومسـاحتها خمس موات اندمجت كلها تحت مسمى الكومونة الشعبية، وبقي فقط قطعة أرض صغيرة أحتفظ بها. وعمـدة القرية لا نطلق عليه عمدة القرية، بل نسـميه رئيس فريـق. في البكور يقـف رئيس الفريق تحت شـجرة الدردار كل يـوم ويصفر من شـفتيه، ويحتشـد الرجال والنسـاء في القريـة، بصورة جماعية أمام مدخـل القرية، حاملين أدواتهم مثل الجنود في الجيـش، ويكلفهم رئيس الفريق بالأعمال في ذاك اليوم، والجميع يعمل كل على حدة. يشـعر أهالي القرية جميعهم بالتجديد ويصطفون فـي أرتال، ويذهبون للعمل في الحقـول، وينظرون إلى وجوه الآخريـن ويمزحون ويضحكون. وأنا، وجياشـين، وفينغ شـيا نصطف في طابور يعتبر منظما

ونذهب للعمل، وتوجد بيننا امرأة عجوز شمطاء تتهادى في مشيتها، ويبدو الطابور شكله قبيحا للغاية لدرجة أن رئيس الفريق يقول:

«هذه الجماعة قبيحة المنظر أيا كانت الجهة التي ننظر إليها».

عادت أرضنا ومساحتها خمس موات إلى الكومونة الشعبية، وطبعا لا تتحمل جياشين مفارقة الأرض، ومنذ عشر سنوات خلت، تعتمد أسرتنا بأسرها على تلك الأرض للبقاء على قيد الحياة، وفي طرفة عين أصبحت ملكا للجميع، وتقول جياشين دائما:

«من الآن فصاعدا، إذا وُزعت الأرض مرة أخرى، فإنني أصر على هذه الأرض بأن تكون ملكا لنا».

لا يدري أحد في غضون أيام قلائل، حتى قدور المطبخ في بيتنا عادت إلى الكومونة الشعبية، ويقولون إنهم يريدون صهر الفولاذ. وفي ذاك اليوم، يصطحب رئيس الفريق بضعة أفراد وينتقلون من بيت إلى بيت لكسر القدور وخسر الحساء، وعندما وصل إلى بيتي، يبتسم ابتسامة عريضة، ويقول لي:

«يا فو قوي، أنت بنفسك تُخرج القدور، أم نقتحم بيتكم ونكسرها؟».

أعتقد أن القدور في كل بيت يجب تحطيمها مهما يكن من أمر، ولا يمكن أن يتنصل بيتنا من ذلك، وأقول:

«أخرجها بنفسي، أخرجها بنفسي».

أخرج القدور وأضعها على الأرض، وهناك شابان يرفعان المعزقة لكسرها، وتحطمت القدور الجيدة إربا إربا بعد دقها بالمعزقة ثلاث أو خمس مرات. تقف جياشين جانبا وترقب

كســر القدور وقلبها يعتصر ألما، وتنثال دموعها، وتخاطب رئيس الفريق قائلة:

«كيف نأكل من الآن فصاعدا بعد كسر القدور؟».

يلوح رئيس الفريق بيده، ويقول:

«تأكلين في المطعم».

ويردف:

«القرية تدير مطعما، وبعد كســر القدور، لا يحتاج أحد إلى طهي الطعــام في البيوت، ونوفر القوة مــن أجل الانطلاق نحو الاشتراكية، وإذا شــعرتِ بالخوف، تحركين قدميك صوب عتبة باب المطعم، وهناك اللحوم، وهناك الأســماك، وتشــبعين حتى التخمة».

القرية تدير المطعم، وتصادر الأرز والملح وأعواد الثقاب.. إلخ من داخل البيوت، وكانت العنزتان أكثر ما يثير الأســى والحزن، وقام يوي تشــينغ بتربيتهما وأصبحتا ســمينتين وقويتين، ويجب مصادرتهمــا أيضا. وفي صباح ذلك اليــوم، وحالما تحمل أفراد أســرتنا الأرز والملــح، ونرســلهما للمطعم، كان يوي تشــينغ أن يســحب المعزتين، ويخفض رأسه متوجها نحو ساحة التشميس، ولا يرغــب إطلاقا فــي التنازل عنهمــا؛ إن تلــك العنزتين قد أطعمهما بيده حتى كبرتا، ويهرول إلى المدرســة كل يوم، ويرجع إلى البيت مهرولا، وذلك من أجلهما. يسحبهما إلى تلك الساحة، كمــا يجــر الآخرون فــي القرية الأبقــار والأغنام إلــى هناك، ويســلمونها للمربّي (وانغ شــي). وعلى الرغم مــن أن الآخرين لا يتحملــون مصــادرة ثروتهــم الحيوانية، بيد أنهم يســلمونها لـ وانغ شــي، ثم ينصرفون عدا يوي تشــينغ يظــل واقفا هناك،

يعض على شفتيه، ولا يتحرك قيد أنملة، وفي نهاية المطاف يسأل وانغ شي بصورة تثير الشفقة والأسى:

«أأستطيع الحضور هنا يوميا لأحتضن تلك العنزتين؟».

عندما تتناول الطعام تشعر بأن مطعم القرية رائع منذ افتتاحه، وترسل كل أسرة شخصين ليحضرا الطعام، ويصطف الجميع في رتل طويل يشبه نظيره عندما كنت أقف وآخذ الخبز عندما وقعت بالأسر في البداية. وترسل كل أسرة الجنس الناعم، وهناك تدوي ثرثرة النساء مثل زقزقة أسراب عصافير الدوري التي تحلق في السماء عند تشميس الأرز غير المقشور. وكلام رئيس الفريق صائب، وتدشين المطعم يوفر الوقت والجهد حقا؛ إذا شعرت بالجوع تقف في الطابور، ثم تأكل وتشرب، والطعام متوفر ومتاح أمام الجميع، كل فرد يأكل كما يشاء، ويتم تقديم اللحوم كل يوم، وفي الأيام الأولى، يحمل رئيس الفريق الطعام ويطوف بيوت الجيران بيتا بيتا، ويضحك ويمزح، ويسأل الجميع:

«المطعم أنسب ويوفر الوقت والجهد، أليس كذلك؟ هذه الكومونة الشعبية جيدة أم لا؟».

يشعر الجميع بالسرور، ويقولون الكومونة رائعة. ثم يقول رئيس الفريق:

«تعيشون هذه الأيام في راحة وطمأنينة، أفضل من أن تكونوا متسكعين».

جياشين مغتبطة أيضا، وتقول في كل مرة تعود حاملة الطعام مع فينغ شيا:

«أتناول اللحم أيضا».

تضع جياشين الطعام فوق الطاولة، وتخرج تنادي ابنها يوي تشينغ. تنادي فترة من الزمن: يوي تشينغ، يوي تشينغ. وبعد ذلك، تراه يهرول فوق الممر الترابي حاملا السلة التي تكتظ بالحشائش، ويقدم هذا الطفل الحشائش للعنزتين، ويوجد في القرية ثلاث رؤوس من الأبقار وأكثر من عشرين شاة تم حبسها كلها في حظيرة واحدة، وقد عاد هذا القطيع من المواشي إلى الكومونة الشعبية، وبات من منكودي الطالع، حيث يقع تحت وطأة الجوع دائما، ويلتف حول يوي تشينغ بمجرد دخوله الحظيرة. ويخاطب يوي تشينغ المواشي قائلا:

«أطعمكم، أين أنتم؟».

تظهر عنزتا يوي تشينغ من بين قطيع الماعز، ويرمي الحشائش على أديم الأرض آنذاك، ويدفع الماعز الأخرى بقوة، ويرعى عنزتيه دائما حتى تأكلا وتشبعا، ويلهث، ورأسه يتصبب عرقا ويرجع أدراجه مهرولا؛ ويكاد يتأخر عن موعد دروسه، ويبلع هذا الطفل لعابه كأنما يحتسي الماء، ويقبض بيده على الحقيبة المدرسية وينطلق مهرولا إلى المدرسة.

أرقب يوي تشينغ مازال يذهب مهرولا، ويرجع مهرولا أيضا كل يوم، والغضب يمور في قلبي، وأرى من غير المناسب انتقاده، وإذا تفوهت بما يجيش في صدري، ويسمعه الآخرون، يقولون إنني متخلف. وذات مرة، لم أحتمل ذلك فعلا، وجاء على لساني:

«يتبرز الآخرون، وهل أنت تمسح مؤخراتهم؟».

لم يدرك يوي تشينغ مغزى كلامي، ويضحك ضحكة مكبوتة بعد أن حملق في وجهي برهة، وجعلني أشعر بالغضب وكادت يدي تصفعه على وجهه، وقلت:

«تلكمـــا العنـزتان عادتا إلى الكومونة منـــذ وقت مبكر، وأنت الأحمق تعتني بهما».

يرسل يوي تشينغ الحشائش إلى العنزتين ثلاث مرات يوميا، وعندما يوشــك الظلام أن ينتشـــر، يذهب إليهمـــا مرة أخرى، ويحتضنهما. المســؤول عن رعاية الماشــية وانغ شـــي يرى يوي تشينغ يحب عنزتيه على هذا النحو، فيقول:

«يـــا يوي تشـــينغ، مســـاء اليوم نقـــود العنزتين إلـــى بيتكم، وتحضرهما فـــي الصباح الباكر غدا». يوي تشـــينغ يعرف أنني لا أوافق على قيامه بهذا العمل، ويومئ برأسه، ويقول لوانغ شـي:

«إذا فعلت ذلك، فأبـــي يلعنني، ويكفي أنني أحتضنهما هكذا مرة تلو الأخرى».

طـــال أمد الأيام، وتضاءل عـــدد الغنم في الحظيرة يوما بعد يوم، وبعد مرور الأيام لم يعد يوجد ســـوى يوي تشـــينغ ليرســـل الحشائش.

يقول لي وانغ شي دائما عندما يراني:

«يوي تشـــينغ الإنســـان الوحيد الذي يعتريه القلق على الغنم يوميـــا، أمـــا الآخرون فـــلا يتذكرونها إلا عندما يريـــدون تناول اللحم».

بعـــد انقضاء يومين من بدء العمل فـــي مطعم القرية، طلب رئيس الفريق من اثنين من الشـــباب الســـفر إلى المدينة وشراء قـــدور فولاذية للمطبـــخ، وتتكوم القـــدور المكســـرة والرقائق الحديدية وغيرها في ســـاحة التشميس، ويشـــير إليها رئيس الفريق قائلا:

«يجب صهرها بسرعة، ولا يمكن تركها بلا فائدة».

بعد أن ذهب الشـابان إلـى المدينة وفـي حوزتهما الأحبال القشية والشـيالات، يصطحب رئيس الفريق الكاهن الذي دعاه من المدينـة، ويطوفان في القرية مدة طويلـة، ويقول إنه يبحث عـن أرض ذات قيمة، ويقام عليها بناية صهـر الفولاذ. الكاهن الذي يرتدي جلبابا يبتسم ويذرع المكان جيئة وذهابا، ويصل إلى أمام منزل إحدى الأسر، فتستنشق هذه الأسرة رشفة من الهواء البارد، والكاهن العجوز المقوس الظهر بمجرد أن يطأطئ رأسه، يندثر بيت تلك الأسرة في التو.

رئيـس الفريق يصطحب الكاهن ويحضران إلى مدخل بيتي، وأنا أقف أمام الباب وقلبي يدمدم كالطبل. يقول رئيس الفريق:

«يا فو قوي، إنه مستر وانغ، وجاء لزيارتك».

أطأطئ رأسي باستمرار، وأقول:

«حسنا، رائع».

الكاهـن يعقـد يديه خلف ظهـره، ويجيل بصـره في الأمام والخلف، وفي الشمال واليمين برهة، ويقول:

«مكان رائع، والبيئة الروحية هنا رائعة».

اسودت الدنيا في عيني عندما سمعت كلامه، واعتقدت أن هذا المكان انتهى من الوجود. وتخرج جياشين في هذا الوقت المناسب، وترى أمامها مستر وانغ الذي تعرفه وتحييه، فيقول مستر وانغ:

«أنت جياشين».

تضحك جياشين، وتقول:

«تفضل بالدخول ونحتسي الشاي».

يلوح مستر وانغ بيده، ويقول:

«نشرب الشاي في يوم آخر، نشرب الشاي في يوم ثان».

تقول جياشين:

«سمعت أبي يقول إنك مشـــغول للغاية في هذه الأيام، أليس كذلك؟».

مستر وانغ يومئ رأسه قائلا:

«مشغول، مشغول جدا».

ويردف قائلا:

«يصطف أناس كثر ويدعونني لمشاهدة البيئة الروحية».

يحدق في وجهي مستر وانغ، وهو يتفوه بتلك الكلمات، ويسأل جياشين:

«مَنْ هذا السيد المحترم؟».

تجيب جياشين:

«إنه فو قوي».

يزر مســـتر وانغ عينيه حتى يصبحا شقّين، ويضحك، ويومئ برأسه ويقول:

«ندردش في يوم آخر».

يدير جســـمه بعد أن يفرغ من كلامه، ويخاطب رئيس الفريق قائلا:

«نذهب ونتقصى الأحوال في بيئة روحية في مكان آخر».

أســـتريح قليلا بعد انصراف رئيس الفريق والكاهن، والكوخ الذي نعيش فيه لا يساوي شيئا، وعلى كل حال، أسرة لاوصون من منكـــودي الحظ في القرية، حيث وقع اختيار الكاهن على بيتهم. يطلب رئيس الفريق من أســـرته إخلاء البيت، يبكي لاوصون تاو بحرقة، ويجلـــس في أحد الأركان، ولا يرغـــب في الانتقال إلى مسكن آخر، ويقول له رئيس الفريق:

«علام كل هذا البكاء، الكومونة الشعبية تبني لك بيتا جديدا».

يــدس لاوصون تاو رأســه بين يديــه، وينخرط فــي البكاء، ولا يتفوه بحرف. بحلول المساء، ارتأى رئيس الفريق أنه لا توجد وســيلة لإقناعه بإخلاء البيــت، ومن ثم يدعو نفرا من شــباب القريــة الذين يجــرون لاوصون تاو من بيتــه، وينقلون أغراضه إلى الخارج. وبعد جره إلى الخارج، لاوصون تاو يحتضن شــجرة بيديه، ولا يرغب أن يرخي يديه، والشابان اللذان قاما بجره إلى الخارج، ينظران إلى رئيس الفريق، ويقولان:

«يا رئيس الفريق، لا يمكن جره».

يلتفت رئيس الفريق وينظر إليهما، ويقول لهما:

«حسنا، أنتما تضرمان النار».

يأخذ الشــابان أعواد الثقاب، ويقفان فوق المقعد، ويشــعلان النار في الأعشاب فوق سقف البيت. ولكن تلك الأعشاب أصابها العفــن أصــلا، بالإضافة إلــى أن الأمطار هطلــت أمس، ولذا لا يستطيعان إحراقها. ويقول رئيس الفريق:

«حظ عاثر، لا أصدق أن كبريت الكومونة الشعبية لا يمكن أن يحرق هذه الغرفة البالية».

يتكلم ويشــمر عن ساعديه استعدادا لأن يشعل النار بنفسه. ويقول أحد الأشخاص:

«نسكب بعضا من الزيت ليساعد على إشعال النار».

يفكر رئيس الفريق، ثم يقول:

«حســنا، أنا غبي، لــم تخطر ببالي هذه الفكــرة، اذهب إلى المطعم بسرعة، وأحضر الزيت».

في الماضي، كنت أشــعر بأنني الوحيد من أبناء المبذرين، ولم

يخطر ببالي أن رئيس الفريق من المبذرين أيضا. وأنا أقف في مكانٍ يبعد أقل من مئة خطوة، أرقب رئيس الفريق والشباب يحضرون الزيت ويسكبونه على الأعشاب؛ إنه الزيت الذي انتزعوه من أفواهنا، ومع ذلك لم يشعلوا نارا. لقد سكبوا زيت طعامنا على الأعشاب وتتصاعد ألسنة اللهب في الهواء، وتتطاير أعمدة الدخان السوداء فوق سقف البيت. ورأيت لاوصون تاو مازال يحتضن تلك الشجرة، ويفتح عينيه ويرى عشه آتت عليه النار، ومنظره يثير الشفقة والأسى، وينتظر حتى تلتهم النار السقف ويصبح رمادا، كما احترقت الجدران الطينية في الجهات الأربع، ويمسح دموعه، ثم ينصرف، وقد سمعه أهالي القرية يقول:

«القدور تكسرت، والبيت احترق، ويبدو أنه يجب أن أموت أيضا».

في مساء ذاك اليوم، لم أنم أنا وجياشين نوما هادئا، وإذا لم تعرف جياشين مستر وانغ الكاهن في المدينة، فلا أعرف أين تكون أسرتي؟ فكرت مليا في هذا الشأن، ورأيت أنه قضاء وقدر، وكان مصير لاوصون تاو مريرا، وشعرت جياشين بأن هذه المصيبة أبعدناها عن كاهلنا ونقلناها إليه. وشعرت أنا أيضا بأن الأمر على هذا النحو أيضا، ولكن لم أتفوه بذلك، بل قلت:

«المصيبة تبحث عنه، ولا يمكن القول إننا نقلنا تلك المصيبة إليه».

يمكن القول إنه تم فعلا إخلاء المكان لصهر الفولاذ، ورجع من المدينة الذين ذهبوا لشراء القدور، لقد اشتروا برميل بنزين، وهناك عدد كبير من أبناء القرية لم يروا برميل البنزين من قبل، وشعروا بالغرابة، وسألوا ما هذه اللعبة؟ وقد شاهدت برميل

البنزين أثناء مشاركتي في الحرب من قبل، ثم قلت لهم:

«إنـــه برميل البنزين، إنه ســلطانية الطعام التي تســتخدمها السيارة».

يركل رئيس الفريق سلطانية طعام السيارة، ويقول:

«صغير جدا».

يقول المشترون:

«ليس هناك أكبر من ذاك البرميل، ونستطيع فقط صهر قدر تلو الآخر».

يحب رئيس الفريــق الانصياع إلى أصحاب الحجة، ولا يهتم بما ذكروا، وقد صدق كلامهم مادام معقولا، ويقول:

«أجل، لا يمكن أن يصبح الإنســـان ســمينا بمجرد أن يتناول وجبة طعام واحدة، إذن، فاصهروا قِدرا قِدرا».

الطفل يوي تشــينغ يرى لفيفا كبيرا مــن الناس يلتفون حول برميــل البنزين، ولــم يتوجه إلـــى حظيرة الغنم حاملا الســلة المكتظة بالحشــائش، بل حضر إلينا هنا وزاحمنا. يحك رأســه بجوار خصري ويخترق الزحام حتى يتبرز في الخارج، وأفكر من القادم إلينا! وأخفض رأسي، واكتشف أنه ابني يوي تشينغ يقول لرئيس الفريق:

«يجب أن نضع ماء في برميل صهر الحديد والصلب».

يضحك الجميع بعد أن سمعوا كلامه. يقول رئيس الفريق:

«نضع ماء في البرميل؟ ابنك يريد سلق اللحم».

ينفجر يوي تشينغ في نوبة ضحك بعد أن سمع كلامه، ويقول:

«إذا لــم ينصهر الفــولاذ جيدا، فإن قـــاع البرميل يهترئ من الغليان».

رئيس الفريق يرفع حاجبيه عاليا عندما سمع ذلك الكلام، ويحدق في وجهي قائلا:

«يا فو قوي، كلام ابنك صائب حقا، أسرتك أنجبت عَالِما».

يثني رئيس الفريق على يوي تشينغ، وأشعر بالغبطة طبعا، وفي الواقع، أن يوي تشينغ قدم فكرة غثة، فبرميل البنزين أتت به أصلا أسرة لاوصون تاو، ووضعت داخله القدور المكسرة والرقائق الحديدية، ويوجد به ماء فعلا، وغطاء خشبي فوق فتحة البرميل، ويكون صهر الحديد والصلب على هذا النحو. ويطنطن ذاك الغطاء ويقفز بمجرد أن يغلي الماء، وتتطاير الأبخرة إلى الخارج؛ صهر الحديد والصلب يشبه سلق اللحم حقا.

يذهب رئيس الفريق إلى برميل البنزين كل يوم ويفحص أحوال صهر الحديد والصلب مرات عديدة، وكل مرة يفتح الغطاء الخشبي تتصاعد الأبخرة من الداخل كأنها فيضان، وتبث الفزع في نفسه وينأى بعيدا ويقفز بضع خطوات، ويصرخ:

«أبخرة ساخنة تكاد تحرقني».

ينتظر حتى تقل الأبخرة المتصاعدة بعض الشيء، ثم يأخذ عصا الحمل ويمدها داخل البرميل ويدق، وبعد أن ينتهي من الدق، يلعن قائلا:

«حديد لعين، مازال صلبا».

سقطت جياشين مريضة في الفترة التي شهدت انصهار الحديد والصلب في القرية. لقد أصابها مرض فقدان القدرة، وجال بخاطري في البداية أنها لا تكون ضعيفة وواهية هكذا إلا إذا كانت طاعنة في السن. وفي ذلك اليوم، كان أهالي القرية يحملون روث الغنم لتسميد الأرض، وكانت الحقول وقتئذ تغص

بقصبات البامبو التي تعلوها الرايات الورقية الحمراء، وبعد هطول الأمطار مرات عديدة اندثرت تلك الأوراق كلها، ولم يبق سوى بعض قصاصات ورقية حمراء فوق رؤوس تلك القصبات. وجياشين تحمل روث الغنم أيضا، وقد ارتخت ساقاها أثناء السير فتجلس على الأرض، ويراها أهالي القرية ويضحكون، وتضحك جياشين أيضا، وتنهض واقفة وتحاول حمل روث الغنم مرة أخرى، وترتعش ساقاها، وترتجف داخل بنطالها، وتبدو في حالة فوضى كأنما اجتاحتها الريح، ويجول بخاطري أنها تعاني من الإرهاق، ولذا خاطبتها قائلا:

«استريحي قليلا».

جياشين تجلس على الأرض مرة أخرى بمجرد أن فرغت من كلامي، ويتناثر روث الغنم من داخل الشيالة ويغطي ساقيها، وتعلو أمارات الحمرة وجهها بصورة فجائية، وتقول لي:

«لا أعرف ماذا أصابني؟».

كنت أرى أنه إذا غفت جياشين غفوة، ففي اليوم التالي تسترد عافيتها، ولم يخطر ببال أحد أنه بعد بضعة أيام لم تعد قادرة على حمل الشيالة، وتستطيع فقط الاضطلاع ببعض الأعمال الخفيفة في الحقل. وكان الوقت مناسبا آنذاك وتعمل في الكومونة الشعبية، وإلا نعيش أياما لا تُطاق. وطبعا، أصبحت حزينا وكئيبا من جراء المرض الذي داهم جياشين، وتسألني خلسة دائما في الليل:

«يا فو قوي، هل أسبب لكم متاعب؟».

أجيب قائلا:

«لا تشغلي بالك، الناس يتعرضون لذلك عندما تتقدم بهم السنون».

فــي ذلك الحين، مازلت لا أهتم كثيــرا بالمرض الذي أصاب جياشــين، واســتعادت ذاكرتي أنها لم تعش أياما جميلة منذ أن تزوجتهــا، والآن أصبحت طاعنة في الســن، ويجــب أن أتركها تســتريح، ولا يدري أحد أن مرضها بات خطيرا على حين غرة، وكنا مســاء ذاك اليوم نقوم بحراسة برميل البنزين، حيث تجرى عملية صهر الحديد والصلب، وأصابتها الدوخة فســقطت على الأرض، وأصابني الفزع، وفكرت آنذاك بإرسالها إلى المستشفى في المدينة للعلاج.

لقد انقضى شــهران ونيــف يومئذ على بــدء صهر الحديد والصلــب ومازال صلبا، ويشــعر رئيس الفريــق أنه لا يمكن أن نجعــل القــوى العاملة الأكثر قــوة وحيوية فــي القرية تضطلع بحراسة برميل البنزين ليلا ونهارا، ويقول:

«من الآن فصاعدا، تكون الحراسة بالتناوب بيتا بيتا».

عندما جاء دورنا، قال رئيس الفريق لي:

«يا فو قوي، غدا يحلّ العيد الوطني، اجعل النار تتوهج بعض الشــيء، وعلى كل حال، يجب عليك أن تصهر الحديد والصلب من أجلي».

طلبت من جياشين وفينغ شيا أن تذهبا في البكور إلى المطعم لحراســته، وتحضرا الطعام وتعودا مبكــرا، وبعد تناول الطعام، أتســلم نوبة الحراسة من الآخرين، وأخشــى التأخير فيتفوهوا بكلام فارغ.

على أي حال، رجعت جياشــين وفينغ شــيا تحملان الطعام، ولكن لم يرجع يوي تشينغ بعد أن انتظرته طويلا. تقف جياشين أمام الباب وتصيح حتــى تغمر حبات العرق جبينها، وعرفت أن

هذا الطفل بكل تأكيد يقطع الحشائش ويرسلها إلى حظيرة الغنم. قلت لزوجتي جياشين:

«نتناول الطعام أولا».

انصرف من البيت بعد أن فرغت من كلامي متوجها إلى حظيرة الغنم في القرية، وأرى فيما أرى أن هذا الطفل لا يفهم شيئا، ولا يمد يد المساعدة لأمه في الاضطلاع بالشؤون المنزلية، ويهتم فقط بقطع الحشائش طوال اليوم، والقوة في ساعديه ليست من أجل بيتي. ترجلت حتى بلغت مقدمة الحظيرة، ورأيت يوي تشينغ يرمي الحشائش، ويحمل يوي تشينغ السلة، ويسأل وانغ شي:

«هل تذبحون غنمي؟».

يجيب وانغ شي:

«لا، إذا أكلنا كل الغنم، من أين نحصل على السماد؟ والمحاصيل لا تنمو نموا سليما إذا افتقرت الحقول إلى الأسمدة».

وانغ شي يراني أدلف إلى داخل الحظيرة، ويخاطب يوي تشينغ قائلا:

«حضر أبوك، ارجع بسرعة».

يلتفت يوي تشينغ، وأنا أمد يدي وأربت على رأسه. إن هذا الطفل أخمد لهيب غضبي عندما كان يسأل وانغ شي توا بلهجة تنم عن الإشفاق والأسى.

أترجل أنا ويوي تشينغ عائدين إلى بيتنا، ويشعر الأخير بالغبطة لأنني لم أغضب منه، ويخاطبني قائلا:

«إنهم لا يذبحون الشاتين اللتين أقوم على تربيتهما».

عندما حل الليل، كانت أسرتي تقوم بحراسة البرميل حيث صهر الحديد والصلب، وأتولى مسؤولية زيادة الماء في

البرميل، وتأخذ فينغ شيا مروحة وتؤجج النار، وجياشين ويوي شينغ يجمعان فروع الأشجار. نعمل حتى منتصف الليل، ويغط أهالي القرية في سُبات عميق، وقمت بزيادة الماء ثلاث مرات، أتناول فرع الشـــجرة وأقلب الحديد والصلـــب داخل البرميل، ولكنه مازال صلبا. تشعر جياشـــين بالإعياء، ويتصبب وجهها عرقـــا، وعندما تحني خصرها وتدس فروع الأشـــجار أســـفل البرميل، تجثو على الأرض. أضع الغطاء الخشـــبي على فتحة البرميل، وأقول لها:

«أنت تعانين من المرض».

تقول جياشي:

«لست مريضة، أشعر فقط بالوهن في جسمي».

يتكئ ســـاعتئذ يوي تشـــينغ على الشـــجرة كأنه استغرق في النوم، أما فينغ شيا فتنفخ في النار، وتشعر بالتعب في ساعديها، وأهـــرول إليها وأشـــجعها على تأجيج النـــار، وتعتقد أنني أقوم بعملها بدلا منها، فتدير وجهها وتومئ برأسها باستمرار، وأشير إلى يوي تشـــينغ آملا منها بأن تحتضنه وتعود به إلى البيت، تهز رأســـها وتنهض واقفة. وينبعث ثغاء الغنم من الحظيرة بالقرية، ويوي تشـــينغ المستغرق في نومه يقهقه عندما يسمع هذا الثغاء، وعندما تهم أخته فينغ شيا باحتضانه، يفتح عينيه فجأة، ويقول:

«الآن، غنمي يثغو».

كنـــت أرى أنه مازال يغط في نومـــه، ورأيته يفتح عينيه، كما يقول إن غنمه تثغو، ولذا استشاط غضبا، وأقول له:

«إنه غنم الكومونة الشعبية، وليس غنمك».

يرتجف هذا الطفل رجفة شـــديدة، ويفيق تماما من نعاســـه،

وتتســـمر عيناه على وجهي، وتدفعني جياشين دفعا، وتخاطبني قائلة:

«لا تبث الخوف في نفسه».

تتكلم وتجلس القرفصاء، وتخاطب يوي تشينغ بصوتٍ خفيض قائلة:

«يا يوي تشينغ، نمْ، نمْ كما يحلو لك».

يحملــق هذا الطفــل في وجه جياشـــين، ويطأطئ رأســـه، ويغمض عينيه، ثم يشـــخر في نومه بعـــد لحظة قصيرة. أحمله بيدي وأضعه على ظهر فينغ شـــيا، وألوح بيـــدي لها، وأخبرها، وأطلب منها أن تحمل يوي تشـــينغ ويعودا إلى البيت، ويأويا إلى الفراش، ولا يرجعا هنا.

بعـــد أن حملت فينغ شـــيا أخاها يوي تشـــينغ على ظهرها، جلست مع جياشـــين أمام النار، وكان الجو باردا آنذاك، ونشعر بالدفء أمام النار، وتشـــعر جياشـــين بالإعياء الشـــديد وقواها خائرة، وترهق نفســـها إذا أرادت رفـــع ذراعيها، وطلبت منها أن تستند عليَّ، وقلت لها:

«أنت تغمضين عيونك وتنامين قليلا».

تســـند جياشين رأســـها على منكبي، والنعاس يطرق جفوني أيضا، وتتدلى رأســـي إلى أســـفل دائما، وأرفعها بقوة برهة، ثم تتدلى أيضا دون أن أدري، وفي المرة الأخيرة وبعد أن زودت النار بفروع الأشجار، تدلت رأسي باستمرار ولم أرفعها مرة أخرى.

لا تدري نفســـي مـــدى الفترة الزمنية التي كنـــت فيها نائما، وبعد ذلك ســـمعت صوتا مدويا يهـــز الأركان، وأفزعني ونهضت من الأرض فجأة وجلســـت، وكادت الظلمـــة تلف الكون إذ ذاك،

ورأيت البرميل ينقلب على الأرض، وقفزت في الهواء في الحال، وهرولـت حول ذلك البرميل مرتين، ولم أر جياشـين، وانتابتني المخاوف الشديدة، فأصرخ من حنجرتي بصوتٍ عال، وأنادي: «جياشين، جياشين».

سـمعت جياشـين على ضفة تلك البركة تسـتجيب لندائي بصوتٍ خفيـض، وهرولت إليها ووجدتها جالسـة على الأرض، وتحاولُ جاهدة أن تنهض واقفة بكل قوة، وعندما كنت أسندها، اكتشفت أن ملابسها مبللة تماما.

بعد أن سـلمت نفسي للنوم، لم تذق جياشين طعم النوم أبدا، وتدس فروع الأشـجار بلا انقطاع إلى النار، وبعد ذلك كان الماء في البرميل يوشك على النفاد، فتأخذ البرميل الخشبي وتحضر المـاء من البركة، وتشـعر أن قواها الجسـمانية واهية، وتحمل البرميل الفـارغ وتكون أكثر تعبا وإرهاقا، ناهيك عن أنها تحمل البرميل المملوء عن آخره بالماء، تحمله وتمشـي خمس أو سـت خطوات، ثم تقع على الأرض، وتجلس على أديم الأرض وتستريح قليلا، ثم تأخذ البرميل وتحضر الماء مرة أخرى. وفي هذه المرة، كانت تمشـي خطوة وتستريح برهة، بيد أن قدمها زلت وسقطت علـى الأرض عندما وصلت حالا إلى البركة، والماء في البرميلين الأمامي والخلفي على عصا الشـيالة يبللان جسمها كله. تجلس علـى الأرض وتعجز عن النهوض، وتنتظر دائما حضوري بعد أن أستيقظ من نومي مفزوعا من جراء صراخها المدوي في الآفاق.

اطمأنت نفسي بعد أن ظل قلبي معلقا بين ضلوعي حالما رأيت جياشين لم يصبها أذى، وأسندتها حتى وصلنا إلى أمام البرميل حيـث تتوهج بعض ألسـنة النار هناك، وشـاهدت قاع البرميل

مهترئا من جراء الغليان، وأدركت أننا في ورطة. جياشين أصابها الجنون عندما رأت الأحوال المتردية، وتعنف نفسها بقوة، وتقول:

«ألقوا باللائمة عليّ، عاتبوني».

قلت:

«لا، أنا لم أقم بواجبي، لا يجوز أن أنام».

ارتأيت أن أبلّغ رئيس الفريق بسرعة إلى حدٍ ما، ثم أسندت جياشين بيدي حتى وصلت إلى أسفل الشجرة، وطلبت منها أن تتكئ على الشجرة وتجلس على الأرض، وتوجهت بنفسي إلى الدار القديمة لأسرتي والتي فيما بعد أصبحت ملكا للونغأر، والآن هو غرفة رئيس الفريق، وهرولت حتى وصلت إلى أمام الغرفة، وناديت بكل قوة:

«يا رئيس الفريق، يا رئيس الفريق».

رئيس الفريق في الداخل، يجيب قائلا:

«مَنْ ينادي؟».

أقول:

«أنا، فو قوي، قاع البرميل بات باليا من جراء الغليان».

يسأل رئيس الفريق:

«هل انصهر الحديد والصلب؟».

أجيب:

«لم ينصهر بعد».

رئيس الفريق يسب ويلعن قائلا:

«إذن، أنت تقول كلاما فارغا».

لم أجرؤ على أن أتحدث معه مرة أخرى، وتسمرت قدماي، ولا أعرف ماذا أفعل؟ ضوء الشمس يضيء صفحة السماء

وقتئذ، وفكرت مليا في الأمر، وارتأيت أن أرسل جياشين أولا إلى المستشـفى في المدينة؛ حيث مرضها يبدو خطيرا. أما بخصوص اهتـراء قاع ذلك البرميل، فسـأذهب مرة أخـرى إلى بيتي أولا، وأيقظ فينغ شـيا وأطلب منها أن تذهب معي أيضا؛ لأن جياشين عاجزة عن المشي وطاعنة في السن، ويبدو من الصعب أن أحملها علـى ظهري بمفردي لمسـافة أكثر من عشـرة كيلومترات، ولكن أستطيع فقط حملها على الظهر بالتناوب مع ابنتي فينغ شيا.

حملت جياشـين على ظهري متوجها صوب المدينة، وتسـير فينغ شيا بجواري؛ جياشين فوق ظهري، وتقول:

«لست مريضة، يا فو قوي، لست مريضة».

أدركت أنه يعزّ عليها أن تنفق أموالا في علاجها، وقلت:

«إذا كنـتِ مريضة أم لا، فسـنعرف ذلـك عندما نذهب إلى المستشفى».

لا ترغب جياشـين في الذهاب إلى المستشـفى، وتغمغم في الطريـق، لقد أصبحت خائـرة القوة بعـد أن قطعنا بعضا من الطريق، ثم طلبت من فينغ شيا أن تحل محلي، وقوتها الجسدية أكبر منـي، فتحمل أمها وتهمهم بصوتٍ مدوٍّ، لم تعد جياشـين تغمغم بأي شـيءٍ بعد أن انتقلت إلى ظهر ابنتها، وتضحك على حين غرة، وتقول بصورة تنم عن المواساة:

«لقد كبرت ابنتي فينغ شيا حقا».

جياشـين تحمـر عيناها بعد أن فرغت مـن كلامها، وتردف قائلة أيضا:

«كانت فينغ شـيا ستتمتع بالقوة الشـديدة لو لم يصبها ذلك المرض العضال».

وأقول:

«ما فائدة أن تذكري المرض الذي أصابها منذ بضع سنوات خلت».

أبلغنا أطباء المستشفى في المدينة أن جياشين أصابها مرض لين العظام، وأضافوا أن هذا المرض لا يبرأ منه أحد، وطلبوا منا أن نحملها ونعود أدراجنا، ونستطيع فقط أن نطعمها جيدا حتى تتحسن صحتها بعض الشيء، ومن المحتمل أن تتدهور أحوالها الصحية أكثر فأكثر، وقد لا يتفاقم مرضها وتظل قابعة في هذه الحال. وفي طريق العودة، تحمل فينغ شيا أمها على ظهرها، وأمشي بجوارهما مضطربا حائرا، وأفكر في زوجتي التي أصابها داء لا يبرأ من سقمه أحد، كلما أمعنت التفكير في أمرها، زادت مخاوفي، وحياتي تصل بسرعة إلى هذا الحد، وأرى جسمها هزيلا حتى وجهها فقد نضارته، وأتذكر أنها لم تعش يوما واحدا جميلا بعد أن تزوجتني.

مع ذلك تشعر جياشين بالغبطة إلى حدٍ ما، وتقول وهي قابعة فوق ظهر ابنتها:

«لا بأس مرضي لا يبرأ سقمه، وليس في جعبتنا نقود للعلاج».

وعندما كنا على وشك الاقتراب من مدخل القرية، تقول جياشين إن صحتها تحسنت قليلا، وتبغي أن تمشي بنفسها وتترك ظهر ابنتها، وتقول:

«لا أريد تخويف ابني يوي تشينغ».

تخشى أن يوي تشينغ ينتابه الخوف عندما يرى منظر أمه على هذا النحو، إنها تفكر بذهنية الأمومة، ويقودها ذلك إلى التفكير الدقيق. تنزل من فوق ظهر فينغ شيا، وتسندها، وتقول

إنها تستطيع المشي بمفردها، وتضيف:

«لم يصبني أي مرض حقا».

يدوي قرع الطبول ودق الصاجـات في القرية حينئذ، ويقود رئيس الفريق فرقـة وينصرف من مدخل القرية، وبعد أن ينظر إلينا، يلوح مسرورا بيده ويصيح قائلا:

«يا فو قوي، أسرتك تقدم خدمات جليلة».

أصابتنـي الحيرة والارتبـاك، ولا أعرف ماهيـة الخدمات الجليلة التي قدمناها، وانتظرت حتى اقتربوا، ورأيت شابين من القرية يحملان قطعة حديد معالمها فوضوية، وأعلاها ملتو على شكل نصف قدر، وعدة رقائق حديدية بارزة تعلوها قطعة قماش حمراء. يشير رئيس الفريق إلى ذاك الحديد المهترئ، ويقول:

«أسـرتك صهرت الحديد والصلب وخـرج إلى حيز الوجود، ويتواكـب ذلـك مع الوقت المناسـب للاحتفال بالعيـد الوطني، ونسافر إلى المحافظة ونبشرهم بذلك».

أصابني الجنون عندما سمعت هذا الكلام، وسيطر عليَّ القلق من جراء أن قاع البرميل قد تهرّأ، ولا أعرف كيف أقدّم تقريرا عن ذلك إلى رئيس الفريق، ولا يدري أحد أن الحديد قد تم انصهاره على غير المتوقع، ويربت رئيس الفريق على منكبي قائلا:

«يمكـن أن نصنـع ثلاث قذائـف مدفعية من هـذا الحديد ونحطـم بها تايـوان(*) عن بكـرة أبيها، قذيفـة تحطم فراش

(*) تايـوان: أكبر جزيرة في الصين وتبلغ مسـاحتها 35.688 كم مربع، وتقع على بعد 100 كم من سـاحل مقاطعة فوجيان الواقعة في جنوب شـرق الصين. فر إليهـا رجال حزب الكومنتانغ (الوطنيون الصينيون) بزعامة تشانغ كاي شيك، بعد ان انتصر عليهم الشيوعيون في عام 1949، وأقاموا فيها نظاما سياسـيا واقتصاديا وثقافيا يختلف عـن باقي أنحاء الصين، ولذا أصبحت أحد النمور الآسيوية الأربعة الشهيرة، وعاصمتها تايبيه [المترجم].

الرئيس الصيني الهارب هناك جيانغ جيه شـــي، وقذيفة تحطم طاولة طعامه، وقذيفة تحطم حظيرة غنمه».

يلوح رئيس الفريق بيده بعد أن يفرغ من كلامه، ويحضر عشرة أفراد يقرعــون الطبول ويدقون الصاجات بـــكل قوة، ويروحون ويجيئون، ويدور رأســـه في خضم أصـــوات الطبول والصاجات، ويصيح قائلا:

«يا فو قوي، تأكل اليوم فطيرة بالبخار في المطعم، كل فطيرة محشوة بشاة، الفطيرة تكتظ باللحم».

سألت جياشين بعد أن نأوا عن أعيننا:

«هل انصهر الحديد والصلب حقا».

تومئ جياشين برأسها، ولا تعرف أيضا كيف انصهر الحديد، وفكـــرت مليـــا أن الحديد انصهر عندما تهرأ قـــاع البرميل بكل تأكيـــد، ومن الممكـــن أن ينصهر الحديد قبل ذلـــك لولا أن يوي تشـــينغ اقترح الفكرة الغثة بصب الماء في البرميل. وحالما عدنا أدراجنـــا، كان يوي تشـــينغ يقف أمام البـــاب وترتعد مناكبه من حرقة البكاء، ويقول:

«لقد ذبحوا غنمي، ذبحوا الشاتين».

ظل يوي تشـــينغ كئيبا وحزينا بضعة أيـــام، وهذا الطفل بعد أن يســـتيقظ من نومه مبكرا كل يـــوم، لم تعد هناك ضرورة لأن يهرول إلى المدرســـة. رأيته يتسكع ويضيع الوقت بالتكاسل أمام البيـــت ويذرع المكان جيئة وذهابا، ولا يعرف ماذا يعمل، وكان قد اعتاد في ذلك الحين أن يحمل الســـلة ويذهب لقطع الحشائش، وتدعـــوه أمه إلى تناول الطعام، فيدلف إلى الداخل ويجلس أمام الطاولـــة بمجرد أن تناديه، وبعد تنـــاول طعامه، يحمل الحقيبة

المدرســية على ظهره، ويعرج على حظيرة الغنم في القرية يلقي عليها نظرة، ثم يتوجه فاتر الهمة إلى المدرسة في المدينة.

الأغنام في القرية ذُبحت والتُهــم لحمها تماما، أما البقرات الثــلاث فقد تم الحفاظ على حياتها لأنها تســتخدم في حراثة الحقــول، والحبوب على وشــك النفاد. يقــول رئيس الفريق إنه يذهــب إلى الكومونة الشــعبية لتناول بعــض المعجنات، ويجلب معه عشــرة من الشباب في كل مرة، يحملون عشر شيالات على أكتافهم، ويبدو منظرهم كأنمــا يعودون بعد أن حملوا جبلا من الذهب على مناكبهم، بيد أنهم مازالوا عند عودتهم عشرة شباب وعشــر شــيالات، ولا يحملون حتى حبة من الأرز، ويقول رئيس الفريق بعد عودته في المرة الأخيرة:

«ينحــل المطعم بدءا من غدٍ، ويذهــب الجميع إلى المدينة في عجالة لشراء القدور، وكل أسرة تطهو بنفسها طعامها على غرار عهدنا في الماضي».

كان تحطيم القدور في البداية حسب تعليمات رئيس الفريق، وكذلك شــراء القدور يحتكم إلى كلامه أيضا، والحبوب الباقية في المطعم توزع على كل أســرة بمقــدار عدد أفرادها، وحصلت أسرتي على حبوب تكفي لمدة ثلاثة أيام فقط. محصول الأرز في الحقول ســوف يحصد بعد شــهر، ويمكن تحمل المشقة والجوع خلال ذلك الشهر أيا كانت الظروف.

بدأ أهالي القرية يعملون في الحقول ويسجلون نقاط العمل، وأنا أُعْتَبر من القوى العاملة القوية، وأحصل على عشــر نقاط، أما زوجتي فتســتطيع أن تحصل على ثماني نقاط إذا لم يصبها المرض، وتســتطيع فقط الاضطلاع ببعض الأعمال الخفيفة من

جراء مرضها، وتحصل بالكاد على أربع نقاط، وابنتي فينغ شـيا التـي تكبر وتترعرع حاليا وتتحلى بالقوة والحيوية في أوسـاط الجنس الناعم، تستطيع أن تحرز سبع نقاط يوميا.

تشـعر جياشـين بالألم في قلبها، حيث إن نقاط العمل التي تحرزها تضاءلت بمقدار النصف، ويحز الأمر في نفسها، وتشعر دائما بأنها لا تزال تستطيع القيام بالأعمال الثقيلة، وتخبر رئيس الفريق مرات عديدة بأنها تدرك أنها مريضة، ولكنها الآن قادرة على الشغل المرهق، وتردف قائلة:

«انتظر حتى أصبح عاجزة عن العمل فعلا، وآنذاك سجل لي أربع نقاط».

يفكر رئيس الفريق في كلامها ويراه صائبا، ثم يقول لها:

«إذن، اذهبي واقطعي عيدان الأرز».

تأخذ جياشـين المنجل وتدلف إلى حقـل الأرز، وبدأت قطع عيدان الأرز بسـرعة حقا، ورأيتها بأم عيني، وفكرت هل الطب كان تشخيصه خطأ أم لا؟ وعلى كل حال، قطعت حزمة، وتهاوى جسـمها قليلا، وبانت حركتها بطيئة كثيـرا في الحزمة الثانية، ذهبت إليها وسألتها:

«هل أنتِ بخير؟».

يكتـظ وجهها بحبـات العرق سـاعتئذ، وتتصـب خصرها وتوبخني قائلة:

«ابقَ في عملك، لماذا جئت إلى هنا؟».

كانت تخشـى أن قدومي يجذب إليهـا الأنظار من كل حدب وصوب، وقلت:

«أنتِ تهتمين بصحتك اهتماما شديدا».

تفقد صبرها، وتقول:

«انصرف بسرعة».

أطأطئ رأسي وأضطر إلى الانصراف، وبعد انصرافي بوقت غير طويل، سـمعت صوت وقوع علـى الأرض في ذاك الجانب، واضطربت دقات قلبي، فرفعت رأسـي ورأيت جياشين سقطت على الأرض، وعلى الرغم من أنها نهضت واقفة، بيد أن ساقيها ترتعشـان، واصطدمت رأسـها بالمنجل عندما سقطت، وأصيب جبينها بجرح ونزف الدم. تبتسـم ابتسـامة مصطنعة وترمقني بنظراتها، دون أن أتفوه بكلمة. حملتها على ظهري متوجها صوب دارنا، ولم تقاومني، وسارت جزءا من الطريق وهي تبكي، وتقول:

«يا فو قوي، مازلت قادرة على إعالة نفسي، أليس كذلك؟».

أجيب قائلا:

«تستطيعين».

شعرت جياشين فيما بعد باليأس، وعلى الرغم من أنها تتألم من جراء خسارتها أربع نقاط في العمل، ولكن مازلت تعتقد أنها قادرة على إعالة نفسها، وتقوم بمواساة نفسها مرات عديدة.

بعد مرض جياشـين، أصبحت ابنتي فينغ شيا مرهقة بشكل أكبر، حيث تضطلع بالأعمال الزراعية كلها، كما تضطلع بالكثير من الشـؤون المنزلية، ومن حسـن الطالع أنها في ريعان شبابها، وتشعر بالتعب طوال النهار حتى المساء، وتتحلى بالقوة والحيوية عندما تأوي إلى فراشـها. وبدأ ابني يوي تشـينغ القيام ببعض الأعمـال في قطعة أرض للارتفاق الخاص، وفي أصيل ذات يوم عندمـا انتهيت من العمل اليومي وأنا راجع إلى البيت، سـمعت يوي تشـينغ يناديني في وسط الزراعات في تلك قطعة الأرض،

فعرجـــت عليه. تحســـس هذا الطفل مقبـــض المعزقة، وأخفض رأسه، وقال:

«تعلمت كلمات كثيرة».

قلت:

«رائع».

يرفع رأسه ويرمقني بنظرة، ويقول أيضا:

«هذه الكلمات تكفيني طوال حياتي».

أفكـــر أن هذا الطفل يتكلم كلاما كبيرا، كما لا يكترث بمغزى كلامه، وقلت كما يحلو لي:

«كما يجب عليك أن تتعلم بجد واجتهاد».

ويتكلم وقتئذ كلاما حقيقيا فعلا، ويقول:

«لا أحترم الذهاب إلى المدرسة».

يتدلى وجهي بمجرد أن سمعت كلامه، وأقول:

«مستحيل».

في الواقع، إنني جعلت يوي تشينغ يترك المدرسة، وفكرت في ذلك مليا، ثم تخليت عن هذه الفكرة من أجل جياشـــين، وإذا لم يذهب يوي تشينغ إلى المدرسة فستشعر جياشين أن مرضها زاد من متاعب ابنها. قلت لابني يوي تشينغ:

«إذا لم تتعلم بجد واجتهاد فسوف أذبحك».

شـــعرت بالندم بعد أن أخبرته بذلك، وأنه عليه أن يذهب إلى المدرسة من أجل أسرتنا. هذا الطفل يبلغ اثني عشر عاما ويفهم جيـــدا حقيقة الأمور، مما جعلني ســـعيدا وحزينا في آن واحد، وفكرت طويلا. لا أســـتطيع أن أضربه وأســـبه مـــرة أخرى كما يحلو لي، ودلفـــت إلى المدينة في ذاك اليوم لأبيع الحطب، وبعد

البيع أنفقت خمسة فين (فلوس) من أجل شراء خمس قطع من السكاكر لابني يوي تشينغ، وكانت هذه المرة الأولى التي أشتري فيها شيئا لابني باعتباري أباه، وشعرت أنه يجب علي أن أحبه؛ أحبه من أعماقي.

دخلت المدرسة حاملا الشيالة فارغة. تضم المدرسة صفين من الغرف، والأطفال يقرؤون ويثرثرون، واقتربت من الفصل حتى أرى يوي تشينغ. يجلس يوي تشينغ في الصف الأخير، والمُعلمة تقف أمام السبورة وتشرح لهم الدرس، وأنا أقف أمام النافذة، رأيت يوي تشينغ، وشعرت بالغضب بمجرد رؤيته؛ إن هذا الطفل لا يدرس باجتهاد، ويمسك شيئا ما في يده ويقذفه فوق رأس طفل آخر، ومن أجل تعليمه أرسلنا أخته فينغ شيا لأناس آخرين يتبنونها، وتفاقم مرض أمه جياشين، ولم نجعله يترك المدرسة، وهو يهرول إلى الفصل ضاحكا ويلهو هناك. الغضب يملأ أقطار نفسي آنذاك، لدرجة أنني لم أهتم بشيء، ووضعت عصا الشيالة، واندفعت داخل الفصل، وصفعت يوي تشينغ على وجهه، ولم يشعر بوجودي إلا عندما صفعته. ارتعش وبهت لون وجهه، فقلت:

«جعلتني أستشيط غضبا».

يدوّي صوتي، ويرتعد يوي تشينغ، وأصفعه مرة أخرى، ويتراجع وينكمش من شدة الخوف.

في ذلك الحين، تتقدم تلك المعلمة نحوي وتسألني بغضب شديد:

«أي إنسان أنت؟ هذه مدرسة، وليست قرية».

أقول:

«أنا أبوه».

تسيطر علي ســورة غضب، ويصبح صوتي عاليا جدا، وتلك المُعلمة في ذروة غضبها أيضا، وتشحذ حنجرتها، وتقول:

«انصرف، أنت لا تشبه الأب، وأرى أنك تشبه الفاشيّة، تشبه حزب الكومنتانغ».

إن يوي تشينغ لا يتعلم باجتهاد، إنه تربى على يد مُعلمة تسبّ وتلعن الناس، فقلت:

«أنت تنتمين لحزب الكومنتانغ، وزيــت الكومنتانغ، إذن، أنتِ تشبهين هذا الحزب تلعنين الناس».

تفتح تلك المُعلمة ثغرها، ولا تنطق بحرف، بيد أنها انخرطت في البــكاء، يحضر المُعلم فــي الفصل المجاور ويســحبني إلى الخـــارج، ويحاصرني نفرٌ من المعلمــين، ويتحدثون معي في آن واحد؛ لم أســمع بوضوح جملة واحدة مــن كلامهم. بعد ذلك، جاءت مُعلمة أخرى، وســمعتهم يقولون إنها مديرة المدرسة التي بدورها سألتني لماذا أضرب يوي تشينغ؟ وشرحت لها هذا الأمر مــن أوله إلى آخره من تبنــي الآخرين لأخته فينغ شــيا، وبعد مرض أمه الشــديد لم نجعله يترك المدرســة، وبعد أن سمعت كلامي، قالت المديرة للمعلمين الآخرين:

«اتركوه ليعود إلى بيته».

رأيت نوافذ الفصول تغص بالــرؤوس الصغيرة التي تتفرج علــى الجلبــة التــي أحدثتها، وذلــك عندما حملت الشــيالة وانصرفت، وبالتأكيد جعلت ابني مجرما من جراء ذلك، وأكثر مــا جعله حزينا ليس ضربي، بل فضح أمره على الملأ أمام ثُلة من المعلمين وزملائه في الدراسة، ورجعت إلى دارنا، والغضب مازال يغلي في صدري، وأخبرت جياشــين بما حدث، وبعد أن

سمعت كلامي وبّختني، وقالت:

«أنت كيف تريد أن تجعل ابنك إنسانا قويما في المدرسة وتتصرف على هذا النحو؟».

انخرطت في تفكير عميق بعد توبيخ زوجتي، وشعرت بأن تصرفاتي كانت مفرطة إلى حدٍ ما، ولم أفقد ماء وجهي فحسب، بل الأدهى من ذلك، أن ابني فقد ماء وجهه أيضا. وفي ظهيرة ذاك اليوم، انتهى يوي تشينغ من دروسه ورجع إلى البيت. أناديه ولكن لم يعرّني اهتماما، وضع الحقيبة المدرسية، ثم دلف إلى الخارج، وتناديه أمه، وتتسمر قدماه لا يتحرك، وتدعوه أن يأتي إليها، يتقدم يوي تشينغ إلى جوار أمه، وترتعش رقبته صعودا وهبوطا من شدة بكائه من جراء الجرح الذي أصاب قلبه.

بعد انقضاء شهر ونيف فيما بعد، أصر فيه يوي تشينغ على عدم الاكتراث بي، مع أنه ينصاع وينجز كل ما أطلبه من أعمال في التو عدا تجاذب أطراف الحديث معي. هذا الطفل لا يقترف إثما أيضا، وجعلني لا أجد في جعبتي سببا أغضب منه بسببه.

أفكر مليا في الأمر وأشعر بأن تصرفي كان مفرطا، وما يعتمل في داخله جعلني حزينا للغاية. في الوقت الحاضر، يوي تشينغ مازال غريرا، وبعد مرور فترة من الزمن، كان يدخل الغرفة وينصرف، ورقبته لا تنتصب بصورة كاملة. وعلى الرغم من أنني أتحدث معه، بيد أنه ما زال لا يبدي استجابة، وأدرك مغزى الملامح التي تعلو وجهه، إنه ليس حاقدا، ويختلس النظر إليّ في بعض الأحايين، وأعرف ما يدور في ذهنه، ويشعر بالخجل أن يبدأ بالكلام معي على حين غرة لأننا لم نتحدث معا مذ فترة طويلة، وأنا لست في عجالة؛ إنه ابني ويجب عليه دائما أن يبدأ بالحديث معي.

بعـد تفكيك أوصال المطعم، لم يعد فـي جعبة أهالي القرية مدخرات، عاشوا أياما شاقة ومريرة، وفكرت أن أستل المدخرات الأخيـرة في بيتـي لابتياع حَمَـل. الغنم أكثر قـدرة على إعالة الإنسـان، ويتحلى بالقدرة أيضا على تسميد التربة، ناهيك عن جز صوفه فـي الربيع، وبيعه والحصول على النقود، وبالإضافة إلى ذلك، نشتري الحَمَل من أجل يوي تشينغ، وإذا اشتريت حَمَلا له، فهل يشعر بفرحة غامرة؟

تشـاورت مع زوجتي في هذا الموضوع، وشـعرت بالسـعادة أيضا، وقالت اذهب بسـرعة واشتر حَمَلا. وبعد الظهر في ذاك اليوم، وضعت النقود في صدري، وذهبت إلى المدينة واشـتريت الحَمَل من مكان يقع على ذاك الجانب من جسـر شـي قوانغفو بالمدينة. وفي طريق عودتي إلى البيت، يجتاز طريقي مدرسة يوي تشـينغ، وكنت أعتزم أصلا أن أدخل المدرسة وأجعل ابني يشعر بالسـعادة والبهجة، وقلبت الأمر فـي ذهني مرة أخرى، وقررت ألا أذهب إلى هناك، في المرة السـابقة شهدت المدرسة فضيحة ابنـي وجعلته يفقد ماء وجهه، وسيشـعر بالحزن بكل تأكيد إذا دخلت المدرسة مرة ثانية.

عندما سـحبت الحمل مغادرا المدينة، وقطعت الطريق حتى كادت عيني تسـتطيع رؤية مـكان بيتي، سـمعت خلفي زفرات وتنهـدات أحد الأشـخاص يهرول، ولـم ألتفـت لأرى مَنْ هو، وما لبث يوي تشينغ وراء ظهري يناديني قائلا:

«أبي، أبي».

تسـمرت قدماي، ورأيت يوي تشـينغ يهرول ووجهه تشـوبه الحمرة، ويتصبـب عرقا. هذا الطفل بمجرد أن رآني أسـحب

الحمل، نسي أنه لا يتحدث معي منذ وقت طويل، وهرول مسرعا أمامي وهو يلهث، ويقول:

«أبي، هل اشتريت هذا الحَمَل من أجلي؟».

أطأطئ رأسي وأضحك، وأعطيه حبل الحمل، وأقول له:

«خذ الحَمَل».

يأخذ يوي تشينغ الحبل، ويحتضن الحمل ويمشي عدة خطوات، ثم يضعه على الأرض، ويمسك القائمة الخلفية للحمل بإحكام، ويجلس القرفصاء ويفحصه، ويقول بعد أن انتهى من عملية الفحص:

«يا أبي، أنت اشتريت أنثى».

أضحك من أعماق قلبي، وأمد يدي وأمسك بقوة منكبه وأجده نحيفا وصغيرا، لا أعرف لماذا تألمت بمجرد أن وضعت يدي على كاهله. وعندما كنا نمشي ونعود سويا إلى دارنا، قلت:

«يا يوي تشينغ، أنت ستشب عن الطوق وتكبر رويدا رويدا، وأبوك لم يعد يضربك مرة أخرى في المستقبل، وإذا ضربك، لا يجعل الآخرين يرونك».

أخفضت رأسي بعد أن فرغت من كلامي، وحملقت في يوي تشينغ. رأس هذا الطفل مائلة، سمع كلامي، وشعر بالخجل من جراء ذلك خلاف ما كنت أتوقع.

في بيتنا شاة، يركض يوي تشينغ إلى المدرسة كل يوم، وبالإضافة إلى اضطلاعه بقطع الحشائش وإطعام الشاة، فإنه يقوم أيضا بالأعمال الكثيرة في قطعة الأرض ذات الارتفاق الخاص. لم يخطر ببالي أن هرولة يوي تشينغ ذهابا وإيابا، سوف تحقق إنجازا في نهاية المطاف، وفي ذاك اليوم الذي شهد

تنظيم المدرســة بالمدينة مســابقة رياضية، عرجت على المدينة لشــراء الخضار، وعند عودتي بعد الابتياع، شــاهدت حشــدا كبيرا من الأفراد على جانبي الشــارع، وسألت وعرفت أن هؤلاء الطلاب، الذين يشاركون في مسابقة العدو، سوف يركضون حول المدينة عشر دورات.

كانت المدينة تضم حينئذ مدرسة ثانوية، وفي ذلك العام، كان يوي تشــينغ يدرس في الطرقة الرابعة، والمدينة تشهد المسابقة الرياضيــة للمرة الأولــى التي يشــارك فيها تلاميذ المدرســة الإعدادية وأطفال المدرسة الابتدائية في العدو. وضعت الشيالة الفارغة على جانب الطريق آملا أن أرى إذا كان ابني يوي تشينغ من المشاركين في مسابقة العدو، وبعد فترة زمنية قصيرة، رأيت ثُلــة من الأطفال في المرحلة العمرية لابني تقريبا، يهز كل واحد منهم رأســه فرحا ويجري بســرعة، ناهيك عن طفلين ينكسان رأسيهما وخطواتهما متعثرة، ويبدو منظرهما أنهما غير قادرين على العدو.

لم أر ابني يوي تشــينغ إلا بعد أن مر المتســابقون يهرولون أمامــي. وكان هذا الصبــي حافي القدمــين، ويحمل فردتي الحــذاء في يده، ويهــرول ويلهث بقوة، وجــاء يهرول بمفرده. رأيته يهــرول وحيدا في المؤخرة، وأفكــر أن هذا الطفل ليس لديــه طموح فعلا، وفقدت مــاء وجهي تماما. ولكن الناس في جواري يشجعون ابني، وأصبحت مشوش الذهن، وما لبثت أن أصبحت شارد اللب، وتشــتت ذهني واضطربت نفسي عندما رأيت بضعة طلاب من المدرسة الإعدادية جاؤوا يهرولون، مما جعلني أكثر اضطرابا وبلبلة وتشوشا، وأفكر في مناحي نفسي

كيف تم تنظيم مسـابقة العدو هذه؟ وسـألت أحد المتفرجين بجواري:

«كيف أن الطلاب من ذوي السن الكبيرة لا يتفوقون في العدو على نظرائهم من ذوي السن الصغيرة؟».

يجيب قائلا:

«إن الأطفـال الذين جاؤوا مهرولين تـوا خلفوا وراء ظهرهم الطلاب الآخرين أثناء ركضهم في بضع دورات؟».

ما إن سمعت كلامه فكرت، أليس يتحدث عن ابني يوي تشينغ؟ إنها سـعادة غامرة لا يمكن وصفها بالكلمات، لقد تفوق ابني على الأطفال الأكبر منه بأربع أو خمس سنوات في العدو، وخلّفهم وراء ظهره فـي دورة الركض. ورأيت بأم عينـي ابني حافي القدمين، ويمسـك الحذاء في يده، والحمرة تعلو وجهه. وكان أول من ينهي عَدْو عشـر دورات. هذا الطفل بعد أن أتم عدوه، على العكس لم يلهث ويزفـر أبدا كأنه لم يركض، ويرفع أحد قدميه ويمسـحها في البنطال، وبعد أن يلبس حذاءه القماشـي، يرفع القدم الأخرى أيضا، ثم يعقد يديه خلف ظهره، ويقف مزهوا بنفسه كثيرا هناك، ويتفرج على الأطفال الذين هم أكبر منه كثيرا يعودون راكضين.

أشعر بالغبطة، وأنادي ابني:

«يا يوي تشينغ».

كما أشـعر بالزهـو والفخر عندما أحمل الشـيالة الفارغة؛ آملا أن يعرف المتفرجون أنني أبوه، وبمجرد أن رآني يوي تشينغ لا يشـعر أنه حر طليق في التو، ويسـبل يده بسـرعة من خلف ظهره، ويضعها أمامه، وأربّت على رأسه، وأقول بصوتٍ قوي:

«أنت الابن البار، أعطيتني مجدا وفخرا».

يرى يوي تشـــينغ صوتي عاليا هكذا، ويجيل بصره في عجالة في كافة البقاع؛ حيث لا يرغب في أن يراني أقرانه في المدرسة، ويناديه رجل سمين وقتئذ:

«شيوه يوي تشينغ».

يوي تشينغ يستدير جســـمه ويذهب إلى هناك، وهذا الطفل يعاملني ببرود. ويمشـــي بضع خطوات، ويدور رأسه إلى الخلف مرة أخرى، ويقول:

«مُعلمي يناديني».

أعرف أنه يخشـــى أن أصفي حســـابي معه عندما نعود إلى البيت، ثم ألوح له بيدي قائلا:

«اذهب، اذهب».

ذلـــك الرجل الضخم الجثة يده كبيـــرة جدا، ويضعها بإحكام فوق رأس يوي تشينغ، ومن ثم لا أرى رأس ابني، كأنما نمت راحة الكف فوق منكبه، يمشـــي ابني ومُعلمـــه وتربطهما الألفة والمودة إلى دكان صغير، وأرى ذلك الرجل السمين يشتري حلويات لابني الذي يمـــد يديه ويأخذها ويضعها في جيبـــه، ويحتفظ بإحدى يديـــه في جيبه، وأمارات الحمرة تعلو وجهـــه أثناء عودتنا؛ إنها حمرة الغبطة والسرور.

في مساء ذلك اليوم سألته مَنْ ذاك الرجل السمين؟ وأجاب قائلا:

«إنه مُعلمي، مُعلم التربية الرياضية».

ووصفته في جملة قائلا:

«إنه يشبه أباك».

يضع يوي تشـــينغ الحلويات التي اشتراها له الرجل السمين فوق الســـرير، ويوزعها أولا إلى ثلاثة أكـــوام، وبعد أن يفحصها

جيــدا، يأخذ من كل كومـــة من الكومين الآخريـــن قطعتين من الحلـــوى ويضعهما في كومة، ويفحص الأكوام الثلاثة مرة أخرى أيضـــا، ويأخــذ من كومة قطعتــين من الحلـــوى ويوزعهما على الكومين الآخرين. أدرك أنه يريد أن يعطي أخته فينغ شيا كوما، ويعطي أمه جياشـــين كوما، ويترك لنفسه كوما، أما أنا فليس لي نصيـــب في توزيعه للحلوى، ولا نـــدري أنه يخلط الأكوام الثلاثة معا، ويقســـمها إلى أربعة أكوام، ويقوم بعملية التوزيع والتقسيم مـــرارا وتكرارا، وفي نهاية المطاف، مـــازال الوضع كما هو ثلاثة أكوام فقط.

بعد انقضاء بضعة أيام، يوي تشينغ يصطحب مُعلم التربية الرياضيـــة ويزور دارنـــا، ويمتدح المُعلم الســـمين ابني مرة تلو الأخـــرى، ويقول إنه ســـيكون لاعبا رياضيا عندما يشـــب عن الطوق، ويســـافر إلى الخارج ويشارك في مســـابقة العدو مع الأجانب.

يجلس يوي تشينغ على عتبة الباب، ويبدو بالغ التأثر ويتصبب وجهه عرقا. وعندما قابلـــت مُعلم التربية الرياضية لم أجد في جعبتـــي كلمات أتجاذب معه الحديث، وبعـــد أن أنصرف ناديت يوي تشينغ الذي جال بخاطره أنني سوف أمتدحه أيضا، بيد أنه رأى عيوني تشع نورا وإشراقا، وقلت له:

«تغمرني الفرحة، لقد أثبت لي ولأمك ولأختك قدراتك. ولكن لم أسمع قط أن العداءَ يســـتطيع أن يكسب مالا ويوفر الطعام، أرســـلتك إلى المدرسة من أجل أن تتعلم بجد واجتهاد، وليس من أجـــل أن تتعلم العدو، وما فائدة أن تتعلم العدو؟ الدجاجة تعرف الركض!».

تتدلى رأس يوي تشـــينغ في الحـــال، ويترجل إلى أحد أركان الحجرة، ويأخذ السلة والمنجل، وسألته:

«أتتذكر كلامي؟».

يسير إلى المدخل، ويومئ برأسه، ويدير ظهره لي، ثم ينصرف إلى الخارج.

فـــي ذاك العام، وعندما كان الأرز لـــم يبلغ بعد؛ وحالما كبرت سنابل الأرز الخضراء، هطلت الأمطار بلا انقطاع زهاء أكثر من شـــهر، وعلى الرغم من أن الجو كان صحـــوا خلال تلك الفترة، ولكن الشـــمس لم تشـــرق يومين، ثم يصبح الجو ملبدا بالغيوم، وتهطـــل الأمطار مرة أخـــرى. ونرى المياه تتراكـــم في الحقول، ويرتفع مســـتوى مياه الأمطار، وتنزوي عيدان الأرز إلى أســـفل، وأخيـــرا المياه تطمر كميات كبيرة من الأرز. والعجائز في القرية يبكين، ويقولن:

«كيف نعيش في الأيام المقبلة؟».

بعض الناس الأكثر شـــبابا لا يستعظمون الأمر بعض الشيء، ويشعرون دائما أن الدولة تنقذنا، ويقولون:

«علام كل هذا القلق! السماء هي درب غير القانطين، ورئيس الفريق يذهب إلى المحافظة ويطلب الحبوب».

دلف رئيس الفريق إلى الكومونة الشـــعبية ثلاث مرات، وإلى المحافظـــة مرة واحدة، ورجع صفـــر اليدين، عاد وعلى ثغره ثمة الكلمات التالية فقط:

«يقول المحافظ إنه يُطمئن الجميع، ومادام أنه لم يمت جوعا، فالجميع لا يموتون جوعا أيضا».

وبعد هطول الأمطار لمدة شـــهر، اشتدت حرارة الجو بصورة

كبيرة على التوالي لبضعة أيام، وأصاب الأرز التلف في الحقول، وتهب الريح في المساء، وتجلب معها الرائحة الكريهة التي تشبه رائحــة الموت تقريبا. في الماضي، كان الجميع لا يزالون يتطلعون إلى تحويل قش الأرز إلى شــيء أكثر نفعا، والأرز بهذه الكميات الكبيرة لم يُحصد، وتعفن قش الأرز تماما، ولم يبق هناك شيء، ويقول رئيــس الفريق إن المحافظة ســتمدنا بالحبوب، ولكن لم ير أحــدٌ ثمة إمدادات مــن الحبوب، والأمور التي يتشــدق بها الفــم تجعل المرء لا يجرؤ أن يصدقهــا كلها، وعدم الصدق يقود للافتقار إلى الجــرأة أيضا، والذي لا يبغي أن يعيش هذه الأيام يفتقر إلى الثقة أيضا.

الجميع يحصــون حبات الأرز في القــدر، والحبوب المدخرة ليســت كثيــرة أيضا، ولا يجــرؤ أحدٌ على ســلق الأرز؛ الجميع يطبخون الحساء، بل حتى الحســاء بات نادرا أكثر فأكثر، إذن، وبعد انقضاء شــهرين أو ثلاثة شهور، إذا بقي المرء عاطلا تنفد ثروته ولو كانت جبلا من ذهب. تشاورت مع جياشين بأن نسحب الشــاة إلى المدينة ونبيعها، ونشــتري بثمنهــا أرزا، وفكرنا مليا في أن الشــاة يمكن بيعها ونشــتري أكثر من خمســة وخمسين كيلوجراما من الأرز، وعلى هذا النحو، نستطيع أن نطبخ الحساء إلى أن يحين ميقات موسم حصاد الأرز.

لم يشــعر أفراد أسرتي بالشــبع في تناول طعامهم منذ شهر أو شــهرين، بينما تلك الشاة مازالت سمينة، وعندما تثغو يدوي صوتهــا في الحظيرة كل يوم، وذلــك بفضل المجهود الذي يبذله يــوي تشــينغ، وهذا الطفــل يشــعر بالدوخة طــوال اليوم لأنه لا يشعر بالشبع، بيد أنه لم يقلل الحشائش التي يقطعها ويقدمها

لشاة ولو مرة واحدة؛ إنه يحبها كما يحب أمه جياشين.

بعد أن تشاورت مع جياشين، أخبرني يوي تشينغ بالحوار الذي دار بيننا، وفي ذلك الحين، انتهى يوي تشينغ توا من صب سلة الحشائش في الحظيرة، تأكل الشاة الحشائش وتصدر صوتا خشنا مدويا كأنما السماء تمطر، ويأخذ السلة الفارغة ويقف جانبا، ويضحك بهدوء وهو يرقبها وهي تأكل الحشائش.

لا يعرف يوي تشينغ أنني دلفت إلى الداخل، ووضعت يدي على منكبه، حتى أدار رأسه نحوي ونظر إليّ، وقال:

«إنها جائعة جدا».

قلت:

«يا يوي تشينغ، أبوك يريد أن يخبرك بأمر لديه».

يوافق يوي تشينغ، ويدير جسمه.

أردفت قائلا:

«الحبوب في بيتنا قليلة، وتشاورت مع أمك أن نبيع الشاة، ونشتري بثمنها بعضا من الأرز، لئلا ينهش الجوع أفراد أسرتنا».

ينكس يوي تشينغ رأسه ولم ينطق حرفا، هذا الطفل يعزّ عليه أن تفارقه تلك الشاة.

ربتُّ على كتفه قائلا:

«تحلَّ بالصبر حتى تتحسن أيامنا، وأشتري لك شاة من جديد».

يطأطئ يوي تشينغ رأسه، لقد كبر ونضج ويدرك الأمور بشكل أكبر عن ذي قبل، وإن كان يستعد ويثير الجلبة في الصباح خلال بضع سنوات خلت. وعندما نهمّ بالانصراف من حظيرة الغنم، يشد يوي تشينغ ملابسي، ويقول بصوت يثير الشفقة:

«يا أبي، من الأفضل ألا تبيع الشـــاة لأناس يذبحونها؟ أليس كذلك؟».

جال بخاطري: أتوجد أســـرة تربي شاة في تلك السنين؟ وإذا لـــم تُبع من أجل الذبـــح، فمن يبغي ابتياعهـــا؟ ورأيت وجه يوي تشينغ الذي تعلوه أمارات اليأس والقنوط هكذا، واضطررت إلى أن أومئ برأسي تلميحا بالموافقة.

في صبـــاح اليـــوم التالي، وضعـــت كيس الأرز علـــى كتفي، وسحبت الشاة من الحظيرة، وما كادت قدمي تقترب من مدخل القرية حتى ســـمعت زوجتي في الخلف تناديني، فأدرت رأســـي إلى الخلف، ورأيتها تمشي مع يوي تشينغ. تقول جياشين:

«يوي تشينغ يريد الذهاب معك».

أقول:

«أليس لديه دروس في المدرســـة يـــوم الأحد؟ وما الفائدة من الذهاب معي؟».

تجيب جياشين:

«دعه يذهب معك».

أعـــرف أن يوي تشـــينغ يبغي أن يبقى مع الشـــاة أطول فترة ممكنة، ويخشى أنني لا أوافق، وطلب من أمه أن تخبرني بذلك. وفكرت مادام يريد أن يذهب معي، فأســـتجيب لرغبته، ولوحت بيدي، وجاء مهرولا نحوي ويتســـلم حبل الشاة من يدي، وينكس رأسه ونمشي معا.

لـــم ينبس هذا الطفل ببنت شـــفة طول الطريـــق، ولكن تلك الشـــاة لم تكف عن الثغاء، ويســـحبها يوي تشينغ ويمشي، وهي تمد رأســـها بين الحين والآخر، وتصطدم بمؤخرته، فالشاة تعلم

بواطن الأمور أيضا؛ فهي تعرف أن يوي تشينغ يقطع الحشائش ويطعمها يوميا، وتربطهما علاقة حميمة، وكلما تبدو لطيفة وودودة، يشعر يوي تشينغ بالحزن، ويعض على شفتيه ويريد أن ينفجر باكيا.

أرى يوي تشينغ يخفض رأسه ويتقدم نحو الأمام بلا توقف، ومن الغريب أن قلبي لا يشعر بما يعتمل داخله، ورحت أبحث عن كلمات في جعبتي لمواساته، وقلت:

«بيع الشاة أفضل بكثير من ذبحها. أيتها الشاة: أنتِ حيوان وُلدتِ في هذه الحياة».

وصلنا إلى المدينة، وعندما كنا على وشك الاقتراب من منعطف، تسمرت أقدام يوي تشينغ، وراح يحملق في تلك الشاة قائلا:

«يا أبي، أنتظرك هنا».

عرفت أنه يرغب عن رؤية الشاة عند بيعها، وأعطاني الحبل من يده، فسحبتها، وتقدمت إلى الأمام، ومشيت بضع خطوات قليلة، وسمعته يناديني في الخلف:

«يا أبي، لقد وعدتني».

أدور رأسي وأسأله:

«بماذا وعدتك؟».

يوي تشينغ عجولا بعض الشيء يقول:

«وعدتني ألا تبيع الشاة لأناس يذبحونها».

نسيت حديث يوي تشينغ معي أمس، ومن حسن الطالع أنه ليس معي، وألا يبكي بالتأكيد فترة من الوقت. وقلت:

«أعرف».

أسحب الشاة وأنعطف متوجها إلى دكان الجزارة في المدينة. وفي الماضي، كان الدكان يغص باللحوم المعلقة، ولكن مع قدوم عام الكوارث لا ترى حتى مؤخرة الذبيحة، ويجلس في الداخل رجل متكاسل، أعطيت له الشاة، ولم تظهر ملامحه الكثير من السعادة، وترتعش يداه عندما نزين الشاة، ويقول:

«لا نعرف الشبع عندما نأكل، أنا خائر القوة».

حتى أهل الحضر لا يشبعون عندما يأكلون. قال إن دكانه لم يعلق اللحم منذ أكثر من عشرة أيام، ويشير بيده إلى الأمام حيث يوجد عمود كهرباء على بعد عشرين مترا ونيفا، ويقول:

«انتظر وترى في أقل من ساعة طابور ابتياع اللحم يصطف ويصل إلى ذاك الجانب».

كان كلامه صائبا، حيث اصطف أكثر من عشرة أشخاص في رتل هناك عندما هممت بالانصراف بعد الانتظار، كما يوجد طابور أمام دكان الأرز، وكنت أعتقد أصلا أنني أستطيع تبديل الشاة بأكثر من خمسة وخمسين كيلوجراما من الأرز، وكانت النتيجة أنني رجعت أدراجي حاملا على ظهري عشرين كيلوجراما فقط من الأرز، وعندما مررت أمام دكان صغير، أخرجت من جيبي فينين (فلسين) لشراء قطعتين من الحلوى الجامدة لابني يوي تشينغ؛ فقد تذكرت أنه ذاق المشاق والصعاب طوال عام كامل، ويجب أن يشعر بالسعادة.

عدت أدراجي إلى بيتي حاملا عشرين كيلوجراما من الأرز، ويوي تشينغ في ذلك المكان يذرعه جيئة وذهابا، ويركل حجرا صغيرا. أعطيته قطعتي الحلوى، وضع إحداهما في جيبه، وفض غلاف الأخرى، ووضعها في فمه، نمشي معا إلى الأمام، ويطوي

يوي تشينغ غلاف قطعة الحلوى طيا متناسقا في يده، ثم يرفع رأسه ويسألني:

«يا أبي، أأنت تأكلها؟».

أطأطئ رأسي قائلا:

«أنت تأكلها».

حملت على منكبي عشرين كيلوجراما من الأرز عائدا إلى دارنا، وعرفت جياشين مقدار الأرز عندما حملقت في كيس الأرز، وتنفست الصعداء، ولم تنطق بحرف. زوجتي جياشين هي الأكثر حزنا وكآبة، يوجد في بيتها أربعة أفواه، ماذا يأكلون كل يوم؟ وتشعر بالقلق وتعاني الأرق في مضجعها مساء، وتسير الأيام ظالعة عرجاء مرة أخرى، وليس أمامها سوى طبخ الحساء، وتحمل السلة كل يوم. وقد صدق تقرير الأطباء في مرضها، حيث تتدهور حالتها أكثر فأكثر، وتستطيع فقط السير متكئة على فرع شجرة، وتغص رأسها بحبات العرق إذا مشت أكثر من عشرين خطوة. الآخرون يجلسون القرفصاء، وينقبون عن بقول برية، أما هي فتجثو على الأرض، ويترنح جسمها عندما تنهض واقفة، ولا يتحمل قلبي رؤيتها، وقلت لها:

«لا تغادري البيت».

لم توافق على كلامي وتتكئ على غصن شجرة، وتسير خارج الغرفة، فأمسكتُ ذراعها بإحكام، وجذبتها بشدة، فسقطت على الأرض. تجلس جياشين على أديم الأرض وتجهش بالبكاء، وتقول:

«لم أمت بعد، وأنت تعتبرني ميتة».

لم يعد في جعبتي وسيلة للتعامل معها، إنها المرأة وطباعها

فــي الاضطلاع بــأي أمر، والتفوه بأي كلام، لــم أطلب منها أن تعمل وتشعر أني أجافيها.

لم تمض ثلاثة شــهور، وقد أكلنا معظم العشرين كيلوجراما من الأرز، وإذا لم تخطط جياشــين للعيش في تلك الأيام، ونأكل خليطا من بعض أوراق اليقطين، ولحاء الأشــجار وغيرها، فإن الأرز المتبقي لدينا لن يكفينا لمدة نصف شــهر. وفي ذلك الحين، البيوت في القرية خالية من الحبوب، كما أن البقول البرية نفدت من جــراء التنقيب عنهــا، وهناك بعض النــاس يقتلعون جذور الأشجار ويأكلونها. وقد زارنا رئيس فريق المحافظة عدة مرات، وعندما يعود إلى القرية وقبل أن يصل إلى مدخلها، يجلس على الأرض ويتنفس الصعداء، ويهرول نحوه بضعة أفراد يبحثون عن الطعام في الحقول، ويسألونه:

«يا رئيس الفريق، متى ترسل لنا المحافظة الحبوب؟».

يميل رئيس الفريق رأسه، ويقول:

«لا أستطيع المشي».

يــرى هؤلاء الأفــراد الذين يبحثون عن الطعــام في الخارج، ويقول لهم:

«لا تغــادروا ذاك المــكان، أهــل الحضر لا يجدون ما يســد رمقهم».

لا تزال جياشين تتكئ على غصن الشجرة طوال اليوم، وتخرج تبحث عن البقول البرية وهي تعلم جيدا أنها نفدت، ويتبعها ابنها يوي تشينغ الذي ينمو ويكبر حاليا، ولا توجد حبوب يأكلها وبات نحيفا مثل أنبوب البامبو، ولا يزال طفلا. جياشــين لا تســتطيع الســير من جراء مرضها، ومع ذلك تتجول في كافة البقاع بحثا

عن البقول البرية، ويسير وراءها يوي تشينغ ويقول لها دائما:

«يا أمي، الجوع ينهشني لدرجة أنني لا أستطيع السير».

تبحث جياشـين عن طعام لابنها فـي كل مكان، وتضطر لأن تقول له:

«يـا يوي تشـينغ، احتسِ بضع جرعات من المـاء حتى يمتلئ بطنك».

يوي تشينغ يستطيع فقط أن يدلف إلى حافة البركة ويشرب الماء ويملأ بطنه حتى يهدأ جوعه.

ابنتـي فينغ شـيا تتبعني وتحمل الفأس على كتفها، وتغشـى الحقول بحثـا عن بطاطا حلوة، ولا تعرف عـدد المرات التي تم فيهـا تقليب تلك الحقول، وعلـى كل حال، أهالي القرية يحملون الفـؤوس بحثا عن طعام، وفي بعض الأحايين يعملون طوال اليوم ويحصلون على بطيخة متعفنة. وفينغ شيا ميتة من الجوع أيضا، فقد بهت لونها، ويتدلى رأسها عندما ترفع الفأس. وهذه الطفلة لا تستطيع الكلام، ولكنها تعرف العمل فقط، وتتبعني أينما ذهبت، ولـم يرق لي ذلك، يجب أن أنفصل عنها، وننقب عن البطاطا كل على حدة، فالعمل جنبا إلى جنب ليس حلا للمشـكلة. لوّحت لها بيـدي أن تذهب إلى حقل آخر، ولا ندري أن انفصال فينغ شـيا والعمل بمفردها يعرّضها لما لم يخطر على بالنا.

تنقب فينغ شـيا عن البطاطا في الحقل مع شـخص يدعى وانغسـي من أبناء القرية، وهو ليس طالحا حقا؛ فعندما ألقي القبض عليّ وأصبحت مجندا قسريا، أخوض غمار الحرب، كان وانغسـي وأبوه يساعدان زوجتي دائما في إنجاز بعض الأعمال المهمة، ولكـن عندما يجوع المرء يتصرف تصرفا غير أخلاقي،

ومن الجلي أن فينغ شيا عثرت على حبة بطاطا، واستأسد عليها وانغسي لأنها بكماء، وسطا على تلك الحبة مستغلا انهماكها في مسح الطين الذي يلطخ وجهها بكم ملابسها. ومن خصالها أنها مؤدبة وخلوقة وهادئة في العادة، وعندما تعرضت للظلم عزفت عن العمل، واندفعت تسترد حبة البطاطا التي سُرقت منها. وانغسي ينفجر باكيا ويصرخ، ويرى الناس في الحقول المترامية، على الجانبين أن فينغ شيا تسطو على أغراضه، كما يصرخ وانغسي ويناديني بصوتٍ عال:

«يا فو قوي، الشخص القويم يجب أن يتحلى بالضمير ولا يسطو على أشياء الآخرين إذا نهشه الجوع مرة أخرى».

رأيت فينغ شيا تستجمع قواها وتفض أصابع وانغسي التي تقبض على حبة البطاطا، وهرولت إليها ونزعت يدها. كانت تذرف الدموع وهي غاضبة، وأشارت لي بيدها تخبرني بأن وانغسي سطا على حبة البطاطا التي عثرت عليها، وأدرك الآخرون هذه الواقعة بجلاء، ثم سألوا وانغسي:

«أأنت سطوت عليها؟ أم هي سرقت أغراضك؟».

يتظاهر وانغسي بأنه وقع عليه الظلم، ويقول:

«لقد رأيتم بأنفسكم أنها تسرقني على الملأ».

أقول:

«فينغ شيا ليست من الأشرار، ويعرف ذلك أهالي القرية، يا وانغسي، إذا كانت حبة البطاطا هذه ملكا لك حقا، فخذها وانصرف، وإذا لم تكن فأنت ستأكلها وتشعر بالألم في بطنك».

وانغسي يشير إلى فينغ شيا بإصبعه، ويقول:

«اطلب منها أن تقول بنفسها، من صاحب حبة البطاطا؟».

يعرف وانغسـي تماما أن فينغ شيا لا تستطيع الكلام، ويصر علـى أن يتفوه بذلـك، مما يجعلني أستشـيط غضبا، ويرتجف جسمي. تقف فينغ شـيا جانبا، وتفتح ثغرها، ولم تصدر صوتا، ولكن دموعها تتدفق، وألوح بيدي لوانغسي قائلا:

«إذا لم تخف من الصواعق أن تقتلك، فخذها وانصرف».

وانغسـي يقترف ذنبا يثقل ضميره، ولكن لا يشـعر بالخجل، ويمد رقبته، ويقول:

«طبعا آخذها وأنصرف لأنها ملك لي».

يتحـدث بمثل تلـك الكلمـات، ولا يخطر ببالنـا أن تلوح فينغ شـيا بالفأس نحو وانغسـي وتريد تحطيمـه، وكاد يفقد حياته حقا لو لم يصدر أحد الأشـخاص صوتا خائفا ويطلب منه الانزواء بعيدا. يرى وانغسي أن فينغ شيا تريد قتله، ويمد يده ويصفعها بقـوة. قوتها لا تضاهي قوته، إنها الصفعة التي جعلتها تهوي على الأرض، ويدوي ذلك الصوت الذي يشبه من يقفز في البركة، إنها الصفعة التي داهمت قلبي. اندفعتُ نحو وانغسي وسددت لكمة إلى رأسه الذي يتمايل ويترنح، وشعرت بالألم في يدي. وانغسي يعود إليه الوعي ويحمل الفأس ويتقدم نحوي ويريد أن يشـطرني نصفين، وبعـد أن ابتعدت عنه لوّح بالفأس أيضا.

لـولا تدخل أهالي القرية وحجـب كل على حدة، لكان هناك حياة مفقودة بالتأكيد، ثم يحضر رئيس الفريق، وبعد أن سمع ما دار بيننا، يسبنا قائلا:

«أيها الأوبـاش، أنتما تموتـان، اطلبا من أبويكمـا أن يبررا تصرفاتكما».

بعد أن ينتهي رئيس الفريق من سبابه، يقول:

«فينغ شيا ليست من الأشرار إطلاقا، ويقال إن أحدا لم ير السطو عليك أنت يا وانغسي، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فتقاسما حبة البطاطا».

يتحدث رئيس الفريق بكلماته، ويمد يده نحو وانغسي ويطلب منه أن يعطيه حبة البطاطا. يأخذ وانغسي حبة البطاطا بكلتا يديه، ويعزّ عليه أن يفارقها، ويقول رئيس الفريق:

«أعطني إياها».

وانغسي ليس أمامه مفر، يسلم حبة البطاطا لرئيس الفريق، وبدا وجهه حزينا مكتئبا، ويطلب رئيس الفريق من الناس الآخرين أن يحضروا المنجل، ويضع حبة البطاطا على الممر الترابي، لتقسم إلى نصفين. تنحرف يد رئيس الفريق، ويكون أحد النصفين كبيرا جدا، والنصف الآخر صغيرا جدا، فأقول:

«يا رئيس الفريق، ما الحل؟».

يجيب رئيس الفريق:

«الحل ليس سهلا أيضا».

حبة البطاطا قسمت مرة أخرى، ويقطع جزءا من النصف الكبير ويضعه في جيبه ويعتبره ملكا له. ويأخذ قطعتي البطاطا، ويعطيني قطعة، ووانغسي قطعة، ويقول:

«أحجامهما متساوية تقريبا، أليس كذلك؟».

في الواقع، أن قطعة من البطاطا لا تشبع أسرة جائعة، ويختلف تفكيري الآن عما كان يجول بخاطري في البداية، كنت أعتقد بادئ ذي بدء أن قش الأرز ينقذ الحياة فعلا، ونفدت مؤونة بيتي منذ شهر، كما نضب ما يمكن أن نأكله من الحقول

تقريبا، وتشهد تلك السنون أناسا يهبون حياتهم مقابل سلطانية طعام.

في اليوم التالي من الصراع مع وانغسي من أجل حبة البطاطا، تتكئ زوجتي جياشين على فرع الشجرة وتنصرف من مدخل القرية، رأيتها وأنا في الحقل، وسألتها أين تذهبين؟ تجيب قائلة: «أغشى المدينة لزيارة أبي».

الابنة تفكر في زيارة أبيها، وأريد أن أمنعها، ولكن لم أستطع، ورأيتها تمشي على الدرب بمشقة وعسر، وأقول:

«اطلبي من فينغ شيا أن تذهب معك، وتقوم بخدمتك على طول الطريق».

لم تقدم جياشين ردا بعد أن سمعت كلامي، وتقول:

«لا أريد لفينغ شيا أن تذهب معي».

في تلك الأيام، كانت زوجتي جياشين سريعة الغضب سواء تمت إثارتها أم لا، وليس في جعبتي ما أقوله، ورأيتها تتوجه نحو المدينة بخطوات وئيدة وبطيئة، لقد أصبحت نحيفة وجسمها خال من اللحم، وكانت ترتدي في الأصل ملابس محبوكة، باتت الآن فضفاضة وتتمايل في الريح يُمنة ويُسرة.

لا أعرف إذا كانت جياشين عرجت على المدينة بحثا عن طعام، ومكثت هناك يوما، ورجعت أدراجها عندما كان الأصيل على الأبواب. وكانت لا تستطيع السير أثناء عودتها. رأتها فينغ شيا أولا، ثم جذبت ملابسي، وأدارت جسمي حتى رأيت جياشين تقف فوق ذلك الطريق، وجسمها يتكئ على العكاز، وتلوح لي بيدها، وعندما ترفع ذراعها يبدو أن رأسها تسقط من كتفها.

التهمت الأرض التهاما حتى اقتربت منها، وجثا جسمها

بهدوء علـــى أديم الأرض، وتقبــض على العــكاز بيدها، وتقول بصوتٍ خفيض:

«يا فو قوي، تعال، تعال».

أمد يدي وأسندها حتى تنهض، وتمسك يدي بإحكام وتسحبها نحو لبان صدرها، وتتنهد قائلة:

تحسس بيدك، تحسس بيدك».

أمــد يدي وأدخلها فــي لبان صدرها وأتحســس، ويصيبني الذعر حيث لمست يدي كيسا صغيرا من الأرز، وأقول:

«لمست يدي الأرز».

تجهش جياشين بالبكاء، وتقول:

«أبي أعطاني كيسا من الأرز».

كان كيــس الأرز وقتئذ من الأطعمة النادرة الفاخرة حقا، حيث لم تتذوق الأسرة طعم الأرز لمدة شهر أو شهرين، ويُعد ذلك فرحة غامرة وســعادة قصوى، وتعجز الكلمات عن وصفها فعلا. طلبت من فينغ شــيا أن تســند أمها وتعود إلى البيت بســرعة، أما أنا فذهبت أبحث عن يوي تشينغ الذي كان ساعتئذ يمدد جسمه على مقربة من البركة، فقد شرب حتى ارتوى وشبع من مائها، وأناديه:

«يا يوي تشينغ، يا يوي تشينغ».

رقبة هذا الطفــل مائلة، ويرد وصوته خائــر القوة. أقول له بصوت خفيض:

«ارجع إلى البيت بسرعة، واشرب الحساء».

يوي تشــينغ بمجرد أن ســمع بأنه يوجد حســاء، انتابته قوة لا يعرف مصدرها، وجلس بصورة فجائية، وقال:

«هل أشرب حساء؟».

أرتجف رجفة، وأقول في عجالة:

«تمهلّ قليلا».

رجعت جياشين وهي تدس كيس الأرز في صدرها حتى لا تستطيع الأسر الأخرى أن تعرف ذلك إطلاقا. وعندما عادت أسرتي، أوصدت الباب وغرزت فيه خابورا خشبيا، وتخرج آنذاك جياشين كيس الأرز من صدرها، وتصب نصفه في القدر، وبعد أن تضيف إليه الماء، تشعل فينغ شيا نارا. وطلبت من يوي تشينغ أن يقف خلف الباب، ويرقب من شق الباب إذا جاء أحد من أهالي القرية. الماء يغلي، ورائحة الأرز تفوح وتغص بها الغرفة، ولا يستطيع يوي تشينغ أن يواصل الوقوف خلف الباب، ويهرول إلى القدر، ويقرّب أنفه ويشم، ويتلذذ بالشم، ويقول:

«آه، إنها رائحة ذكية».

أشده على يده، وأقول:

«اذهب إلى خلف الباب، وراقب الأحوال».

يستنشق هذا الطفل جرعتين من البخار الساخن حتى يعود إلى خلف الباب، وتضحك جياشين، وتقول:

«أخيرا، استطعت أن أقدم لكم وجبة طيبة».

تتفوه بتلك الكلمات وتذرف الدموع، وتقول:

«جمعت حبات ذلك الأرز من بين شقوق أسنان أبي».

في تلك الأثناء، يوجد أحد الأشخاص في الخارج، يتقدم إلى المدخل، وينادي:

«يا فو قوي».

أصابنا الفزع، وأثار ذلك غضبنا ولا نجرؤ على الخروج، ويقف يوي تشينغ هناك، ويحني ظهره ولا يتحرك البتة، أما

فينغ شـيا فكانت الوحيدة التي تضحك بهدوء، وتضيف الحطب إلى الموقد، ولم تسـمع شـيئا. أربّت على كتفها وأطلب منها أن تكون حركات يديها وقدميها خفيفة إلى حدٍ ما. ذلك الرجل في الخارج يتلصص السمع، ولم يسمع صوتا في الغرفة، ويقول وهو ليس مغتبطا جدا:

«المدخنـة تنفث الدخـان ويترفع عاليا، ولا يسـتجيب أحد لندائي في الداخل».

يبـدو أن ذلك الرجل انصرف بعد لحظة. يوي تشـينغ مازال خلـف الباب يرقب الوضع فـي الخارج فترة مـن الوقت، حتى يخبرنا بهدوء:

«انصرف ذلك الرجل».

تنفسـت الصعداء أنا وجياشين أخيرا، وبعد الانتهاء من طبخ الحساء، جلسنا نحن الأربعة أفراد الأسرة إلى الطاولة، نحتسي معا عصيدة الأرز التي تنفث البخار. لم تشهد حياتي أنني شربت عصيدة رائحتهـا فواحة كما كان في هذه المرة، ورائحتها جعلت لعابي يسـيل. يوي تشينغ يشرب بسرعة، وكان أول أفراد الأسرة الذي انتهى من احتساء العصيدة؛ حيث فتح فمه وتناول جرعات كبيـرة ومتتالية، وفمه غض ناعـم، ويصيبه الالتهاب، وتظهر به الكثير من الفقاعات الصغيرة، ثم شـعر بالألم بضعة أيام. وبعد أن انتهينا من الأكل، حضر رئيس الفريق ورفاقه.

لـم يتذوق أهالي القرية الأرز منذ شـهر أو شـهرين، ونحن أغلقنا بـاب دارنا، والمدخنة تنفث الدخـان في الخارج وقد رآه الجميع. حضر أحد الأشخاص توا ونادى أهل البيت ولم نستجب لندائـه، وراح يذيـع الخبر حتى جاء رهط من البشـر يتقدمهم

رئيـــس الفريق، يخمنون أن لدينا أطيـــب المأكولات، ويريدون أن يتذوقوا طعمها.

ترتجف أنف رئيس الفريق بمجرد أن يدخل الغرفة، ويسأل: «ماذا طبختم، ورائحته ذكية هكذا؟».

أضحك بصـــوتٍ عال ولم أنطق بحرف، والتزامي الصمت جعل رئيس الفريق يشـــعر بأنه ليس من اللائق أن يسأل مرة أخرى. جياشين تحييهم وتطلب منهم التفضل بالجلوس، وكان من بينهم بضعة من أصحاب الصفاقة؛ راحوا يكشفون غطاء القدر، ويرفعون الفراش المحشـــو بالقطن، ومن حسن الحظ أن جياشـــين تخفي الأرز الباقي في صدرها، ولا تخشـــى أن يفتشـــوا بصورة عشوائية. يشعر رئيس الفريق بعدم الارتياح، ويقول:

«ماذا تفعلون؟ أنتم في بيت أناس آخرين، انصرفوا، انصرفوا، أيها الأوغاد».

بعـــد أن يطردهـــم رئيـــس الفريق، يوصـــد الباب بنفســـه، ولا يحاول الاقتراب منا، بيد أنه يقرّب وجهه منا على حين غرة، ويقول:

«يا فو قوي، يا جياشين، أعطياني جرعة من طبخكم اللذيذ».

أحملـــق في وجه جياشـــين، وهـــي تحدق فـــي وجهي، ورئيس الفريق يعاملنا معاملة حسنة في العادة. والآن يطلب منا برجاء، ولا نستطيع أن نخذله، وتدس جياشين يدها في صدرها وتأخذ كيس الأرز الصغير وتمسكه بقوة، وتعطيه لرئيس الفريق، وتقول:

«يا رئيـــس الفريق، هذا كل ما لدينا مـــن الأرز، خذه واصنع قدرا من عصيدة الأرز».

يعقب رئيس الفريق قائلا:

«يكفي، يكفي».

رئيس الفريق يطلب من جياشين أن تضع الأرز في جيبه، ثم يقبض عليه بيديه، ويقهقه وينصرف. وتتدفق الدموع من مآقي جياشين بمجرد انصرافه، إنها تعشق الأرز، وأنا أستطيع فقط أن أتنهد وأرسل الزفرات مرارا وتكرارا، وأرى جياشين تنخرط في البكاء.

شهدت تلك الأيام طبخ الحساء حتى بعد حصاد الأرز، وعلى الرغم من قولنا الغلال شحيحة، ولكن أخيرا تتوفر الحبوب، وتتحسن الأيام كثيرا بصورة فجائية، ولا يدري أحد أن مرض جياشين تزداد حدته أكثر فأكثر، حتى أصبحت فيما بعد عاجزة عن السير، تمشي بضع خطوات فقط. إن سنوات الكوارث والنكبات أهانتها وجعلتها كئيبة. تشعر جياشين بعدم الرضا، وهي غير قادرة على العمل في الحقل، كما أنها تريد الاضطلاع بالشؤون المنزلية، وتستند على الحائط حتى تقوم بالتنظيف هنا، والكنس هناك، وذات يوم، سقطت على الأرض لا تستطيع النهوض، وتنتظر عودتي أنا وفينغ شيا بعد الانتهاء من العمل، ولا تزال راقدة على الأرض، ووجهها مهترئ، حضنتها ونقلتها إلى السرير، وتأخذ فينغ شيا المنشفة وتمسح وجهها الملطخ بالدم، وأقول:

«أنتِ فيما بعد استريحي على السرير».

تنكس رأسها، وتقول بصوتٍ خفيض:

«لا أستطيع النهوض من عثرتي».

جياشين عودها صلب، وحتى في تلك اللحظة لا تئن بالشكوى. وفي الأيام التي جلست خلالها على السرير، طلبت مني أن أضع

كل ملابسنا البالية على حافة السرير، وتقول:

«أشعر بالارتياح عندما أعمل».

جياشين تفك الخياطة، وتفصل ملابس لكل من يوي تشينغ وفينغ شيا، وبعد أن يرتديها الطفلان، تظهر أنها مازالت جديدة جدا أيضا. وعرفت فيما بعد أنها فضت خياطة ملابسها، ووجدتني غاضبا. وتتفجر في نوبة ضحك، وتقول:

«الملابس يصيبها الإهمال بسرعة إذا لم أرتدها، وقصدي أنني لا ألبسها، بل لا أستطيع تركها تتلف مثل حالتي».

تقول جياشين إنها تفصل ملابسي من أجلي، ومن يدري أن ملابسي لم يكتمل تفصيلها، وجياشين لا تستطيع حتى أن تخيط بالإبرة. تغط فينغ شيا ويوي تشينغ في سُبات عميق وقتئذ، ولا تزال جياشين تخيط الملابس تحت ضوء مصباح الكيروسين، وأمارات الإرهاق تعلو وجهها، وتتصبب عرقا، وأحثها على أن تأوي إلى الفراش بسرعة مرات عديدة، وتلهث من التعب وتومئ برأسها، وتقول أنتهي من الخياطة حالا، والنتيجة تسقط إبرة الحياكة على الأرض، وترتعش يدها وتحاول أن تلتقط الإبرة، تحاول مرات عديدة، ولكنها لم تفلح، وألتقطها أنا فأعطيها إياها، وتمسكها بإصبعيها، ولكن تسقط مرة أخرى، جياشين تهرق الدمع، إنها المرة الأولى التي تبكي فيها بعد أن أصابها الداء العضال، وتشعر أنها لم تعد قادرة على العمل، وتقول:

«أنا شخص عاجز، وأي آمال وطموحات عندي؟».

أكفكف دموعها بكم ملابسي، وتبرز عظام وجهها بعد أن باتت نحيفة، وأقول لقد أصابها الإعياء، ولا تتحمل ذلك حتى إذا

كانت من الأصحاء. وأقوم بمواساتها، وأقول إن فينغ شيا كبرت ونضجت، وتحرز نقاطا في العمل أكثر من ذي قبل، ولا داعي للقلق من أجل كسب أسباب العيش. وتقول جياشين:

«يوي تشينغ مازال غريرا».

في مساء ذاك اليوم، تتدفق دموعها بلا انقطاع، وتوصيني مرات عديدة، وتقول:

«لا تلف جثتي في كيسٍ من الخيش بعد موتي، كيس الخيش عقدته متينة ولا يمكن فكها في العالم الآخر، يكفي أن تلقي جثتي في قطعة قماش نظيفة، واغسل جثتي جيدا قبل دفنها».

وأردفت قائلة:

«فينغ شيا كبرت، وأموت مرتاحة البال إذا استطعنا أن نبحث لها عن أسرة الزوج، أما يوي تشينغ فمازال صغيرا، ولا يدرك بعض الأمور، ولا تضربه دائما، يكفي أن تخوّفه».

زوجتي جياشين تستطلع آفاق المستقبل وتقدم وصيتها. وبعد أن سمعت كلامها شعرت بالانقباض حينا، وبالألم حينا آخر، وقلت لها:

«حسب المنطق، أنا كنت سأموت مبكرا، وقد لقي كثيرون حتفهم عندما اندلعت الحرب، ولم أمت على الرغم من ذلك، وبالأحرى فإن الخالق أراد أن أظل حيا وأعود وأراكم، وأنتِ لا تندمي إذا تخليت عنا؟».

كان حديثي إلى جياشين مثمرا، ففي صباح اليوم التالي عندما نهضت من فراشي، وجدتها تحملق في وجهي، وتقول بصوتٍ خفيض:

«ياً فو قوي، لا أريد أن أموت، أحب أن أراكم كل يوم».

ظلت جياشـين طريحة الفـراش لبضعة أيـام، ولا تضطلع بأي شيء، وتسـتعيد بعضا من قوتها رويدا رويدا، وتستطيع أن تسـتند على يديها وتجلس، وشعرت بأن صحتها تحسنت كثيرا، كما غمرتها الفرحة وتبغـي أن تحاول النزول إلى الأرض، ولكن رفضت وقلت لها:

«لا يمكن أن تكوني فريسـة للإرهاق والإعياء مرة أخرى في المسـتقبل، ويجب عليك ادخار بعض مـن قوتك، فالأيام مازالت طويلة».

في ذاك العام، يوي تشـينغ في الفرقة الخامسة، ويقول المثل الشـعبي: «المصائب لا تأتي فرادى»، فجياشـين أصبح مريضة علـى هذا النحـو، ويحدوني الأمل بأن يكبر يوي تشـينغ، وهذا الطفل دراسـته ليسـت طيبة، وأفكر ألا أجبـره على الالتحاق بالمدرسة المتوسطة، وأتمهل حتى يتخرج في المدرسة الابتدائية، وأجعله يعمل معي في الحقل ويكسـب نقاط العمل. ومن يعرف أن صحة جياشين تحسـنت بعض الشيء توا، وربما يوي تشينغ يصيبه مكروه.

بعـد ظهـر ذلك اليوم، وعدمـا كانت زوجـة المحافظ، وهي مديرة مدرسة يوي تشينغ، تضع طفلها في المستشفى نزفت دما كثيرا، وحالتها حرجة، وكانت على وشـك أن تودع دنيانا. حشد معلمو المدرسـة طلاب الفرقة الخامسـة في الملعب في الحال، وطلبوا منهم الذهاب إلى المستشفى والتبرع بالدم، وعندما سمع هؤلاء الأطفال أنهم سـيتبرعون بالدم من أجل مديرة المدرسـة، غادروا بوابة المدرسـة. وابني يوي تشـينغ يخلع حذاءه ويمسكه فـي يده، ويهرول إلى المستشـفى ويرافقه أربعة أو خمسـة من

هؤلاء الأطفال، وكان ابني أول طفل يهرول ويصل إلى المستشفى، وينتظر سائر أقرانه، وبعد أن دخلوا هناك، جلس يوي تشينغ في الصف الأول، ولا يزال يشعر بالفخر، ويقول لمُعلمه:

«أنا أول طالب يصل إلى هنا».

كان مردود كلامــه أن المُعلم جره إلى الخارج ووبخه بقوة من جراء أنه لا يفهم القوانين واللوائح، فاضطر يوي تشينغ لأن يقف جانبا، ينظر إلى الأطفال وهم يفحصون فصيلة الدم تباعا، وبعد فحص دم أكثر من عشــرة أطفال، لم يحصلــوا على فصيلة دم تناســب نظيرتها لدى مديرة المدرسة. يوي تشينغ يرقب ما يدور حوله ويشــعر بالقلق إلى حدٍ ما، ويخشــى أن يكون الأخير في الدور، وربما لا يستطيع أن يتبرع بالدم وقتئذ، ويسير إلى مقدمة المُعلم، ويقول بصوتٍ ينم عن خجله أمام الغرباء:

«يا مُعلمي، لقد أخطأت».

يهمهم المُعلــم، ولا يكترث به مرة أخــرى، وينتظر حتى دخل طالبــان لفحص الدم، ويخرج آنــذاك الطبيب من غرفة التوليد يضع كمامة على فمه، ويخاطب الرجل الذي يفحص الدم قائلا:

«أين الدم؟ أين الدم؟».

يقول ذلك الرجل:

«فصائل الدم كلها غير مناسبة».

يصرخ الطبيب:

«أدخلوا الطلاب بســرعة لفحص الدم، نبضات قلب المريض تكاد تتوقف حالا».

يتقدم يوي تشينغ إلى أمام المُعلم مرة أخرى، ويسأله:

«لقد حان دوري، أليس كذلك؟».

يحدق المُعلم في وجه يوي تشينغ، ويلوح بيده، قائلا:

«ادخل».

فحص الدم يظهر أن فصيلة الدم لدى يوي تشينغ تتوافق مع فصيلة المريضة، ويشعر ابني بالغبطة وتحمر وجنتاه، ويهرول إلى المدخل، ويبلغ الجلساء في الخارج:

«سوف يسحب دمي».

سحب الدم يجب أن يكون قطرة قطرة، ولكنّ مسؤولي المستشفى سحبوا دم ابني بلا انقطاع من أجل إنقاذ حياة زوجة المحافظ. يسحبون الدم باستمرار، ويمتقع وجه ابني، ولا يزال منتصبا واقفا يئن بالشكوى، وبعد ذلك بهتت شفتاه أيضا، وارتجف قائلا:

«أصابني الدوار».

الرجل الذي يسحب الدم يقول له:

«سحب الدم يسبب الدوار».

أصبح يوي تشينغ في حالةٍ يُرثى لها ساعتئذ، ويخرج الطبيب ويقول الدم لا يكفي، والرجلُ الذي سحب الدم وغد وجبان، فهو يسحب دم ابني كله تقريبا، وتزرق شفتاه، ولا يزال يمد يده حتى مال رأسه وسقط على الأرض. ويشعر ذلك الرجل بالفزع، ويهرول ويستدعي الطبيب الذي يجلس على الأرض ويأخذ السماعة، ويجس النبض، ويقول:

«توقفت نبضات قلبه».

الطبيب لم يأخذ الأمر جديا، واكتفى أن يلعن الرجل الذي يسحب الدم قائلا:

«تصرفت تصرفا طائشا حقا».

ثم يهرول ويدخل غرفة التوليد حتى ينقذ زوجة المحافظ.

وقبـل أن ينتهي العمل في مسـاء ذلك اليوم، يهرول طفل من القرية المجاورة بسـرعة، وينتابه القلق، وهو زميل دراسة لابني، ويرفع عقيرته بالصياح أمامنا:

«مَنْ هو أبو شيوه يوي تشينغ؟».

تضطرب نبضات قلبي عندما سمعت صراخه، وأشعر بالقلق آنـذاك إذا كانت حياة يوي تشـينغ في خطر أم لا؟ ويصرخ ذلك الطفل مرة أخرى:

«مَنْ هي أمه؟».

أجيب بسرعة:

«أنا أبو يوي تشينغ».

يحملق ذاك الطفل في وجهي، ويمسح أذنه، ويقول:

«حسنا، اذهب فورا إلى فصلنا».

تتسارع نبضات قلبي، ويردف قائلا:

«شـيوه يوي تشـينغ يوشـك أن يقضي نحبه، إنـه يرقد في المستشفى الآن».

تبدو الدنيا في عيني حالكة السواد، وأسأل ذلك الطفل:

«ماذا تقول؟».

قال:

«أقول لك اذهب فورا إلى المستشفى، شيوه يوي تشينغ يوشك أن يفارق الحياة».

أرمي المعزقة وأهرول إلى المدينة، والقلق يسيطر على أقطار نفسـي. وأفكر مليـا في الأمر؛ كان يوي تشـينغ في حالة طيبة عندما ذهب إلى المدرسة في الظهر. والآن يقولون إنه يوشك على

الموت. رأسي مضطربة ومشوشة، أصرخ وأهرول إلى المستشفى في المدينة، وتمسك يدي بإحكام أول طبيب رأيته، وسألته:

«أين ابني؟».

يرمقني الطبيب بنظرة، ويقول مبتسما:

«كيف أعرف ابنك؟».

أصابني الفزع بعد أن سمعت كلامه، وجال بخاطري أن الطبيب لم يدرك مقصدي، وإذا كان الأمر كذلك، فلعله يبشر بالخير.

وقلت له:

«تقولون إن ابني يوشك على الموت، وطلبتم أن أحضر إلى المستشفى».

الطبيب يستعد للمغادرة، وتتسمر قدماه، ويحدق في وجهي، ويسألني:

«ما اسم ابنك؟».

أقول:

«اسمه يوي تشينغ».

يمد يده ويشير إلى غرفة في نهاية الممر، ويقول:

«اذهب إلى تلك الغرفة واسأل هناك».

أهرول إلى تلك الغرفة، يجلس داخلها طبيب يكتب، أدلف إلى الداخل وقلبي يقفز بين ضلوعي، وأسأله:

«أيها الطبيب، هل مازال ابني على قيد الحياة؟».

يرفع الطبيب رأسه، ويحدق في وجهي فترة طويلة، ثم يسألني:

«أأنت تسأل عن يوي تشينغ؟».

أطأطئ رأسي في عجالة، ويسألني الطبيب مرة أخرى:

«كم ابنا لديكم؟».

ترتخي ساقاي في التو، وأقف هناك ويرتجف جسمي كله، وأقول:

«عندي ابن واحد فقط، أتوسل إليك أن يحظى برعايتك واهتمامك، وتنقذ حياته».

يومئ الطبيب برأسه معربا عن تفهمه، ثم يسألني مرة أخرى:

«لماذا أنجبت ابنا واحدا فقط؟».

كيف أجيبك على سؤالك، وأنا في عجالة من أمري، وأسأله:

«هل ابني مازال على قيد الحياة؟».

يهز الطبيب رأسه قائلا:

«لقد مات».

لم أر الطبيب أمامي على حين غرة، وانطفأت الأنوار داخل رأسي، وأرى فقط الدموع تتدفق من عيوني، وبعد فترة طويلة سألت الطبيب:

«أين ابني؟».

يوي تشينغ يمدد جسمه بمفرده داخل غرفة صغيرة، والسرير داخلها من الطوب. وعندما دخلت كانت السماء مازالت مضيئة. رأيت يوي تشينغ وجسمه النحيل طريح الفراش، وهو نحيف، وصغير الجرم أيضا، ويرتدي أحدث الملابس التي فصلتها له أمه جياشين. ابني يغمض عينيه، كما يقفل فمه بإحكام شديد، وناديته باسمه مرات عديدة، بيد أنه لم يتحرك البتة، فعرفت أنه مات فعلا، وحضنته، واكتشفت أن جسمه مشدود وصلب، لقد كان لا يزال حيا عندما ذهب إلى المدرسة في الظهر، فكيف يصبح جسمه

صلبا في المســـاء، فكرت في الأمر مليا، ولـــم يهدني تفكيري إلى جواب، كيف يصبح ابني شــخصين؟ حملقت في وجه يوي تشينغ، وتحسســـت كتفه النحيل، إنه ابني حقا، فانخرطت في البكاء، ولم يخطـــر ببالي أن يحضر مُعلمه للتربية الرياضية، وســـالت دموعه عندما رأى يوي تشينغ، ويخاطبني مرة تلو الأخرى قائلا:

«لم يخطر ببالي، لم يخطر ببالي».

يجلـــس مُعلم التربيـــة الرياضية أمامي، ونحـــن الاثنان نبكي وجها لوجه، وأتحســـس وجهه يوي تشينغ، وهو يتحسسه أيضا. وبعـــد فترة طويلة، تذكرت فجأة أنني لم أعرف كيف مات ابني؟ وسألت مُعلم التربية الرياضية، وعرفت آنذاك أن سبب وفاته هو ســـحب دمه، سحب الدم أفضى إلى موته، وفي تلك الأثناء، أريد أن أقتل المســـؤول، وضعت ابني، واندفعت إلى الخارج بســـرعة، واقتحمـــت العنبر ورأيت طبيبا وأخـــذت بخناقه، ولم أكترث مَنْ يكـــون، ووجهت لكمة إلى وجهه، يســـقط الطبيـــب على الأرض ويصرخ بصوتٍ عال، وأصرخ في وجهه:

«أنت قتلت ابني».

أركل الطبيـــب بقدمي بعد أن فرغت من الصراخ، ويحتضنني أحد الأشخاص من الخلف، وأستدير برأسي، فأرى مُعلم التربية الرياضية، وأقول له:

«حرر يدي».

يقول مُعلم التربية الرياضية:

«لا يجوز أن تحدث جلبة».

أقول:

«أريد أن أقتل الطبيب المسؤول».

يحتضنني مُعلم التربية الرياضية بين ذراعيه، ولا أستطيع التخلص منه، ويبكي متوسلا لي قائلا:

«أعرف أنت تحب يوي تشينغ، وأطلب منك أن تنصرف من هنا».

لا يزال مُعلم التربية الرياضية يقبض عليّ بإحكام شديد، واضطررت أن أدفعه بمرفقي بكل ما أملك من قوة، ولا ترتخي يداه أبدا، ويجعل ذلك الطبيب ينهض ويفر هاربا. يلتف حولي عدد كبير من الأشخاص، ورأيت من بينهم طبيبين، وقلت لمُعلم التربية الرياضية:

«أرجوك، خلصني من قبضة يدك».

مُعلم التربية الرياضية قوي البنية، ويحاصرني بين ذراعيه، ولا أستطيع الحراك أبدا، وأدفعه بمرفقي بشدة، وهو لا يخشى الألم، ويقول مرة تلو الأخرى:

«لا يجوز أن تثير الفوضى».

في تلك الأثناء، يدخل رجل يرتدي سُترة بذلة صينية عسكرية تُشد بحزام، ويطلب من مُعلم التربية الرياضية أن يطلق يديه ويحررني، ويسألني:

«أأنت أبو التلميذ شيوه يوي تشينغ؟».

لم أعره اهتماما، ومُعلم التربية الرياضية يحررني من قبضة يده، وأنقض على ذلك الطبيب الذي يستدير بجسمه ويلوذ بالفرار. وسمعت شخصا ينادي ذلك الرجل الذي يرتدي البذلة الصينية التقليدية بأنه المحافظ. وتذكرت أنه فعلا ذاك المحافظ الذي سرقت زوجته حياة ابني، فرفعت قدمي حتى ركلت بطنه، المحافظ يئن من الألم ويجلس على الأرض. مُعلم

التربية الرياضية يقبض عليّ بذراعيه مرة أخرى، ويصرخ قائلا:
«إنه المحافظ ليو».
وأقول:
«أريد أن أقتل المحافظ».
أرفع ساقي وأريد الدوس عليه، ويسألني المحافظ فجأة:
«أأنت فو قوي؟».
أجيب:
«اليوم أقتلك بكل تأكيد».
ينهض المحافظ واقفا، ويصرخ في وجهي:
«يا فو قوي، أنا تشون شينغ».
ألجمتني الدهشة عندما سمعت صراخه، وحملقت فيه فترة طويلة، وكلما تفرست ملامحه أشعر بأنه يشبه تشون شينغ فعلا، وأقول:
«أنت تشون شينغ فعلا».
يتقدم تشون شينغ إلى الأمام، ويرمقني بنظرات فاحصة، ويقول:
«أنت فو قوي».
هدأت ثورة غضبي كثيرا عندما رأيته، وتدفقت دموعي، وقلت له:
«يا تشون شينغ، أنت كبرت وأصبحت طويل القامة وسمينا».
تشون شينغ تحمرّ عيناه، ويقول:
«يا فو قوي، كنت أعتقد أنك رحلت عن دنيانا».
أطأطئ رأسي، وأقول:
«لم أمت بعد».

يقول تشون شينغ أيضا:

«كنت أعتقد أنك فارقت هذه الدنيا مثل لاوتشوان».

نبكي نحن الاثنان بحرقة عندما تطرق حديثنا إلى لاوتشوان، نبكي فترة من الزمن، وأسأل تشون شينغ:

«هل عثرت على دابينغ؟».

يمسح تشون شينغ عينيه، ويقول:

«كلا، هـل مازلت تتذكره؟ لقد وقعت في الأسـر عندما كنت في الطريق إليه».

وسألته:

«هل أكلت خبز المانتو؟».

ويجيب:

«نعم، أكلت مانتو».

وأقول:

«وأنا أيضا».

نتجاذب أطراف الحديث ونضحك معا، ننخرط في الضحك والقهقهة، وأتذكر ابني الذي رحل عنا، وأمسح عيوني وأبكي مرة أخرى، يضع تشون شينغ يده على كتفي، فأقول:

«يا تشون شينغ، ابني مات، ابني الوحيد».

يتنهد تشون شينغ قائلا:

«كيف عاجلت المنية ابنك؟».

تذكرت أن يوي شـينغ مازال طريـح الفراش بمفرده في تلك الغرفة الصغيرة، وأشعر بألم شـديد لا يتحمله قلبي، وأخاطب تشون شينغ قائلا:

«أبغي الذهاب لرؤية ابني».

لا أفكر في قتل أي شـــخص آخر، ومـــن كان يتوقع أن يظهر تشون شينغ على حين غرة، ومشيت بضع خطوات، وأدرت رأسي إلى الخلف، وأخاطب تشون شينغ قائلا:

«يا تشـــون شـــينغ، أعطني حياة، وأكون مدينـــا لك، أعطني النصف الثاني من عمرك».

في مســـاء ذلك اليوم، حملت يوي تشـــينغ بين ذراعي وسرت عائدا إلى دارنا، أمشـــي حينا، وأتوقف حينـــا آخر، أتوقف تارة وأمشي تارة أخرى. وأحمل ابني على كتفي بعد أن شعرت ذراعي بالتعب، وأشـــعر بالارتباك والتوتر عندمـــا أضعه على كتفي، ثم أحملـــه بين ذراعي مجددا، ويكون أمام عيني، حيث لا أســـتطيع ألا أرى ابني. وعندما اقتربت من مدخل القرية، شعرت بالإعياء كلما مشـــيت على الطريـــق، وأفكر مليا كيـــف أعالج هذا الأمر مع زوجتي جياشـــين؟ لقد مات يوي تشـــينغ، وجياشين لا تعيش طويـــلا؛ لقد باتـــت مريضة على هذا النحو. جلســـت على الممر الترابي أمام مدخل القرية، ووضعت يوي تشـــينغ على ســـاقي، وأنـــا لا أتحمل رؤيتـــه، وأجهش بالبكاء، أبكي فتـــرة من الزمن، وأفكر من جديد، ماذا أفعل مع جياشـــين؟ فكرت مرارا وتكرارا، وارتأيت فـــي البداية أنه من الأفضـــل أن أخفي عنها خبر وفاة ابنها، وضعت يوي تشينغ على الممر الترابي، ورجعت إلى البيت، وأخذت المعزقة خلســـة، وحملت يوي تشـــينغ إلى أمام قبر أمي وأبي، وحفرت حفرة.

أريد دفن يوي تشـــينغ، ولكن نفســـي لا تتحمل دفنه وفراقه، وأجلس أمام قبر أبويّ، وأحمل ابني بين ذراعي، ويدي تتمســـك بـــه، وأجعل وجهه يلتصـــق برقبتي، ووجهه بـــارد جدا، ويضغط

على رقبتي ببـــرود. والريح في الليل تعصف بالأوراق في رؤوس الأشـــجار ويدوي حفيفها، والندى يبلل جثة يوي تشينغ. ويجول في ذهني مرارا وتكرارا صورة يوي تشينغ يهرول إلى المدرسة في الظهـــر، وتتأرجح خلفه الحقيبة المدرســية، وفكرت مليا أن يوي تشـــينغ لم يعد يتكلم مرة أخرى، لم يعـــد يحمل حذاءه ويهرول، وتتعاقب نوبات الحزن العميق في قلبي، وأصبحت كسير الفؤاد، وتجمدت الدموع في عيني. جلست وحالتي يرثى لها، وترى عيني انبلاج صفحة الســـماء، ويجب أن أدفن ابني؛ ونزعت ملابســـه، ومزقت الأكمام وغطيت عينيـــه، وواريت جثته بالملابس ودفنتها في الحفرة. وخاطبت قبر أبويّ قائلا:

«يوي تشـــينغ انضم لكما، عاملاه معاملة حســـنة إلى حدٍ ما، كنت أعامله بقســـوة في حياته، أنتمـــا تمنحانه الكثير من الحُب بالإنابة عني».

تتوارى جثة يوي تشـــينغ في ثرى الحفرة، ويبدو صغير الجرم كلما نظرت إليه، لم يبدُ أنه عاش ثلاثة عشر ربيعا، بل يظهر كأنما ولدته جياشـــين حالا. وأهيل التراب على جثته، وأجمع حصوات صغيرة وأغطي الحفرة وأخشى أن يؤلمه الحصى. وتضاء صفحة السماء رويدا رويدا بعد أن دفنت يوي تشينغ، ومشيت بخطوات وئيدة متوجها إلـــى داري، وتلفّتُّ إلى الخلف بعد بضع خطوات، وحالما مشـــيت إلى مدخل البيـــت، تذكرت أنني لم أعد أرى ابني مـــرة أخرى، ولم أتمالك نفســـي عن ذرف الدموع، وأخشـــى أن تسمع جياشـــين صوت بكائي أيضا، فكتمت فمي بيدي وجلست القرفصـــاء، جلســـت ردحا طويلا حتى ســـمعت صـــوت مناداة الذهـــاب إلى العمل، ونهضت واقفا آنـــذاك ودلفت إلى الغرفة.

تقف فينغ شيا بجوار الباب وتحملق في وجهي بعينين مفتوحتين، ولا تعــرف أن شــقيقها قد مات. وعندما جــاء ذلك الطفل من القرية المجاورة ويبلغنا نبأ الوفاة، كانت موجودة ولكنها لم تسمع.

جياشين ترقد في الفراش وتناديني، أتقدم نحوها، وأبلغها:

«يوي تشينغ أصابه مكروه، ويرقد الآن في المستشفى».

جياشين تصدق كلامي، وتسألني:

«ماذا أصابه؟».

أجيب:

«لا أعــرف بوضوح، عندما كان يوي تشــينغ يســمع الدرس، أصابته الدوخة فجأة وأُرســل إلى المستشــفى، وقال الطبيب إن علاجه يستغرق عدة أيام».

الحزن يخيم على جياشــين، وتســح الدموع من مُؤق عينها، وتقول:

«يوي تشينغ أصابه الإعياء، لقد أرهقته وأتعبته».

أقول:

«ليــس التعب، وحتى إذا كان الإرهاق هو الســبب، لا تتدهور صحته على هذا النحو».

تحملق جياشين في وجهي، وتقول أيضا:

«تورمت عيناك».

أومئ برأسي وأقول:

«أجل، لم أنم طوال الليل».

أنصرف من البيت بســرعة بعــد أن فرغت من الكلام، وجثة يوي تشــينغ توارت فــي الثرى توا، وعظامه ســاخنة، ومواصلة الحديث مع جياشين يجعلني أشعر أنني مضطرب الأعصاب.

حســب الأعمال المعتادة في الأيام المقبلــة؛ أعمل في الحقل نهارا، وعندما يأتي المســاء أخبر جياشين بأنني سأغشى المدينة للاطمئنان على أن صحة يوي تشــينغ تحســنت بعض الشــيء أم لا. أترجــل إلــى المدينة بخطــوات وئيدة حتــى تظلم الدنيا، وأرجــع أدراجي مرة أخرى، وعندما أصل إلى قبر يوي تشــينغ أجلــس أمامه. والليل يزداد حلكة، وتهب الريح وتعصف بوجهي، وأتجــاذب أطراف الحديث مع ابني فــي العالم الآخر، ويتهادى الصوت يمنة ويسرة ولا يشبه صوتي. جلست هناك حتى منتصف الليــل، ثم رجعــت إلى بيتي، وفي الأيام الأولية، كانت جياشــين تنتظر عودتي وعيناها ســاهرتان، وتسألني: هل تحسنت صحة يوي تشــينغ إلى حد ما؟ وأختلق بعض الأكاذيب لأخدعها. وبعد انقضــاء بضعة أيام، وعند عودتي كانت جياشــين تغط في نوم عميق، وتغمض عينيها وتتمدد على الفراش. وكنت أعرف أيضاً أن خداعها كثيرا هكذا لا يُعد حلا. أستطيع فقط التصرف على هذا المنوال، أخدعها يوما بعد يوم، مادامت تشعر أن يوي تشينغ مازال على قيد الحياة.

وفي مســاء ذات اليوم، غادرت قبر يوي تشــينغ، ورجعت إلى بيتي، وبعد أن مددت جســمي بجوار جياشين التي تغط في نوم عميق، وجدتها تقول بصورة فجائية:

«يا فو قوي، أيامي في هذه الدنيا ليست طويلة».

يغوص قلبي في أعماقي، وأتحســس وجههــا، فأجده يغص بالدموع. وتقول أيضا:

«ابنتي فينغ شــيا هــي أكثر ما يقلقني ويشــغل بالي، ويجب الاهتمام بها ورعايتها».

جياشـــين لم تذكر يوي تشـــينغ، وشـــعرت بالاضطراب فورا وقتئذ، وأريد أن أواسيها ببعض الكلمات، ولكن لم أنطق بحرف.

في أصيل اليوم التالي، مازلت كعادتي أخبر جياشـــين بأنني أعرج على المدينة لزيارة يوي تشينغ. ولكنها تمنعني من الذهاب إلـــى هنـــاك، وتطلب منـــي أن أحملها على ظهـــري لتتجول في القرية. وأطلب من فينغ شيا أن تحمل أمها بين ذراعيها وتضعها فوق ظهري. وتصبح جياشـــين خفيفة الوزن أكثر فأكثر، بعد أن أصابتها النحافة وباتت هيكلا عظميا. وبمجرد أن نغادر البيت، تقول:

«أريد التجوال في غرب القرية».

يدفن يوي تشـــينغ فـــي ذلك المكان، وأقول لها حســـنا، ولكن أقدامي لا ترغب في الذهاب إلى هناك. أمشـــي وأمشـــي حتى مدخل القرية الشرقي، وتقول جياشين آنذاك بصوتٍ خفيض:

«يا فو قوي، لا تخدعني، عرفت أن يوي تشينغ قد مات».

تتسمر أقدامي هناك، فأقف وأكفّ عن المشي عندما سمعت كلامها، كما بدأت أشعر بالتراخي في ساقيّ أيضا، ورقبتي يبللها الماء أكثر فأكثر، وعرفت أنها دموع جياشين التي تقول:

«دعني أذهب لرؤية ابني يوي تشينغ».

أدركت أن خداعها لا يســـتمر، وحملتها على ظهري، وتوجهت إلى غرب القرية، وهي تخبرني بصوتٍ منخفض:

«كل ليلة أســـمع أنك تأتي من غرب القرية، ومن ثم عرفت أن يوي تشينغ فارق دنيانا».

وصلنا إلى مقدمة قبر يوي تشـــينغ، فتنزل جياشين من فوق ظهري، وترتمي على القبر، وتتدفق دموعها كالنهر، وتضع يديها

على القبر كأنما تتحسس يوي تشينغ، وهي خائرة القوة حقا، وتحرك فقط عدة أصابع بهدوء، وأشعر بأنني مثقل الصدر عندما رأيتها في هذه الحالة المؤلمة، ولا يجوز حقا أن أدفن يوي تشينغ بمنأى عن الأنظار، ويجب أن أجعلها تلقي النظرة الأخيرة على ابنها.

ترتمي جياشين على قبر يوي تشينغ حتى الليل، وأخشى أن الندى في الليل يسبب لها ضيرا، فأستجمع قواي وأحملها على ظهري، ثم تطلب جياشين مني أن أحملها مرة أخرى إلى مدخل القرية، وتلقي نظرة على أحوال القرية، وعندما وصلنا هناك، كانت ملابسي مبللة تماما، وتنتحب جياشين وتبكي قائلة:

«يوي تشينغ لم يعد يهرول على هذا الطريق مرة أخرى».

ألقي نظرة على الطريق الصغير الملتوي المؤدي إلى المدينة، ولم أسمع صوت هرولة ابني حافي القدمين، وضوء القمر يسطع على الطريق كأنما يغص بالملح المنثور.

* * *

بعد الظهر في ذلك اليوم، مكثت باستمرار مع ذاك الرجل العجوز، وعندما كان يحتسي الماء هو والبقرة، ودلف إلى الحقل للحراثة، لم ينقطع حبل تفكيري أبدا، وجلست تحت الشجرة أحرسه مثل الحارس.

في ذلك الحين، تتهادى في الهواء الطلق باستمرار أحاديث المزارعين في الحقول من كل حدب وصوب، وكانت أكثر الأحاديث الحماسية تجري في مكان ليس بعيدا عن الممر الترابي، حيث رجلان يتمتعان بالبنية القوية يرفعان دلو الماء عاليا ويتسابقان في احتساء الماء، وبجوارهما شاب يحدث جلبة من الصياح والصراخ،

وكان بالــغ تأثرهما ناجما عــن أنهما في موضع لا يمت بصلة لما يجــري حولهما، وفو قــوي في هذا الجانب تعلــو وجهه أمارات موحشة ومقفرة جدا، وفي حقل الأرز بجواره توجد امرأتان تلفان رأسيهما بالمنديل وتغرسان شتلات الأرز، ودار نقاشهما عن أنني رجل غريب تماما، وهذا الرجل يبدو متين البنية، ومن المرجح أنه الرجل الأكثر كسبا للمال في القرية، وعرفت من حديثهما أنه في العادة يشــتغل بنقل البضائع في المدينة. تنهض إحداهما، وتدق بيدها على ظهرها، وسمعتها تقول:

«نصــف النقود التي يكســبها ينفقها علــى زوجته، والنصف الآخر يكون من نصيب نساء الآخرين».

يحمل فو قوي المحراث آنذاك، ويتقدم إلى جوارهما، ويحشر نفسه في حديثهما، ويقول:

«الشــخص القويم لا يســتطيع أن ينســى أربــع نقاط هي: إذا تكلم لا يجري لســانه بالخطأ، ولا يأوي إلى فراش الآخرين بالخطــأ، ولا تطــأ قدمــاه بالخطأ أعتــاب أبــواب الآخرين، ولا يتحسس بالخطأ جيوب الناس».

بعد أن يحمل فو قوي المحراث عائدا إلى حقله، يلتفت إليهما، ويقول:

«آه، هــو، نســي النقطة الثانيــة، يأوي إلى فــراش الآخرين بالخطأ».

هاتــان المرأتان تضحــكان في هدوء، وأرى فــو قوي مزهوا بنفســه، وينــادي البقرة بصوت عال، ويبتســم عندمــا يراني، ويخاطبني قائلا:

«يعُد ذلك كله حجة الرجل الشريف».

بعد ذلك، جلسنا معا تحت ظلال الأشجار الوارفة، وطلبت منه أن يستمر في سرد قصته، فيرمقني بنظرات تنم عن الامتنان كأنني أضطلع ببعض الأعمال من أجله، وتظهر على وجهه أمارات الفرحة والغبطة لأنه يحظى باهتمام الآخرين طوال حياته.

* * *

أعتقد أن موت يوي تشينغ له ما يبرره، وأن جياشين لا تعيش طويلا، وكنت أتأمل ملامحها فترة من الزمن وأشعر أنها حقا في حالة رثة، وترقد في الفراش تلهث وتزفر، وتبقى طوال اليوم بعينين نصف مغمضتين، وتعزف عن تناول الطعام، وكل مرة أسندها أنا وفينغ شيا، وتصر على أن نصب في فمها حساء العصيدة. وأصبح جسم جياشين خاليا تماما من اللحم، وعندما تسندها تشعر كأنك تسند كومة من الحطب.

رئيس الفريق زار دارنا مرتين، ويطأطئ رأسه دائما حالما يرى صحتها المتدهورة، وقد جذبني جانبا وقال بصوتٍ خفيض:

«أخشى أن جياشين لا تبرأ من مرضها».

غاص قلبي في أعماقي فعلا عندما سمعت كلامه، ورحل يوي تشينغ عنا منذ أقل من أسبوعين، ويبدو رحيل جياشين وشيكا أيضا. ويفقد بيتنا اثنين من أفراده، والأيام المقبلة نعيشها بمشقة وعسر حقا، مثل تحطيم نصف القِدر، فالقِدر لا يكون قِدرا، والأسرة لا تصبح أسرة أيضا.

رئيس الفريق يقول إنه يغشى مستشفى الكومونة، ويدعو الطبيب لتوقيع الكشف الطبي على جياشين، وكلامه نأخذه على محمل الجد حقا، فعندما عاد بعد عقد اجتماع في الكومونة، حضر بمرافقة ذلك الطبيب القصير النحيف، ويلبس نظارة،

وسألني عن المرض الذي أصاب جياشين، وقلت:

«مرض هشاشة العظام».

يطأطئ الطبيب رأســه، ويجلس على حافة الســرير، ويجس نبض جياشــين. أرى الطبيب يجس النبض تــارة، ويتحدث إلى جياشين تارة أخرى. تفتح جياشين عينيها عندما تسمع الطبيب يتحــدث إليها، ولكن لا تقدم جوابا. لا يدري الطبيب ماذا يفعل، حيث لم يعثر على نبض جياشين، وارتجف رجفة، ومد يده يقلب جفونهــا، ثم يقبض على معصمها بإحــدى يديه، ويجس نبضها باليد الأخرى، ويميل رأســه إلى أسفل حتى يسمع النبض، وبعد برهة، يقف الطبيب، ويخاطبني:

«النبض ضعيف، وتوقفه وشيك».

ثم يقول:

«استعد لما يترتب على ذلك».

كلمــات الطبيب المقتضبة تســتطيع أن تقضــي على نحبي. وكادت نفســي ســاعتئذ تهوي على الأرض، وأقتفي أثر خطوات الطبيب إلى خارج الغرفة، وأسأله:

«كم عاما تستطيع زوجتي أن تعيش؟».

يجيب الطبيب:

«أقل من شــهر، سترحل عن دنيانا قريبا بعد أن أصابها ذلك المرض فقد أصبح جسمها كله مشلولا».

أجلس بمفــردي خارج الغرفة حتى انبلاج نــور الصباح بعد أن آوت جياشــين وفينغ شــيا إلى الفراش في مساء ذاك اليوم. وفي البداية، أجهشــت بالبكاء، بكيــت فترة من الزمن، ثم بدأت أســتعرض في ذهني الأحداث الســابقة، أتذكر وأتذكر وتتدفق

دموعي، لقد مرت تلك الأيام بسرعة حقا، وجياشين لم تعش يوما جميلا بعد أن تزوجتها، وعندما تطرف عيني أتذكر عندما كانت على وشك الموت. وفيما بعد، انخرط تفكيري في البكاء والشعور بالحزن، ولا جدوى في ذلك، وعندما تتفاقم الأحوال كما هي في الوقت الحاضر، أضطر لأن أفكر في بعض الأشياء الواقعية ويجب أن أضطلع بالترتيبات في مرحلة ما بعد جياشين.

رئيس الفريق طيب القلب، يتأمل حالة جياشين المحزنة، ويقول:

«يا فو قوي، لا تيْئَس ولا تستعظم الأمور وإن عظمت، الإنسان مكتوب عليه الموت، والآن لا تفكر في أي شيء، ومادمت تستطيع أن تجعل جياشين تموت مرتاحة البال، فذلك شيء مُرضٍ، وتستقطع جزءا من أرض القرية وتجعلها قبرا لزوجتك جياشين.

في الواقع، بدأت أفكر بصورة صائبة آنذاك، وخاطبت رئيس الفريق قائلا:

«ترغب جياشين بأن تمكث مع يوي تشينغ سويا، ويجب دفنها ويكون قبرهما في مكان واحد».

يوي تشينغ المثير للشفقة كان كفنه قطعة من ملابسه، وجياشين لا يمكن أبدا دفنها على هذا النحو أيضا، ويجب أن نصنع لها تابوتا أيا كانت حالة الإملاق التي نعيشها في البيت، وذلك حتى لا أشعر بوخز الضمير عبر الأجيال. وفي مستهل حياتها، إذا تزوجت إنسانا آخر، ربما قد لا تذوق معي المرارة ألوانا وأشكالا، ولا تعاني من الإرهاق والإعياء هكذا حتى جعلها الموت قعيدة. ورحت أقترض من بيوت القرية أسرة تلو الأخرى، ولا أدري ما يعتمل في داخلي، ولا أتمالك نفسي، وتسح دموعي

كالنهر بمجرد أن أقول إنني أقترض مالا من أجل أن أصنع تابوتا لزوجتي. أهل القرية كلهم فقراء، والنقود التي أقترضها لا تكفي لعمل التابوت، وبعد ذلك قام رئيس الفريق بتجميع بعض الأموال العامة من القرية من أجلي، حتى استطعت دعوة نجار من القرية المجاورة لأن يحضر إلينا.

لا تعرف فينغ شيا أصلا أن موت أمها وشيك، وهرولت إلى حظيرة الغنم في القرية عندما رأتني بلا عمل، حيث يقوم النجار هناك بتصنيع التابوت. جلست هناك ردحا طويلا لدرجة أنني نسيت تناول الطعام. تناديني فينغ شيا، وتكرر النداء مرات عديدة حتى رأت بأم عينها شكل التابوت، وشعرت آنذاك ببعض الأمور، وتفتح عينيها وتكورهما وتقدم إشارات بيدها وتسألني، وأرى أنها يجب أن تعرف ما يحدث حولها، ولذا أخبرتها بما نستعد له.

هذه الطفلة تهز رأسها بأقصى ما تستطيع من قوة، وأدركت مقصدها ومغزاها، ثم أخبرتني بالإشارة إلى أن ذلك التابوت استعداد لرحيل أمها. لا تزال فينغ شيا تطأطئ رأسها، وتسحب يدي ونتوجه نحو بيتنا، وبعد أن دخلت البيت، لا تزال تشد كُم ملابسي، وتدفع أمها جياشين التي تفتح عينها. ابنتي فينغ شيا تهز ذراعي بكل قوة، وتجعلني أرى أن جياشين مازالت على قيد الحياة، ثم تمد يدها اليمنى إلى أسفل، وتطلب مني تفكيك أجزاء التابوت.

لم يخطر على بال ابنتي أبدا أن أمها ستموت، وأخبرتني بذلك على هذا النحو، فهي لا تصدق ذلك، وأحدق في منظرها، وأضطر لأن أنكس رأسي ولا أقوم بأية إشارة.

رقدت جياشـين في الفراش عشـرين يوما ونيفا، وأصبحت تشـعر بأن صحتها تتحسـن إلى حد ما تارة، وتارة أخرى تشعر بـأن رحيلها بات وشـيكا. وفيما بعد، وذات مسـاء، كنت أمدد جسـمي بجوارها، وعندما كنت أسـتعد لإطفاء المصباح، ترفع جياشـين ذراعها على حين غرة وتشـدني بقـوة وتطلب مني لا أطفئ المصباح، وكان صوتها ضعيفا مثل البعوض، وطلبت مني أن أجعلها تنام على جنبها. في ذلك المسـاء، زوجتي تسلط نظراتها عليّ مرة تلو الأخرى، وتناديني مرات عديدة:

«يا فو قوي».

بعـد ذلك، تضحك وتقهقه، وتغمض عينها، وبعد برهة، تفتح عينيها مرة أخرى، وتسألني:

«هل نامت فينغ شيا؟».

أنهض من مكاني، وألقي نظرة على فينغ شيا، وأقول لها:

«أجل، فينغ شيا نامت».

في ذلك المسـاء، تتحدث جياشـين بالكلمـات العذبة الحلوة باسـتمرار، حتى شعرت بالتعب وسقطت في النوم. أما أنا فكان الأرق مـن نصيبي، وكنت مضطربا حائرا، منظر جياشـين على هـذا النحو يوحي بأنها تحسـنت كثيرا، ولكن أخشـى دائما أن ينطبـق عليها ما يقوله الناس دائما إنها آخر ومضة من ومضات الحياة. ويدي فوق جسـمها تتحسسـه مرارا وتكرارا، ولا يزال ساخنا، فتطمئن نفسي قليلا.

عندما نهضت من فراشـي في اليوم التالي، كانت جياشـين لا تـزال نائمة. وتذكرت أنها آوت إلى فراشـها في وقت متأخر من مسـاء أمس، ولذا لم أوقظها، وتحتسي فينغ شيا بعضا من

العصيدة وتغشى الحقل للعمل. انتهينا من العمل مبكرا في ذلك اليوم، وعندما رجعت أنا وفينغ شـيا إلى البيت، ارتجفت رجفة، حيث تجلس جياشـين على السرير على غير المتوقع، إنها تجلس على الســرير بنفسها دون أن يسندها أحد، وعندما ترانا ندلف إلى داخل البيت، تقول بصوتٍ خفيض:

«يا فو قوي، أنا جائعة، اطبخ لي قليلا من العصيدة».

وقفت مدهوشـا ردحا طويلا آنذاك، ولم يدر بخلدي أبدا أن جياشين يمكن أن تنهض من كبوتها، وتناديني، وقد عادت روحي إلى نفسي حالا، وتتدفق دموعي، ونسيت أن فينغ شيا لا تسمع، وأخاطبها قائلا:

«كل شيء يعتمد عليك، الجميع يعول عليك، أرى فيما أرى أن أمك لا تموت».

من فأل الخير أن المريض يطلب طعاما، وبعد فترة من الزمن، تجلس جياشين على الفراش وتستطيع الاضطلاع ببعض أعمال الخياطـة، ومضت قدما فـي القيام بتلك الأعمـال، وليس في جعبتهـا مهلة زمنية تسـتطيع بعدها أن تغادر الفراش وتمشـي علـى الأرض، وقلبي الذي في قبضـة يدي يمكن دائما أن يكون مطمئنـا، وما إن شـعرت بالارتياح حتى سـقطت مريضا. في الحقيقـة فإن ذلك المرض أصابني منذ زمـن بعيد، وبعد رحيل يوي تشـينغ، ظلت ملامح جياشـين تنذر بموتها الوشـيك، وأنا لا أهتم بمرضي ولا أشـعر به. وتتعافى جياشـين رويدا رويدا، ولم تجعل توقعات الطبيب، في تشخيص حالتها تتحقق، وتصيبني الدوخـة أكثر فأكثر، وذات يوم عندما كنت أقوم بغرس شـتلات الأرز، أصابني الدوار وسقطت على الأرض، وحملوني إلى البيت،

وعرفت أنني مريض حقا وقتئذ.

ذاقت فينغ شيا طعم العذاب بعد أن سقطتُ مريضا، وأصبح هناك مريضان يحتضنهما الفراش، تقوم على خدمتهما، بالإضافة إلى أنها تذهب للعمل في الحقل وتكسب نقاط العمل. وبعد انقضاء بضعة أيام، اكتشفت أنها تعاني من الإعياء الشديد حقا، وتحدثت مع جياشين كثيرا في هذا الموضوع، وطلبت منها أن تقطرني للعمل في الحقل، والدهشة ألجمت أهالي القرية عندما شاهدوني، ويقولون:

«يا فو قوي، الشيب غزا شعرك كله».

وأقول مبتسما:

«كما كان في الماضي».

يقولون:

«في الماضي كان نصف شعرك أسود، ولكن أصبح شعرك كله أبيض في الأيام القليلة الماضية».

في تلك الأيام أصبحت عجوزا بشكل أكبر، ولم أسترد قوتي كما كانت في السابق، وعندما أشتغل أشعر بالألم في خاصرتي وظهري، وعندما أنجز الأعمال بسرعة يتصبب العرق من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي.

بعد انقضاء شهر ونيف على رحيل يوي تشينغ، حضر تشون شينغ. وتشون شينغ ليس اسمه هكذا، بل يُطلق عليه (ليو جيه فنغ)، وعندما يراه الآخرون ينادونه بالمحافظ ليو، ولكن أنا مازلت أناديه تشون شينغ. وأخبرني تشون شينغ بأنه بعد أن وقع في الأسر، عمل في جيش التحرير حتى هوت مقاطعة فوجيان، وبعد ذلك شارك في الحرب الكورية (عام 1953). وكان تشون شينغ

طويل العمر، فقد شـــارك في تلك الحروب ولــم يقتل. وعندما وضعت الحرب الكورية أوزارها، انتقل إلى محافظة مجاورة على وجه الخصوص، وحضر إلى محافظتنا في ذلك العام الذي شهد رحيل يوي تشينغ عن دنيانا.

وعندما غشـــي تشون شـــينغ دارنا، كنا جميعا هناك، ورئيس الفريق لم يصل إلى المدخل بعد ويصيح بصوتٍ عال قائلا:

«يا فو قوي، جاء المحافظ ليو لزيارتك».

تشون شـــينغ ورئيس الفريق يدلفان إلى الداخل، وتخاطبني جياشين قائلة:

«إنه تشون شينغ، جاء تشون شينغ».

تتدفق دموع جياشـــين بمجرد أن ســـمعت أن تشون شينغ قد حضر إلينا، وتصرخ في وجهه، وتقول:

«اخرج من هنا».

تلجمني الدهشة على حين غرة، ورئيس الفريق يشعر بالقلق، ويخاطب جياشين:

«كيف تســـتطيعين أن تتحدثي بمثل تلك الكلمات مع المحافظ ليو».

جياشين لا تعيره اهتماما كبيرا، وتبكي وتصرخ:

«أعد إليّ ابني يوي تشينغ».

يهز تشون شينغ رأسه، ويخاطب جياشين قائلا:

«أهدي إليك مشاعري الودية».

يقدم تشون شـــينغ مبلغا من المال لجياشـــين التي لم تكترث بذلك، وتصرخ في وجهه:

«انصرف، اخرج من هنا».

يهرول رئيس الفريق إلى أمام جياشين، ويوقف تشون شينغ، ويقول:

«يا جياشين، أنتِ مشوشة الذهن حقا، وموت يوي تشينغ كان من جراء حادث مؤسف، والمحافظ ليو لم يسبب له ضيرا».

يدرك تشون شينغ أن جياشين ترغب عن أخذ النقود، ثم يقدمها لي، ويقول:

«يا فو قوي، أرجوك، خذ النقود».

لم أجرؤ أن آخذ النقود بعدما رأيت حالة جياشين المحزنة. وتشون شينغ يدس النقود في يدي، وتندفع نحوي نار غضب جياشين في الحال، وتصرخ قائلة:

«ابنك يستحق مئتي يوان صيني، أليس كذلك؟».

أعيد النقود بسرعة إلى يد تشون شينغ، وفي تلك المرة، وبعد أن قامت جياشين بطرد تشون شينغ، جاء إلينا مرتين أيضا، وتصر جياشين على عدم السماح له بالدخول. قلب المرأة عميق الغور، والمسائل التي تراها صحيحة لا يستطيع أحد أن يثنيها عن عزمها، وأقوم بتوديع تشون شينغ إلى مدخل القرية، وأقول له:

«تشون شينغ، لا تحضر مرة أخرى بعد ذلك».

يومئ تشون شينغ برأسه، وينصرف، وبعد أن انصرف في تلك المرة، لم يحضر لعدة سنوات، ولكنه حضر مرة ثانية عندما اندلعت الثورة الثقافية الكبرى (1966-1976).

تعج المدينة بالجلبة الناجمة عن الثورة الثقافية الكبرى، وتغص الشوارع بالبشر الذين يحدثون فوضى واضطرابات، ويتعاركون كل يومٍ، ويموت بعضهم، وأهالي القرية لا يجرؤون

على السفر إلى المدينة. والقرية أكثر هدوءا مقارنة بالمدينة، كما أنها لا تزال على عهدها السابق في المساء لا تنام نوما هادئا، حيث إن أهم وأحدث تعليمات الرئيس ماوتسي تونغ تأتي دائما في أعماق الليل، ورئيس الفريق يقف في ساحة التشميس وينفخ في البوق بإصرار، وينهض الجميع بسرعة بعد أن يسمعوا نداء البوق، ويهرولون إلى ساحة التشميس للاستماع إلى المذياع. رئيس الفريق يصيح هناك:

«يذهب الجميع إلى ساحة التشميس، الرئيس ماو يريد إلقاء توجيهات على المرؤوسين».

نحن من عامة الشعب، ولسنا لا نهتم بشؤون الدولة، ولكن لا نفهمها، وننصاع جميعا لرئيس الفريق، ورئيس الفريق ينصاع للسلطات العليا. ونحن نفكر وننجز الأعمال حسب أقوال السلطات العليا، ولا تزال ابنتي فينغ شيا هي أكثر ما يثير قلقي وقلق جياشين، فقد كبرت، ويجب أن نبحث لها عن أسرة الزوج. لقد شبت فينغ شيا عن الطوق، ويناهز عمرها الآن عنفوان شباب أمها، ولولا أنها تعرضت للمرض الداهم في الطفولة، لتمت خطوبتها في وقت مبكر وانتقلت بسلام إلى بيت العريس. تتضاءل قوتي أكثر فأكثر، ويبدو مرض جياشين أنه من المستحيل أن يبرأ تماما، ونحن في هذا العمر قد عاصرنا عددا غير قليل من الأحداث، ويجب أن يصبح المرء ناضجا أيضا مثل حبة الكمثرى التي نضجت على الشجرة، ويجب أن تسقط على الأرض. وعلى كل حال، لا نشعر بالاطمئنان بسبب فينغ شيا، فهي تختلف عن الآخرين، مَنْ يتولى رعايتها ويهتم بها عندما تصبح طاعنة في السن؟

حينما نقول فينغ شـيا نتذكر أنها صماء وبكماء، ناهيك عن أنها من الجنسِ الناعم، وتعرف جيدا أن الرجل يتزوج من الفتاة. وتشهد القرية في كل عام زواج فتيات ومغادرتهن القرية، وكذلك زواج فتيات ودخولهـن القرية، وتدوي دقات الطبول والصاجات فترة من الوقت، وفي ذلك الحين تقبض فينغ شـيا على المعزقة بإحكام وتحملق دائما ونظراتها شـاردة. وثُلة من شـباب القرية يلوحون لها بأيديهم ويضحكون منها.

عندمـا تزوج الأبنـاء الثلاثة في أسـرة وانـغ بالقرية، قال الجميع إن عرائسهم جميلة. وفي ذلك اليوم الذي استقبلت فيه القرية العرائس كن يرتدين السُتر المقطنة الفضفاضة الحمراء، ويضحكـن ضحكات مكبوتة بلا انقطـاع. وأنا في الحقل أحدق فـي وجوههـن، وأرى أنهن جميعهـن مثل إنسـان واحد تغمره الملابس الحمراء، ويضعن على وجوههـن البودرة الحمراء التي تسر الناظرين بصفة خاصة.

يأتـي العمال من الحقول مهرولين، والعرسـان يخرجون من جيوبهم سجائر ماركة الحصان الطائر، ويقدمونها هدية للرجال الطاعنين في السن، ونفر من الشباب يقف جانبا ويصيح قائلا:

«ونحن أيضا نريد سجائر، ونحن أيضا نريد سجائر».

يضحك العرسـان بهدوء ويخبئون السـجائر فـي جيوبهم، ويندفع الشباب لخطفها، ويصيحون:

«أنتم لا تعطون لنا حتى سيجارة، وقد تزوجتم هؤلاء الفتيات وجلبتموهنّ معكم إلى الفراش».

أحد العرسـان يحكم يده على جيبه بـكل قوة، وهم يصرون علـى نزع أصابعه، وبعد أن أخذوا السـجائر مـن جيبه، رفعها

أحدهم إلى أعلى، وهرول على الممر الترابي وتبعه أناس آخرون.

يلتف سائر الشباب حول العرائس، يفرحون ويمرحون، ويتفوهون بكلمات يندى لها الجبين بكل تأكيد، تنكس العرائس وجوههن وينخرطن في الضحك. وحالما يحين ميقات زواج الفتاة تشعر بالارتياح إزاء كل ما تراه، كما تشعر بالغبطة إزاء كل ما تسمعه.

تفلح فينغ شيا في الحقل، وعندما رأت ذلك المشهد وقفت مبهورة ومبهوتة أيضا، تحاول أن تفتح عينيها تباعا ولكنها لم تستطع، وتحمل المعزقة في حضنها ولا تتحرك قيد أنملة. أنا أقف جانبا وأرقب المشهد وقلبي يعتصر حزنا، وأفكر أن ابنتي تريد أن تتفرج عليه، وأتركها تحقق رغباتها بشكل أكبر. حياة فينغ شيا شاقة ومريرة، وليس لديها إلا سويعات ترى فيها الحظ السعيد للآخرين عندما يتزوجون. ولم يدر بخلد أحد أنها تنهمك في الفرجة وتتقدم إلى الأمام على غير المتوقع. تمشي حتى تصل إلى مقربة من العروس، وتضحك ببلاهة وتمشي معها، مما جعل ثُلة من الشباب ينخرطون في الضحك حتى ذقونهم، وترتدي ابنتي فينغ شيا ملابس تغص بالرقع وتمشي مع العروس؛ العروس ملابسها مهندمة ومتناسقة وزاهية الألوان، وجميلة الطلعة أيضا، ومقارنتها بابنتي تظهر الأخيرة بشكلها الدميم الذي يثير الشفقة، حيث لا تستخدم مساحيق التجميل، ولا تضع على وجهها البودرة الحمراء مثل العروس، وتلتفت دائما وتسلط عينيها على العروس.

ثُلة من شباب القرية يضحكون ويحدثون جلبة أيضا، ويقولون: «فينغ شيا تريد عريسا».

سـمعت باهتمام كل ما تفوه به الشباب، ثم بعد لحظة سمعت منهم ما يقزز الأذن، فأحد الأشخاص يخاطب العروس قائلا:

«فينغ شيا تستهوي فراشك».

تمشي فينغ شيا بجانب العروس التي تكتم ضحكتها، وتتجنب فينغ شـيا. وفي ذلك الحين، يخاطب أحد الأشـخاص العريس قائلا:

«أنت شـاب قوي قمت بتأهيل نفسك وتتزوج عروسين، وفي الفراش تفترش إحداهما تحتك، وتتغطى بالأخرى».

يضحـك العريس بهدوء بعد أن سـمع تلـك الكلمات، بينما العـروس لا تتحمل ذلك، ولا تكترث أنها يجب أن تتحلى بالحياء لأنها تزوجت حديثا، ويمتد عنقها دائما وتصرخ في وجه العريس:

«أنت تضحك على الإهانة، أيها الملعون».

في الحقيقة، لا تتحمل نفسي أن تشاهد ذلك المشهد المخزي، وأمشي على الممر الترابي، وأخاطب هؤلاء الشباب قائلا:

«الإنسان الشريف لا يستطيع أن يتصرف بهذه الوقاحة، وإذا أراد أن يستأسـد على الآخرين، فلا يمكن أن يستقوي على فينغ شيا، لأن ذلك يعني أنني أتعرض للظلم والاعتساف من جانبكم».

أسحب ابنتي فينغ شـيا متوجها إلى بيتي بعد أن فرغت من حديثي مع هؤلاء الشـباب. وتتمتع فينغ شيا بالذكاء وأدركت أن حادثا مؤسـفا وقع توا عندما حملقت في تعابير وجهي، وتنكس رأسها، وتسـير معي إلى بيتنا، وعندما وصلت إلى مدخل البيت تسيل دموعها بغزارة.

بعد ذلك، أتشاور مع زوجتي جياشين حول كيفية البحث عن عريس لابنتنا فينغ شـيا؛ لأننا سنموت قبلها، وبعد موتنا ودفن

جثثنا، يمضـــي بها دولاب الزمن وتصبح عجــوزا، وبعد موتها لا تجد أحــدا يدفنها. وهل هناك من يرغــب في الزواج منها حقا؟

جياشــين تطلب مني أن أذهب إلى رئيس الفريق، وأطلب منه أن يتكرم بمســاعدتنا، حيث يعرف أناســا كثرا، وتشجعني على البحــث عن عريــس يريد حقا أن يتزوج فينغ شــيا. تحدثت مع رئيس الفريق في هذا الشأن، وبعد أن سمع كلماتي، قال:

«بالتأكيد، فينغ شــيا يجب أن تتزوج، ولكن من الصعب العثور على الإنسان الطيب».

أقول:

«حتى لو كان رجلا بلا ذراع وســاقه مكســورة، فنحن نوافق مادام يبغي أن يتزوجها».

شــعرت بألم شــديد في صدري بعــد أن انتهيت من حديثي مــع رئيس الفريق، لأن ابنتي لا تتســم بأية ميزة يمكن مقارنتها بالآخرين، فهي بكماء. وناقشــت الموضوع مع زوجتي بعد عودتي إلى البيت، وتجلس على السرير فترة طويلة ولا تنبس ببنت شفة، وأخيرا ترسل الزفرات، وتقول:

«ابنتي تستطيع أن تكون في هذا الوضع الأليم بعد أن تفاقمت حالتها إلى يومنا هذا».

رئيس الفريق يعثر على عريس لابنتي بعد فترة ليست طويلة. وكنــت في ذاك اليوم في الحقل أبلل الروث، ويحضر إليّ رئيس الفريق، ويقول:

«يا فو قوي، وجدت أسرة زوج لابنتك، والزوج يقطن في مركز المحافظة، ويعمل حَمّالا، ويكسب نقودا كثيرة».

لا أصدق كلامه بعد أن اســتمعت إلى أحوال العريس الجيدة هكذا، وشعرت بأن رئيس الفريق يداعبني ويمزح معي، وقلت:

«يا رئيس الفريق، لا تخدعني».

يقول رئيس الفريق:

«لا أخدعك، واســمه (وان أرشــي)، ويعاني مــن ألم نصف الرأس، حيث رأسه تستند على كتفه، ولا يستطيع أن يرفعها».

صدقــت كلام رئيس الفريق عندما ذكر أن ذلك الرجل يعاني من الشقيقة، وقلت في عجالة:

«اطلب منه أن يحضر فورا ويرى فينغ شيا».

ينصــرف رئيس الفريق، وأرمي معزقة الــروث، وأهرول إلى بيتي، وقبل أن أدخل البيت أصيح قائلا:

«جياشين، جياشين».

تجلس جياشين على السرير وتعتقد أن حادثا مؤسفا قد وقع، وتحملق في وجهي بعينين مفتوحتين ومكورتين. وأقول:

«هناك عريس يتقدم للزواج من فينغ شيا».

تتنفس جياشين الصعداء آنذاك، وتقول:

«أفزعتني فزعا شديدا».

أقول:

«إنه من أهل الحضر، ولا تنقصه ســاق، وذراعاه لم يمسهما سوء».

أنخــرط في البكاء بعد أن فرغت من حديثي مع زوجتي التي بدورها تضحك أولا، ثم تســح دموعها أيضا عندما رأتني أبكي، وتشعر بالسعادة برهة، وتسألني:

«عريس أحواله جيدة هكذا، هل يبغي أن يتزوج فينغ شيا؟».

أجيب على سؤالها قائلا:

«ذلك الرجل يعاني من ألم نصف الرأس».

تشعر جياشين بالاطمئنان إلى حد ما وقتئذ، وتطلب مني في ذاك المســاء أن أحضر إليها بعض ملابسها القديمة حتى تفصل لباسا لفينغ شيا، وتقول:

«فينغ شــيا يجب أن تتهندم في أحســن ثيــاب حتى تحظى بالقبول من جانب العريس».

جاء إلينا وان أرشي في غضون أقل من ثلاثة أيام، وهو يعاني من ألم نصف الرأس حقا، وعندما رآني رفع كتفه اليســرى، كما رفع كتفيه نحو فينغ شــيا وجياشين، وتبتسم فينغ شيا ابتسامة عريضة بمجرد أن رأت منظره على هذا النحو.

يرتدي وان أرشــي سُــترة صينية تقليدية، نظيفة جدا، وقد يبدو منظــره حقا أنه من كوادر المدينة إذا لم تتكئ رأســه على كتفــه. يدخل بمصاحبة رئيس الفريــق، وفي يده زجاجة الخمر وقطعة قماش قطن مشــجر. جياشــين فوق السرير، ومشطت شعرها تمشيطا متناسقا، وملابسها بالية بعض الشيء، بيد أنها نظيفة جدا، ووضعت الحذاء القماشــي أسفل السرير خصيصا من أجلها. ترتدي فينغ شــيا ملابس لونها أحمر كرزي، وتتكس رأســها وتجلس بجوار أمها. تضحك جياشين بهدوء وتنظر إلى زوج ابنتها التي لم تنتقل إلى بيت الزوجية، وتشعر بالبهجة.

يضع وان أرشــي زجاجة الخمر وقطعة القماش المشجر على الطاولــة، ويرفع كتفه ويدور لفة في الغرفــة، ويلقي نظرة على بيتنا. وأقول:

«يا رئيس الفريق، يا أرشي: تفضلا بالجلوس».

يهمهم أرشـــي ويجلس على المقعد، بينمـــا رئيس الفريق يلوح بيده، ويقول:

«يا أرشي، لا أجلس، هذه الفتاة فينغ شيا، وهذا أبوها، وهذه أمها».

تضع فينغ شيا يدها على ســاقها، وترى رئيس الفريق يشير نحوها، فتبتســم في وجهه، كما تدير جســمها وتبتسم في وجه أمها عندما يشير إليها رئيس الفريق. تقول جياشين:

«يا رئيس الفريق، تفضل بالجلوس».

يقول رئيس الفريق:

«لا داعــي للتكليف، عندي أمر أريد أن أنجــزه أيضا، وأنتم تتجاذبون أطراف الحديث».

رئيــس الفريق دار علــى عقبيه وانصرف، ولــم يمكث معنا، وقمــت بتوديعه، ورجعت إلى الغرفة، وأشــير إلى زجاجة الخمر فوق الطاولة التي تتوسط الغرفة، وأخاطب أرشي قائلا:

«زيارتك لنا كلفتك نقودا، وفي الواقع إنني لم أشــرب الخمر منذ عشرات السنين».

يســمع أرشــي كلامي ويهمهم، ولم يتفوه بحرف، ويرفع كتفه ويجيل بصره في الغرفة مرارا وتكرارا، ويرى ملامحي المضطربة المرتبكة، تضحك جياشين وتخاطبه قائلة:

«دارنا فقيرة بعض الشيء».

يهمهم أرشــي مرة أخرى، ويرفع كتفه، ويحدق في جياشين. وتردف جياشين قائلة:

«ومن حســن الحظ أننا نربي عنزة وبعض الدجاج، وتشاورت مع زوجي فو قوي واتفقنا على أن تكون العنزة والدجاج من جهاز

العروس فينغ شيا عندما تتزوج».

لا يــزال أرشــي يهمهم بعد أن ســمع كلام زوجتي، ولا أدري مــا يدور في ذهنه. ويجلس لحظة، ثــم ينهض واقفا وينصرف. شــعرت أن موضوع زواج ابنتي انتهى، حيث إن أرشي لم يتفرس ملامحهــا، وركز نظراته على بيتنا المتهالك. أنظر إلى جياشــين التي تضحك بامتعاض، وتخاطب أرشي قائلة:

«لا أستطيع النزول إلى الأرض، لأن رجلي فقدت قوتها».

يطأطئ أرشي رأسه ويسير إلى خارج الغرفة، وسألته:

«تأخذ معك الهدايا، أليس كذلك؟».

يهمهم أرشــي، ويرفع كتفه، ويحملق في النجيل الزاحف في سقف الغرفة، وينصرف بعد أن طأطأ رأسه.

رجعت إلى الغرفة وجلســت على المقعد، أقــدح زناد ذهني، وأشعر بالغضب إلى حدٍ ما، وأقول:

«إنني مثقل الرأس، وأرشي لا ثلاثة تعجبه، ولا أربعة ترضيه».

ترسل جياشين زفرة، وتقول:

«ولا نستطيع أيضا أن نلومه».

فينغ شــيا فتاة ذكية، تحــدق في ملامحنا وتــدرك في التو أنها لم تحظ بحب أرشــي، وتنهض واقفة وتمشي إلى غرفة في الداخل، وتبدل ملابســها بأخرى قديمة، وتحمل المعزقة وتغشى الحقل.

بحلول المساء، جاء رئيس الفريق يسألني:

«هل تم الزواج؟».

أومئ برأسي مرات عديدة، وأقول:

«بيتي فقير جدا، فقير جدا».

في صباح اليوم التالي، وعندما كنت أفلح في الأرض، سمعت أحد الأشخاص يناديني:

«يا فو قوي، انظر فيما يبدو أن العريس صاحب الرأس المائل يسير فوق ذاك الطريق ويدلف إلى بيتك».

أرفع رأسي، فأرى خمسة أو ستة أشخاص يمشون فوق الطريق ويتمايلون يُمنة ويُسرة، ويجرون عربة مسطحة، وهناك شخص يتقدمهم جميعا ولا يتمايل، ويمشي بسرعة جدا ورأسه مائلة. وعلى مرمى بصري عرفت أنه أرشي، ولم يخطر على بالي أبدا أنه يحضر مرة ثانية.

يقول أرشي عندما رآني:

«يجب أن نزيل النجيل الزاحف في سقف الغرفة، وأحضرت معي عربة محملة بالجير لطلاء الجدران».

انظر إلى العربة المسطحة التي تحتوي على الجير ومكنستين لتنظيف الجدران، وطاولة صغيرة مستطيلة فوقها رأس خنزير. ويحمل أرشي في يده زجاجتي عرق.

في ذلك الحين، أدركت أن أرشي كان يتطلع حواليه ليس بسبب أنه يمقت الإملاق في بيتي، بل حتى لم ينظر إلى كومة القش أمام بيتي. وكنت أعتزم إزالة النجيل في سقف الغرفة منذ زمن مبكر، أنتظر فقط قدوم موسم الفراغ الزراعي، ومن المناسب أن أطلب مساعدة أهالي القرية.

حضر مع أرشي خمسة أشخاص، واشترى اللحم، وجهّز الخمر، وأولاني كل عناية واهتمام. وعندما وصلوا إلى مدخل كوخنا، أوقفوا العربة المسطحة، ودخل أرشي بيتي، يحمل رأس الخنزير في يد، والطاولة الصغيرة المستطيلة في اليد الأخرى،

ويدلف إلى الداخـل، ويضع رأس الخنزير فوق تلك الطاولة، ثم يضع الطاولة فوق ساق جياشين. يقول أرشي:

«الأكل والأشياء الأخرى تتحسن بعض الشيء».

الدموع تبلل جفون جياشـين وقتئذ؛ فهـي متأثرة ولم يخطر علـى بالهـا أيضا أن يأتي أرشـي ويصطحب معه الأشـخاص الذيـن يزيلون النجيل الزاحف في بيتنا، ويضعون طاولة صغيرة مستطيلة لزوجتي في نفس الليلة، وتقول جياشين:

«يا أرشي، أنت ترعانا بكل اهتمام وجدية حقا».

ينقل أرشـي ورفاقـه الطاولة والمقعد والأشـياء الأخرى إلى خارج البيت، ويفرشون قش الأرز تحت الشجرة، ثم يمشي أرشي إلى مقدمة السرير ويريد أن يحمل جياشين التي تضحك وتلوح بيدها، وتناديني:

«يا فو قوي، أنت لا تزال واقفا ولا تعمل شيئا».

أهرول إلى جياشين في التو، وأحملها على ظهري، وأضحك، وأخاطب أرشي قائلا:

«أنا أحمل زوجتي، وأنت من الآن فصاعدا تحمل فينغ شيا».

جياشـين تربِّتُ بقوة على جسـمي، وبعد أن يسمع أرشي ضرباتها يضحـك بهدوء. حملت جياشـين على ظهري إلى أسـفل الشـجرة، وجعلتها تسـتند عليها، وتجلس على قش الأرز. أرقب أرشـي ورفاقه ينشرون كومة القش ويقسمونها إلـى بضع حزم صغيرة، ويصعد أرشـي إلى سـقف الغرفة بمصاحبـة اثنين مـن رفاقه، أما سـائر الرفـاق فيمكثون أسـفل الغرفة، ويقلبون النجيل الزاحف فوق سـقف الغرفة بالإنابة عن أسـرتي. أنظر إليهم وهم يشـتغلون، وأدركت أن

الأشخاص الذين اصطحبهم أرشي يعملون بدقة وبراعة؛ فالأشخاص أسفل الغرفة يحملون القش على عصا البامبو ويرمونه إلى أعلى الغرفة، حيث يقوم أرشي وزميلاه بفرشه هناك، ولا تعتقد أن رأس أرشي التي تتكئ على كتفه تعيقه عن العمل، بل يضطلع بالأعمال بكل يُسر وسهولة؛ حيث يركل النجيل أولا بقدمه، ثم يجمعه ويكومه بيده. ولا تجد في قريتنا مثل ذلك الإنسان الكفوء.

انتهى العمل فوق سقف الغرفة قبل حلول الظهر، وقد أعددت لهم إبريقا من الشاي، وتصب لهم فينغ شيا الشاي، وهي مشغولة لا تهدأ وتهرول هناك وهناك، وتشعر بالسرور أيضا عندما ترى في بيتنا الكثير من العمال، وتضحك بملء فمها.

تأتي كثرة كاثرة من أهالي القرية يتفرجون على بيتنا، وهناك امرأة تخاطب جياشين قائلة:

«زوج ابنتك لم يتزوج بعد، ويعمل من أجلكم، أنتِ سعيدة الحظ حقا».

تقول جياشين:

«إنها فينغ شيا موفورة الحظ».

أرشي ينزل من فوق سقف الغرفة، وأقول له:

«يا أرشي، استرح لحظة».

يجفف أرشي حبات العرق على وجهه بكُم ملابسه، ويقول:

«لا أشعر بالتعب».

بعد أن ينتهي من كلامه، يرفع كتفه ويحدق في الجهات الأربع، ويرى حقل الخضار في الجهة اليسرى، ويسألني:

«حقل الخضار هذا.. مُلك لأسرتك، أليس كذلك؟».

أجيب:

«بلى».

يدلف إلى الداخل ويحضر ســاطورا، ويغشى الحقل ويقطع بعضا من الخضراوات الطازجة، ثم يدخل إلى البيت مرة أخرى. وبعد فترة وجيزة، يقطع رأس الخنزير في الداخل. حاولت منعه وحثه على أن يترك هذا العمل لابنتي فينغ شــيا، بيد أنه يمسح عرقه بكُمه، ويقول:

«لا أشعر بالتعب».

أضطر إلى الخروج، وأشجع فينغ شيا على العمل؛ فهي تقف بجــوار أمها جياشــين، وقد دفعتها إلى داخــل البيت، ولكنها لا تزال تنظر بحياء إلى أمها التي تضحك وتلوح بيدها وتطلب منها الدخول، حتى انصاعت ودلفت إلى داخل الكوخ وقتئذ.

تصطحب جياشين وأنا رفاق أرشي، ونحتسي جميعا الشاي. وفي أثنــاء ذلك، أعرج على داخل الكوخ، وأكتشــف أن أرشــي وفينغ شيا يشبهان الزوجين؛ أحدهما يضرم النار، والآخر يطهو الطعــام، ويحدقان في وجهي، وأنا أرمقهما بنظرات مســتمرة، وبعد ذلك نبتسم جميعا ابتسامة عريضة.

خرجت وتحدثت مع جياشين التي تضحك أيضا. وبعد لحظة، لم أتمالك نفســي، وأفكــر أن أدلف إلى داخــل الكوخ، وعندما نهضت واقفا تمنعني جياشين، وتقول خلسة:

«لا تدلف إلى الداخل».

بعد تنــاول الغداء، يطلي أرشــي ورفاقه الجــدران بالجير، والجدران الطينية في بيتنا جفت في اليوم التالي، وباتت ناصعة البيــاض مثل البيوت المغطاة بالقرميد فــي المدينة، وكان الوقت

مازال مبكرا بعد طلاء الجدران، وأخاطب أرشي قائلا:
«تتصرف بعد تناول العشاء».
يقول:
«لا نأكل».
ثم يرفع كتفه ناحية فينغ شيا، وعرفت أنه يرمق فينغ شيا بنظرة. ويسألني أنا وجياشين بصوتٍ خفيض:
«يا أبي، يا أمي، متى أحضر وآخذ فينغ شيا ونتزوج؟».
سمعت كلماته، وسمعته ينعتني أنا وجياشين بالوالدين، وشعرنا بفرحة غامرة، وبعد أن نظرت إلى جياشين، أقول:
«كما تحب، أنت تحدد ميقات زواجكما».
ثم أردفت قائلا بصوت منخفض:
«يا أرشي، لا أريد منك أن تصرف نقودا. في الحقيقة، فينغ شيا مصيرها ظالم، وأدعو بعض الناس للمشاركة في يوم زواجكما، ويحدثون جلبة وضوضاء وفرحة غامرة، كما ندعو أهالي القرية للفرجة على حفل زفافكما».
يقول أرشي:
«يا أبي، أدركت مغزى كلامك».
في مساء ذلك اليوم، تتحسس فينغ شيا قطعة القماش المشجر المهداة من أرشي، وتسلط عينيها عليها والضحك يملأ شدقيها، وتقهقه وتقهقه وتحدق فيها. وأحيانا ترفع رأسها وترى جياشين وأنا في نوبة من الضحك، وتشعر بالضجر ويحمر وجهها، ومن الجلي، أن فينغ شيا تحب أرشي، وتغمرني الغبطة أنا وجياشين، وتقول جياشين:
«أرشي موثوق فيه، وطيب القلب، وأشعر بالاطمئنان والراحة

عندما يتزوج ابنتي».

تبيع أسرتي العنزة وبعض الدجاج، وأقود فينغ شيا ونغشى المدينة، ونفصل لها قطعتين من الملابس الجديدة، وكذلك اشترينا لها لحافا جديدا، ناهيك عن طشت الغسيل والأشياء الأخرى. أصبح لدى فينغ شيا كل الأشياء على غرار كافة أترابها من البنات في بيوت القرية، وكما قالت جياشين:

«لا يمكن أن تعاني فينغ شيا من الظلم».

في مساء ذلك اليوم الذي جاء فيه أرشي يتزوج فينغ شيا، دوت دقات الطبول والصاجات من مكان ناءٍ، واحتشد أهالي القرية عن بكرة أبيهم في مدخل القرية للفرجة. يصطحب أرشي أكثر من عشرين شخصا، ويرتدون السُتر الصينية التقليدية، ولذا يضع أرشي في لبان صدره زهرة حمراء كبيرة، ويبدو منظره كأنه من الكوادر العليا. وتقرع عشرات الصاجات في آنٍ واحد، كما تدمدم طبلتان كبيرتان وتصم آذان أهالي القرية. وكان الأكثر بروزا في ذلك الموكب عربة مسطحة تتزين بالقماش الأحمر والأخضر، ويوضع فوقها كرسي مزين باللونين الأحمر والأخضر. وعندما دخل أرشي القرية يفتح في التو كرتونين كبيرين من السجائر ماركة «تشيان مين» (الباب الأمامي) ويوزعها على الرجال، ويقول مرارا وتكرارا:

«شكرا جزيلا، شكرا جزيلا».

أفضل السجائر التي يتم تدخينها عند زواج البنات في سائر بيوت القرية هي سجائر ماركة «فيما» (الحصان الطائر)، ولكن أرشي يوزع على الرجال علب سجاير ماركة «تشيان مين»، مما أدى ذلك إلى المقارنة من جانب الأشخاص الذين يأخذون

السـجائر ويضعونها في جيوبهم فورا كأنما يخشـون أن يسطو عليهـا الآخـرون، وأصابعهم في جيوبهم تتحسـس السـجائر، وتخرج سيجارة وتضعها في أفواههم.

يسـير خلف أرشي عشرون شـخصا كرسوا أقصى جهودهم من أجل دق الطبول والصاجات، وتدوّي الأصوات التي تهز أركان السماء والأرض، كما تتعالى حناجرهم بالصياح، وتكتظ جيوبهم حتـى كادت تتفلـق، وعندما رأوا الفتيـات والأطفال في القرية يخرجـون الحلويات من جيوبهم ويرمونهـا على هؤلاء الأطفال والفتيات. وهذا الإسـراف جعلني أتفرج بنظرة بلهاء مشدوهة، وأتمنى أن يرموني بالنقود.

عندما وصلوا إلى أمام كوخنا، دخلوا واحدا بعد الآخر لرؤية فينـغ شـيا. وظلت الطبول تقـرع في الخارج، كما جاء شـباب القرية للمسـاعدة فـي دق الطبول. ترتدي فينغ شـيا في ذاك اليـوم الملابس الجديدة، وتبدو جميلة حقا، ولم يدر بخلدي أبدا أنها تظهر جميلة ووسـيمة على هذا النحو، وتجلس أمام سرير جياشـين، والضيـوف يدلفون إلى الداخل ويبحثون عن أرشـي وينكسون رؤوسهم في الحال عندما يرونه.

الأشـخاص الذين جاؤوا من المدينة مع أرشـي، قالوا عندما رأوا فينغ شيا:

«أرشي المائل الرأس موفور الحظ السعيد في الزواج حقا».

بعـد انقضاء بضع سـنوات فيمـا بعد، يقـول أهالي القرية عنـد زواج سـائر الفتيات في القرية إن حفلة زفاف فينغ شـيا كانت الأفضل. وفي ذلك اليوم الذي شـهد حفل اسـتقبال فينغ شـيا ومغادرتها كوخنا؛ كانت أمارات الحمـرة تعلو وجهها مثل

الطماطـم، حيث لم يحدق فـي وجهها من قبل أنـاس كُثر في آن واحد هكذا، وتدس رأسـها فـي صدرها، ولا تدري ما العمل الأفضل آنذاك، ويسـحب أرشـي يدها ويمشيان إلى مقربة من العربة المسطحة. ترى فينغ شيا كرسيا فوق العربة، ولا تدري ما فائدته أيضا. أرشـي قصير القامة بالنسبة للعروس فينغ شيا، يحتضنها ويحملها إلى فوق العربة، وينفجر الحاضرون في نوبة من الضحك، بينما فينغ شيا تضحك ضحكة مكتومة. ويخاطبني أرشي ويخاطب جياشين قائلا:

«يـا أبـي، يا أمـي، أتزوج فينغ شـيا وأصطحبهـا إلى بيت الزوجية».

يتفوه أرشـي بهذه الكلمات ويجر العربة المسـطحة بنفسـه، وينطلق إلى بيت الزوجية. وعندما تحركت العربة، فينغ شيا التي تنكس رأسـها وتضحك تلتفت في عجالة وتنظر طويلا في قلق شديد. وأعرف أنها تنظر إليّ وإلى جياشين، وحملت على ظهري جياشين التي تقف بجوارها وتتدفق دموعها كالنهر عندما كانت تحدق في وجوهنا، وتدير جسمها وتنظر إلينا وهي تبكي بحرقة. جالت بذهني صورة فينغ شـيا بصـورة فجائية عندما كانت في الثالثة عشـرة من عمرها؛ حيث كانـت آنذاك تبكي وتنظر إلينا علـى هذا النحو عندما كان يصطحبها أحد الذين أرادوا تبنيها، وتنهمر دموعي وأشعر بحزن شديد، والدموع تبلل رقبتي حينئذ، وعرفت أن جياشـين تبكي أيضا. تذكـرت أن هذه المرة تختلف عن سـابقتها، ففي هذه المرة فينغ شيا تتزوج، وانفجرت أسارير وجهي، وأخاطب جياشين قائلا:

«يا جياشين، يجب أن تضحكي، اليوم أنجزنا عملا سعيدا».

أرشي صادق وساذج، وعندما يسحب العربة ينظر إلى الخلف أيضا ويحدق في عروسه، ويكف عن السير عندما يرى فينغ شيا تلتفت نحونا وتبكي، ويقف هناك ويلتفت إلينا. وتبدو فينغ شيا أكثر حزنا كلما بكت، ويهتز كتفها مرة تلو الأخرى، مما جعل قلبي بصفتي والدها أكثر حزنا وألما، وأخاطب أرشي بعلو صوتي:

«يا أرشي، فينغ شيا هي زوجتك، أنت مازلت في مكانك لا تجر العربة وتمشي بسرعة».

تزوجت فينغ شيا وانتقلت إلى المدينة، وشعرت أنا وجياشين بفقدان الروح، كما شعرنا بالحيرة والارتباك في قلوبنا، ولم نعد نشعر بوجود فينغ شيا تذرع الحجرة جيئة وذهابا كعادتها، واليوم غادرت فينغ شيا بيتنا، ولم يبق هنا سواي أنا وجياشين ينظر كل منا إلى الآخر مرات عديدة، وقد تبادلنا النظرات لعشرات السنين. ولكن فيما يبدو لم نشبع بعد من النظرات المتبادلة، ومازلت كما أنا في حالتي العادية الطيبة؛ قادرا على الفلاحة في الحقل، وأتخلص من التفكير في فينغ شيا إلى حد ما. أما جياشين فمازالت تئن تحت وطأة المصير الظالم، تجلس على السرير طوال اليوم، وتتألم طوال اليوم، لقد فارقتها فينغ شيا، فكيف قلب الأم لا يشعر بالارتباك والقلق؟ فهي بادئ ذي بدء تمكث في الفراش ولا تنطق بحرف، ولا تتحمل ذلك دائما، وتشعر بالألم في خاصرتها، وتتألم عندما تحملها على الظهر، ولا تشعر بالراحة أيا كانت. وأنا أدرك هذا المذاق من الراحة أيضا، فهي تبقى في الفراش طوال اليوم، وتشعر بالتعب أكثر من العمل في الحقل، حيث إن جسمها ساكن لا يتحرك البتة. في الغسق أحملها على ظهري ونتجول في القرية، ويرى

اهالي القرية جياشــين، ويسـألونها بكل مودة عن كل كبيرة وعن كل صغيرة في حياتها، وتشعر بالانشراح كثيرا، وتقترب من أذني وتسألني:

«هل يسخرون منا؟».

أقول:

«أنا أحمل زوجتي، هل ينطوي ذلك على سخرية؟».

بدأت جياشــين تحب استعادة ذكريات بعض الأمور السابقة، وعندما وصلنا إلى مكانٍ ما ذكرت زوجتي اســم ابنتها فينغ شيا، كما ذكرت ما تعرض له يوي تشـينغ في الماضي. تتذكر الأحداث وتسردها وتضحك، وعندما وصلنا إلى المدخل، تذكرت جياشين يوم عودتي وهي تعمل في الحقل، وســمعت شخصا ينادي فينغ شيا ويوي تشينغ بصوت عال، ورفعت رأسها لتجدني أمامها ولم تصدق عينيها في البداية. تســرد جياشين الحكاية إلى هنا، ثم تضحك وتبكي، وتتدحرج دموعها على رقبتي، وتقول:

«كل شيء على ما يرام مادمت رجعت إلينا».

حســب الأعراف المعمول بها، يجب على فينغ شــيا أن تعود إلينا بعد انقضاء شــهر من زواجهــا، كما يجب علينا أن نزورها بعد مرور شهر، ولم يدر أحد أنها رجعت إلينا بعد أقل من عشرة أيام من زواجهــا. في أصيل ذلك اليوم، كنا انتهينا توا من تناول طعام العشاء، وسمعت شخصا في الخارج يصيح:

«يا فو قوي، اذهب إلى مدخل القرية وألقي نظرة هناك، يبدو أن زوج ابنتك صاحب الرأس المائل حضر إلى القرية».

مازلت لا أصدق كلامه، ويعرف أهالي القرية أنني وجياشين نأمل أن فينغ شيا ترغب في المكوث ببيتها كثيرا، وجال بخاطري

أن أبناء القرية يعبثون بنا، وأخاطب جياشين قائلا:

«مستحيل، لم يمض على زواجها إلا عشرة أيام فقط».

تشعر جياشين بالقلق، وتقول:

«اذهب بسرعة لترى بنفسك».

هرولت إلى مدخل القرية، ورأيت هناك أرشي حقا، ويرفع كتفه اليسرى، ويحمل في يده علبة كعك، وتمشي فينغ شيا بجواره، ويسحب كل منهما يد الآخر، ويسيران والابتسامة تعلو ثغريهما. ينظر إليهما أهالي القرية ويضحكون، ففي تلك السنين لا ترى رجلا وامرأة تتعانق أيديهما، وقلت لهم:

«أرشي من أهل الحضر، ويتحلى أهل الحضر بالنكهة الأجنبية».

تدخل فينغ شيا وأرشي، وتشعر جياشين بفرحة غامرة، تجلس فينغ شيا على حافة السرير، وتشد أمها يدها وتتحسسها باستمرار، وتصر على أن تقول إن ابنتها أصبحت سمينة، وفي الواقع أتستطيع أن تصبح سمينة في غضون عشرة أيام وأكثر؟ وأخاطب أرشي قائلا:

«لم يخطر ببالنا أنكما تحضران، ولم نستعد لزيارتكما».

يضحك أرشي بهدوء، ويقول إنه لا يعرف أنه يأتي إلى هنا، وأن فينغ شيا هي التي سحبته وسار وراءها وذهنه كليل.

تعود إلينا فينغ شيا في أقل من عشرة أيام من زواجها، ونحن لا نعير اهتماما بالأعراف القديمة؛ حيث إنني هرولت إلى المدينة مرتين خلال ثلاثة أيام؛ وذلك حسب طلب زوجتي جياشين، وأنا شخصيا أرغب في زيارتهما دائما. وأهرول إلى المدينة بكل نشاط وجد هكذا كما كنت في شرخ شبابي، ولكن

المكان الذي تطؤه قدمي مختلف.

عرجت على أرضي للارتفاق الخاص وقطعت بعضا من الملفوف الصيني، ووضعته في السلة حال ذهابي إلى المدينة. ألبس الحذاء القماشي الجديد الذي صنعته جياشين من أجلي، وقد تلطخ حذائي بالطين عندما كنت أقطع الملفوف الصيني، وتنبهني جياشين وتطلب مني تنظيف الحذاء، وأقول:

«لقد أصبحت عجوزا، وأهتم أيضا بالطين الذي يوسخ حذائي؟».

تقول جياشين:

«لا يمكن أن تتحدث هكذا، الإنسان العجوز هو إنسان أيضا، والإنسان يجب أن يكون نظيفا إلى حدٍ ما».

كلام زوجتي صائب حقا، وقد أصابها المرض منذ عدة سنوات خلت، وهي قابعة في الفراش وغير قادرة على أن تنزل إلى الأرض، ومازالت تمشط شعرها تمشيطا رائعا ومتناسقا كل يوم. أرتدي ملابسي النظيفة وأنصرف من مدخل القرية. وعندما رآني أهالي القرية أحمل سلة الملفوف الصيني سألوني:

«أتذهب لزيارة فينغ شيا أيضا؟».

أومئ برأسي، وأقول:

«نعم».

يقولون:

«تذهب دائما للزيارة، وهل زوج ابنتك صاحب الرأس المائل لا يجرؤ على طردك؟».

أقول:

«أرشي لا يمكن أن يفعل ذلك أبدا».

الجيران حول بيت أرشي يكنون جميعهم حبا لابنتي فينغ شيا، ويمتدحونها عند زيارتي، ويقولون إنها تعمل بجد ونشاط وتتحلى بالذكاء. وعندما تكنس الأرض، تكنس أمام بيوت الآخرين أيضا، وتكنس حتى يمتد الكنس إلى نصف الشارع، ويخرج الجيران ويربّتون عليها عندما يرونها تتصبب عرقا، ويطلبون منها أن تكف عن الكنس، وساعتئذ تعود إلى بيتها والابتسامة تعلو ثغرها.

لم تتعلم فينغ شيا كيفية حبك الكنزة الصوفية في الماضي؛ حيث إن بيتنا فقير ولم يلبس أحد من أفراد أسرتنا الكنزة. ترى فينغ شيا بأم عينها النسوة الجيران يجلسن أمام الأبواب ويحبكن الكنزة، وتقوم أياديهن بتداخل خيوط الصوف بالتناوب، ويشعرن بالغبطة عندما تنقل فينغ شيا مقعدها وتجلس أمامهن، وتحملق فيهن فترة طويلة، وينظرن إليها بنظرات شاردة. وهؤلاء النسوة يدركن أن فينغ شيا تحب حبك الكنزة، ويقمن بتعليمها حبكها عرضا، وذلك جعلهن يشعرن برجفة، حيث إنها أتقنت الحبك بمجرد تعليمها؛ وقامت بحبك الكنزة بسرعة مثلهن في غضون ثلاثة أو أربعة أيام. وهؤلاء النسوة يبلغنني عندما يرينني:

«تمتلك فينغ شيا مهارات رائعة لو لم تكن بكماء وصماء».

كما يشعرن بالشفقة في سويداء قلوبهن نحو ابنتي فينغ شيا. وفيما بعد، وعندما تنتهي من الشؤون المنزلية في البيت، تجلس فينغ شيا أمام الباب وتحبك الكنزة بالإنابة عنهن. وفينغ شيا تحبك الكنزة الصوفية، وتعتبر خيوطها الأكثر اتساقا والأكثر التحاما من بين النسوة اللاتي يقطن في الشارع كله، ويُعد ذلك أمرا عظيما. يحضر هؤلاء النسوة خيوط الصوف ويطلبن من فينغ شيا غزلها. وتشعر فينغ شيا بالتعب بعض الشيء، ولكن

قلبها مفعم بالفرح حقا، وعندما تنتهي من حبك الكنزة تسلمها لهؤلاء النسوة اللاتي يرفعن إبهامهن إشادة بها، وتفتح فينغ شيا ثغرها وتنخرط في الضحك فترة طويلة.

حالما دلفت إلى المدينة، حضرت إليّ زوجات الجيران تبلغني الواحدة تلو الأخرى أن ابنتي فينغ شيا نشيطة ودؤوبة وتعمل بجد في كافة الأعمال، وسمعت منهن كلاما طيبا عن ابنتي حتى احمرت عيوني، وقلت لهن:

«أهل الحضر من الأخيار، وفي القرية من الصعب أن تسمع من يقول إن فينغ شيا فتاة طيبة».

تضاعف حب أرشي لابنتي عندما رآها استحوذت على قلوب الجميع، وأنا شعرت بالسعادة حقا، وبعد أن رجعت أدراجي، تلقي جياشين باللائمة عليّ دائما لأن زيارتي استغرقت فترة طويلة، وكلامها صائب حقا، فهي تمكث بمفردها في البيت وتمد رقبتها وتتطلع لعودتي حتى أبلغها الأشياء الجديدة في حياة ابنتها، وطال أمد انتظارها ولا أعود إليها، مما جعلها تشعر بالقلق طبعا. وأقول لها:

«أنسى الوقت بمجرد رؤية ابنتي فينغ شيا».

وكل مرة أعود إلى البيت، أجلس على جانب السرير فترة طويلة، وأستعرض أحوال فينغ شيا في داخل بيتها وفي خارجه، والملابس التي ترتديها وألوانها، وحذاؤها الذي صنعته أمها بات باليا أم لا؟ وجياشين تريد أن تعرف كل شيء. وتوجه إليّ الأسئلة التفصيلية بلا انقطاع، وأتحدث أنا أيضا بلا نهاية، حتى يجف اللعاب في حلقي، ومع ذلك لا تتركني جياشين، وتسألني أيضا:

«هل نسيت شيئا لم تذكره؟».

تجاذبنا أطراف الحديث حتى قدوم الليل، وأهالي القرية جميعهم تقريبا يأوون إلى فُرشهم، ونحن لم نتناول الطعام بعد، وأقول:

«يجب أن أطبخ بعض الطعام».

جياشين تمنعني من الطبخ، وتتوسل إليّ قائلة:

«حدثني عن فينغ شيا مرة أخرى».

في الحقيقة، أنا أرغب في الحديث كثيرا عن فينغ شيا، ولا أشعر بالملل في حديثي مع جياشين، وعندما أحرث الأرض، أتحدث مع أهالي القرية أيضا، وأقول لهم إن فينغ شيا ذكية ومجتهدة أيضا، وأثبتت كفاءة في الحضر، وحظيت بحب وثناء الجميع، وتحيك الكنزة أسرع من الآخرين. وبعض أهالي القرية لا يشعرون بالسعادة عندما يسمعون كلامي، ويقولون لي:

«يا فو قوي، أنت مشوش الذهن دائما، أهل الحضر نواياهم سيئة، وفينغ شيا تعمل طوال اليوم من أجل الآخرين، وتموت من شدة التعب والإعياء».

أقول:

«لا نستطيع أن نتكلم بمثل تلك الكلمات حقا».

يقولون:

«فينغ شيا تحيك الكنزة الصوفية من أجل النسوة في الحضر، ويجب عليهن أن يقدمن لها ما يصون حقها، هل فعلن ذلك؟».

صدور الناس في القرية ضيقة، ويصرون على اختيار سفائف الأمور، والنساء في الحضر ليسن اللاتي يقلن إن أهالي القرية أشرار على هذا النحو، وقد سمعتهن مرتين يتحدثن إلى أرشي:

«يا أرشي، اذهب واشتر كيلوجراما من خيوط الصوف، ويجب أن نجعل فينغ شيا تقتني كنزة صوفية أيضا».

يضحك أرشي بعد أن يسمع تلك الكلمات، ويلتزم الصمت، وأرشي إنسان واقعي، صرف أموالا كثيرة بموجب موافقتي على زواجه من ابنتي فينغ شيا، واقترض بعض المال، وعندما كنا بمنأى عن الأنظار، أخبرني بهدوء قائلا:

«يا أبي، سددت القرض، وأستعد لشراء خيوط الصوف من أجل فينغ شيا».

الثورة الثقافية الكبرى في المدينة تصبح همجية كلما أحدثت فوضى (*)، والشوارع مكتظة بالملصقات الجدارية، والذين يلصقونها هم من بعض الكسالى والمتسكعين؛ فلا يمزقون الملصقات القديمة عند تعليق الملصقات الجديدة، وتصبح الملصقات سميكة كلما ألصقوا الجديدة، حتى ظهر ذلك الجدار وكأنما له جيوب كثيرة منتفخة، حتى باب بيت فينغ شيا وأرشي ملصق عليه شعارات، بالإضافة إلى أن طشت الغسيل والأشياء الأخرى مطبوع عليها أيضا كلمات الرئيس ماو، وغطاء الوسادة لدى فينغ شيا وزوجها مطبوع عليه: لا تنسَ أبدا الصراع الطبقي تحت أية ظروف، أما الكلمات على ملاءة السرير فكانت تقول: تقدم إلى الأمام في خضم الأنواء والأمواج.

ينام أرشي وفينغ شيا كل يوم على كلمات وأحاديث الرئيس ماو.

(*) استمرت هذه الفوضى وتلك الكارثة عشر سنوات (1966-1976)، وأحدثت التحطيم والنتائج الوخيمة التي لم يسبق لها مثيل، وجعلت مسيرة التحديث الصيني تتعرض للنكسة الماحقة مرة أخرى، كما جعلت الصينيين يفتقرون إلى فرصة اللحاق بالمستوى المتقدم العالمي، والأكثر خطورة من ذلك، أن الثورة الثقافية تسببت في الجرح النفسي الكبير الذي أصاب الصينيين الذين يصممون على المضي قدما في طريق التحديث، وظلوا حتى اليوم لديهم الإحساس بالآثار التي تركتها تلك الثورة [المترجم].

وأنأى بنفسي عن الأماكن المزدحمة في كل مرة أعرج على المدينة، وأهل الحضر يتعاركون كل يوم، ورأيت في مرات عديدة أناسا طريحي الأرض غير قادرين على النهوض بعد أن أشبعوا ضربا في العراك، ولا غضاضة أن رئيس الفريق لم يعد يذهب إلى المدينة ويحضر الاجتماعات، وتبعث الكومونة في العادة شخصا يبلغه بمؤتمر الكوادر على المستوى الثالث الذي يعقد في المحافظة، ورئيس الفريق لا يذهب هناك أيضا، ويقول لنا سرا:

«تشهد المدينة أناسا يموتون كل يوم، مما يجعل الخوف يملأ أقطار نفسي، وفي الوقت الحاضر، الذهاب إلى المدينة لعقد اجتماع يعني أنك تدخل التابوت».

يختبئ رئيس الفريق في القرية ولا يغادرها البتة، ويستمتع بالهدوء والاستقرار لعدة شهور حقا، ولا ينصرف إلى أي مكان. ولكن أناسا جاؤوا يبحثون عنه في عقر داره، وفي ذلك اليوم، كنا جميعا نحرث الأرض، وقد رأينا راية حمراء ترفرف في مكان قاص، وحضر فريق من الحرس الأحمر قادما من المدينة. رئيس الفريق يعمل في الحقل، وعندما رأى الحرس الأحمر انكمشت رقبته داخل نفسه، وسألني في قلق شديد:

«هذا الفريق من الحرس الأحمر لا يبحث عني، أليس كذلك؟».

جاء فريق الحرس الأحمر بقيادة فتاة وسار إلينا، وتصرخ تلك الفتاة في وجهي قائلة:

«لماذا لا توجد هنا شعارات، ولا ملصقات جدارية؟ أين رئيس الفريق؟ ومَنْ هو رئيس الفريق؟».

يرمي رئيس الفريق المعزقة في الحال، ويهرول إليها، ويطأطئ

رأسه، ويحني ظهره، ويقول:

«أهلا بالرفيقة المناضلة الشابة في الحرس الأحمر».

تلوح تلك الفتاة الرائدة بذراعها، وتسأل:

«لماذا لا تعلق الشعارات، ولا تلصق الملصقات الجدارية؟».

يجيب رئيس الفريق قائلا:

«توجد شعارات، وقد تم لصق شعارين خلف تلك الغرفة».

يبدو أن تلك الفتاة تبلغ من العمر ستة عشر أو سبعة عشر عاما على أقصى تقدير، وتشعر بالزهو والغرور أمام رئيس فريقنا، وتنظر إليه من طرفي عينيها، وتخاطب بضعة أفراد من الحرس الأحمر يحملون برميل الدهان، وتقول:

«اذهبوا، وعلقوا الشعارات».

يهرول أفراد الحرس الأحمر نحو بيوت القرية، ويعلقون الشعارات. وتخاطب الفتاة الرائدة رئيس الفريق قائلة:

«اطلب من أهالي القرية أن يحتشدوا عن بكرة أبيهم».

رئيس الفريق يخرج من جيبه في عجالة البوق وينفخ فيه بقوة، ويهرول في التو العمال في الحقول الأخرى ويأتون إليه. تنتظر حتى يجتمع الأهالي تقريبا، وتصرخ تلك الفتاة في وجوهنا، وتقول:

«مَنْ مالك الأرض هنا في قريتكم؟».

يحدق الجميع نحوي حالما يسمعون كلامها، وساقي ترتعش من جراء نظراتهم، ومن حسن الحظ أن رئيس الفريق، يقول:

«مُلاك الأراضي شيّعنا جنازتهم في بداية التحرير».

وتسأل أيضا:

«أيوجد فلاحون أثرياء؟».

يجيب رئيس الفريق:

«كان يوجد فلاح ثري، ومات السنة قبل الماضية».

ترمق رئيس الفريق بنظراتها، وتصرخ في وجوهنا جميعا:

«أيوجد هؤلاء الذين يسيرون على الدرب الرأسمالي؟».

يقول رئيس الفريق مبتسما:

«هذه القرية صغيرة، أيوجد فيها رأسماليون؟».

تمد يدها بصورة فجائية وتشير إلى أنف رئيس الفريق، وتسأل:

«وماذا عنك؟».

يرتعد رئيس الفريق، ويقول في الحال:

«أنا رئيس الفريق، رئيس الفريق».

ولا يخطر ببال أحد أن تصرخ بعلو صوتها، وتقول:

«أنت القابض على زمام السلطة تسير على الدرب الرأسمالي».

ترتعد أوصال رئيس الفريق، ويلوح بيده مرارا وتكرارا، ويقول:

«لست، لست، لست من أتباع المذهب الرأسمالي».

لا تعيره تلك الفتاة اهتماما، وتصرخ في وجوهنا، وتقول:

«إنه يمارس الحكم الرجعي والقمع ضدكم، ويجب عليكم النهوض ومقاومته، يجب تحطيم عملائه».

أهالي القرية ينظرون ببلاهة؛ حيث إن رئيس الفريق يبدو في الأيام العادية معتزا بنفسه حقا، وننصاع لكلماته، ولم نشعر أبدا أن كلامه غير صائب. والآن نجده ينحني خضوعا أمام ثُلة من الأطفال الذين جاؤوا من المدينة، ويطلب الغفران منهم مرارا

وتكرارا. كما تحدث بما لا نستطيع التفوه به، وطلب منهم أن ينتظروا هنيهة، ويستدير جسمه، ويصيح في وجوهنا:

«تكلموا بما يعتمل في نفوسكم، أنا لم أضطهدكم».

يحدق الجميع في رئيس الفريق، كما يحملقون في جنود الحرس الأحمر، ويقولون مثنى وثلاثا:

«رئيس الفريق لم يضطهد أحدا، إنه رجل طيب القلب».

تقطب تلك الفتاة جبينها وتنظر إلينا، ثم تقول:

«لا يمكن تقويمه وإصلاحه».

وتنهي كلامها، وتلوح لبضعة من جنود الحرس الأحمر، وتقول:

«اعتقلوه».

يتقدم اثنان من هؤلاء الجنود، ويقبضان بإحكام شديد على ذراع رئيس الفريق، يمد رئيس الفريق رقبته، ويصرخ:

«لا أذهب إلى المدينة، يا أهالي القرية، أنقذوني، أنقذوني، لا أستطيع دخول المدينة، دخول المدينة يعني دخول تابوت الموتى».

يصرخ رئيس الفريق مرة أخرى، ولكن صراخه غير ذي جدوى. ويقيد الجنديان ذراعيه خلف ظهره، ويجعلانه يحني ظهره ويقبضان عليه. يرقب جميع أبناء القرية هذين الجنديين، ثم يصرخون بأنهما من المتعطشين للدماء، وينصرفون، ولم يبقِ أحدٌ منهم المهمة التي حضر الحرس الأحمر من أجلها، بل لا يوجد أحدٌ يتحلى بالجسارة.

يغادر رئيس الفريق القرية مكبلا ومعتقلا على هذا النحو، ويشعر الجميع بأن ذلك ينذر بالشر لا بالخير، وتغص المدينة بالقلاقل.

اعتقاله ربما ينقذ حياته من الخطر، ولا يفقد ذراعه ولا ساقه، ولم يدر أحد أنه يعود أدراجه في أقل من ثلاثة أيام،

وقد أصيب برضوض وكدمات في وجهه. يمشي مترنحا متمايلا علـــى ذلك الطريـــق، الناس في الحقـــول يهرولون لاســـتقباله، وينادونه:

«يا رئيس الفريق».

رئيـــس الفريق يرفع جفنيه، ويحملق فـــي وجوه أبناء القرية، ولم ينبس ببنت شـــفة، ويمشي على طول الطريق حتى يصل إلى بيته، ثم يسقط في نوم عميق لمدة يومين. في اليوم الثالث، يحمل رئيس الفريق المعزقة ويغشـــى الحقل للفلاحة، وقد اندثر الورم كثيرا من وجهه، ويلتف حوله الجميع ويســـألونه عن كل ما يتعلق بأحواله، ويســـألونه أيضا إذا ما كان جســـمه مازال يتألم أم لا؟ ويومئ برأسه قائلا:

«أتألـــم! لا يهم كثيـــرا، ولكن هؤلاء الأوبـــاش منعوني من أن أتـــذوق طعم النوم، ومن الصعب أن أتحمل ذلك، وســـبب لي ألما أكثر مشقة من الألم نفسه».

يروي رئيس الفريق مأساته وتنهمر دموعه، ويردف:

«لقد أدركت كل شـــيء إدراكا كاملا، ففي الأيام العادية أقوم على حمايتكم مثل ابني تماما، وعندما جاء دوركم للقيام بواجبكم، كنت من منكودي الحظ ولم يأت أحد لإنقاذي من براثنهم».

رئيس الفريق ينتقدنا جميعا، ولا يجرؤ أحدٌ على زيارته، وهو رجـــل طيب القلب دائما، وقد اقتاده الحرس الأحمر إلى المدينة، وأشبعوه من اللكمات والركلات لمدة ثلاثة أيام.

تشون شينغ يقطن في المدينة التي تقشعر منها الأبدان حقا، ولا أدري أن تشون شينغ من منكودي الحظ دائما، فعندما غشيت المدينة لزيارة فينغ شـــيا في ذاك اليوم، رأيت ثُلة من الأشخاص

يلبســـون قبعات ورقية مختلفة، ويعلقون بطاقات على صدورهم، ويجولون في المدينة. لم يســـتحوذ هذا المشهد على اهتمامي في البداية، وانتظرت حتى حضـــروا أمامي، وارتجفت رجفة، حيث تشـــون شـــينغ يســـير في المقدمة على غير المتوقع. تشون شينغ ينكس رأســـه، ولـــم يرني، وبعد أن مر بجواري، رفع رأســـه على حين غرة، وصرخ:

«يحيا الرئيس ماو».

يندفـــع إلى الأمـــام بضعة أشـــخاص يضعون شـــرائط على سواعدهم، ويضربون تشون شينغ ويركلونه ويلعنونه:

«أأنـــت تصرخ بهذا الهتاف؟ أنت من أتباع الرأســـمالية، أيها الوغد».

يطرحون تشون شـــينغ أرضا، ويسقط جسمه فوق تلك اللوحة الخشبية، ويركلون رأسه، ويبدو أن الركلات أحدثت به ثقبا، وبات جســـمه كله ممدودا على الأرض، ولم تصدر منه اســـتغاثة، ولم أر قط في حياتي إنسانا يُضرب ضربا مبرحا على هذا النحو. تشون شـــينغ طريح الأرض مثـــل قطعة من اللحم الفاســـد، ويوجهون له الركلات كما يحلو لهم، ويشـــبعونه ضربا مؤلما مرة أخرى، بيد أنه لم يمت، وأذهب إليهم وأشد بقوة أكمام ملابس اثنين منهم، وأقول:

«أرجوكم، كفوا عن الضرب».

يدفعونـــي بكل قوتهم، ويكاد جســـمي يســـقط على الأرض، ويقولون:

«مَنْ أنت؟».

أقول:

«أرجوكم، كفوا عن الضرب».

يشير أحد الأشخاص إلى تشون شينغ، ويقول:

«أنت تعرف مَنْ هو؟ إنه المحافظ القديم، من مؤيدي المذهب الرأسمالي».

أقول:

«لا أعرف ذلك، أعرف فقط أنه تشون شينغ».

لم يضربوا تشون شينغ مرة أخرى عندما شرعوا يتحدثون، ويصرخون ويطلبون منه أن ينهض واقفا. لقد ضربوه وبات في حالة رثة، وكيف يستطيع أن ينهض واقفا؟ ذهبت إليه وسندته، وتعرف إليّ، وقال:

«يا فو قوي، اختفِ عن الأنظار بسرعة».

في ذلك اليوم، رجعت أدراجي إلى بيتي، وجلست على حافة السرير، وأخبرت جياشين بما تعرض له تشون شينغ من ضرب مؤلم. جياشين تستمع إلى كلماتي وتنكس رأسها، فأقول:

«في البداية، لا يجوز أن تمنعي تشون شينغ من دخول البيت».

على الرغم من أن جياشين لم تتفوه بحرف، بيد أن ما يدور في ذهنها مثلي تماما.

وبعد انقضاء شهر وأكثر، جاء تشون شينغ إلى بيتي سرا في جوف الليل البهيم، وكنت أنا وجياشين في نوم عميق، ودقاته على الباب أيقظتنا، وفتحت الباب، واستعنت بضوءٍ القمر في الرؤية؛ لأجد أمامي تشون شينغ الذي جعلت الأورام رأسه مستديرا، وأقول:

«يا تشون شينغ، ادخل بسرعة».

يقف تشون شينغ في الخارج، ويرغب عن الدخول، ويسأل:

«هل زوجتك بخير؟».

أخاطب جياشين قائلا:

«يا جياشين، الطارق على الباب هو تشون شينغ».

تجلس جياشين على حافة السرير، ولا تقدم ردا، وأطلب من تشون شينغ أن يدخل، ولم تنطق جياشين بحرف، وتشون شينغ لا يدخل بيتنا، ويقول:

«يا فو قوي، اخرج».

تلفّتُّ وخاطبت جياشين مرة أخرى:

«يا جياشين، حضر تشون شينغ».

مازالت جياشين لا تعيرني اهتماما، واضطررت أن أطرح الملابس على منكبي، وأخرج، ويسير تشون شينغ إلى أسفل تلك الشجرة أمام دارنا، ويخاطبني قائلا:

«يا فو قوي، حضرت من أجل توديعك».

فسألته:

«أين تذهب؟».

يصرّ على أسنانه، ويقول بصرامة:

«لا أريد أن أعيش».

ألجمتني الدهشة، وأشد ذراعه في التو، وأقول:

«يا تشون شينغ، أنت مشوش الذهن، وتعيل ابنا وابنة».

يجهش تشون شينغ بالبكاء عندما يسمع كلامي، ويقول:

«يا فو قوي، يعلقونني بالحبل ويضربونني كل يوم».

يتكلم ويمد يده، ويقول:

«تحسس يدي».

عندما أتحسس يده، أكتشف أنها ساخنة جدا مثل الطبخ، وأشعر بالخوف، فأسأله:

«أتشعر بالألم؟».

يومئ برأسه، ويقول:

«لا أشعر بالألم».

أضغط على كتفه إلى أسفل، وأقول:

«يا تشون شينغ، أجلس أولا.. لا تكن مشوش الذهن أيا كانت الأسباب، فالأموات يتطلعون إلى العودة إلى الحياة، وأنت إنسان حي عظيم لا يمكن أن تبحث عن الموت حقا».

ثم أردف قائلا:

«حياتك سببها أمك وأبوك، وإذا كنت لا تريد الحياة يجب عليك أن تذهب أولا إليهما وتسألهما».

يمسح تشون شينغ دموعه، ويقول:

«أبي وأمي رحلا عن دنيانا منذ وقت مبكر».

فأقول:

«إذن، يجب عليك أن تعيش الحياة على أحسن وجه، وفكر مليا أنك خضت حروبا كثيرة في طول البلاد وعرضها، ومازلت على قيد الحياة، أتشعر أن ذلك أمر سهل؟».

في ذلك اليوم، تحدثت كثيرا وطويلا مع تشون شينغ. تختلس السمع إلينا جياشين التي تجلس على السرير داخل الغرفة، وحالما كاد الليل يسدل سدوله، يبدو أن تشون شينغ اقتنع ببعض كلامي، وهب واقفا وقال إنه ينصرف، وجياشين في الداخل آنذاك، تصرخ:

«يا تشون شينغ».

أصابنا الذعر، وتصرخ جياشين مرة أخرى، حتى يستجيب لها تشون شينغ، وتشير إلى مدخل الباب، وجياشين على السرير

تقول:

«يا تشون شينغ، يجب عليك أن تعيش الحياة».

يومئ تشون شينغ برأسه، وتبكي جياشين في الداخل، وتقول:

«أنت مازلت مدينا لنا بحياتك، إذن تكون حياتك سدادا لهذا الدين».

يقف تشون شينغ هنيهة، ويقول:

«أعرف ذلك».

أقوم بتوديع تشون شينغ إلى مدخل القرية، ويطلب مني أن أكف عن السير، وأنه لا داعي لتوديعه، فأقف في مدخل القرية، وأحملق فيه وهو يمشي، لقد بات أعرج بعد أن أشبعوه ضربا، وينكس رأسه ويمشي بصعوبة بالغة. شعرت بعدم الاطمئنان، وأصرخ في وجهه:

«يا تشون شينغ، يجب أن تستجيب لنا وتعيش الحياة».

يلتفت بعد أن خطا بضع خطوات، ويقول:

«أعدك أنني أعيش الحياة».

فيما بعد، لم يف تشون شينغ بما وعدني، فقد سمعت بعد أكثر من شهر أن المحافظ ليو في المدينة قد مات شنقا. حياة المرء إذا طال أمدها مرة أخرى، وإذا أراد الموت، إذن لا يستطيع أن يعيش. أخبرت زوجتي جياشين بذلك، وبعد أن سمعت كلامي لم تتحمله طوال اليوم، وتقول في جوف الليل:

«في الحقيقة، لا نستطيع أن نلوم تشون شينغ في حادثة موت ابننا يوي تشينغ».

أكرس وقتي من أجل الفلاحة في الحقل، ولا أستطيع الذهاب دائما إلى المدينة لزيارة فينغ شيا، ومن حسن الطالع

أنه لا داعي لأن أشعر بالقلق آنذاك، حيث إن الكومونة الشعبية تعمل مع أهالي القرية سويا. ومازالت جياشين غير قادرة على النزول من السرير. أستيقظ مبكرا أتحسس الظلام لأنني لا أستطيع تأخير الأعمال في الحقل، كما لا أستطيع أيضا أن أجعل جياشين تتضور جوعا، الإنسان في شقاء حقا. تقدمت بي السنون، ولو كنت في عنفوان الشباب في العشرين ربيعا أنام نوما قصيرا وأشعر بالراحة، ولكن أنا في هذه المرحلة العمرية أشعر بالإعياء وأستغرق في النوم طويلا ولا يعوضني ذلك عن شعوري بالإرهاق. لا أستطيع أن أرفع ذراعي عند العمل، وأندس في صفوف أهالي القرية، وأتظاهر فقط بهذا المنظر يوميا، وهم يدركون المصاعب التي أواجهها، ولا ينتقدني أحد منهم.

في موسم النشاط الزراعي زارتنا فينغ شيا ومكثت بضعة أيام، وتقوم بالطهي وغلي الماء بدلا مني، كما تعتني بأمها جياشين.. شعرت بالاسترخاء والراحة كثيرا. وعلى كل حال، يجول في ذهني أن الابنة التي تكون مثل الماء المرشوش، والابنة فينغ شيا هي زوجة أرشي منذ زمن بعيد، ولا تستطيع أن تمكث طويلا في بيتنا.

تشاورت مع جياشين أنه يجب علينا أن نطلب من فينغ شيا أن تعود إلى بيتها، ولذا طردتها، ودفعتها بيدي دفعا حتى مدخل القرية، فضحك أهالي القرية بهدوء عندما شاهدوا ذلك المشهد، وذكروا أنهم لم يروا أبا مثلي على هذا النحو. وضحكت بهدوء أيضا عندما سمعت كلامهم. أفكر أنه لا توجد ابنة في بيوت القرية مثل ابنتي فينغ شيا تعامل أباها معاملة حسنة هكذا، وقلت:

«فينغ شـيا إنسـان قائم بذاتـه، تقوم علـى رعايتي ورعاية جياشين، ولا تستطيع الاعتناء بزوجها صاحب الرأس المائل».

تعود فينغ شيا إلى المدينة بعد أن طردتها، ثم عادت إلينا مرة أخـرى بعد انقضاء فترة وجيـزة، وحضر معها زوجها. الزوجان تتعانق أيديهما ويسـيران في مكانٍ ناءٍ، ورأيتهما من بعيد جدا، وعرفتهمـا من تعانق أيديهمـا بصرف النظر عن رؤية أرشـي صاحب الرأس المائل. يحمل أرشـي زجاجة خمر الرز الأصفر، ويبتسـم ابتسامة عريضة بلا انقطاع، أما فينغ شيا فتحمل سلة بامبو بذراعها والابتسامة على ثغرها مثل زوجها. فكرت ماذا في جعبتهما من أخبار سـارة؟ وعلام كل هذه الأمارات من السعادة التي تبدو عليهما؟

أوصد أرشي الباب بعد أن وصل إلى البيت، ويقول:

«يا أبي، يا أمي، فينغ شيا حُبلى».

تحتضن فينغ شـيا طفلا في أحشـائها، وترتسـم ابتسامة عريضة على شـفتي وجياشـين أيضا. ونضحـك نحن الأربعة فترة طويلة، ثم يتذكر أرشـي أنه يحمـل بيده زجاجة خمر الرز الأصفر، ويسـير إلى مقربة من السـرير، ويضع زجاجة الخمر على الطاولة المسـتطيلة الصغيرة، وتُخرج فينغ شيا سلطانيات حبوب القرنيات. وأقول:

«نجلس فوق السرير، نجلس فوق السرير».

تجلس فينغ شـيا بجوار جياشـين، بينما يجلس أرشي في المقدمة، وأنـا أحمل السـلطانيات الأربع. أرشـي يصب لي الخمر، ويصب الخمر لجياشـين في السلطانية حتى آخرها، كما يصب الخمر لفينغ شـيا، تمسك فينغ شيا زجاجة الخمر

بيدها، وتهز رأسها مرارا وتكرارا، ويقول أرشي:

«يا فينغ شيا، أنتِ تشربين الخمر اليوم أيضا».

يبدو أن فينغ شيا فهمت كلام أرشي، ولم تهز رأسها مرة أخرى. وأحمل السلطانية بيدي، وترتشف فينغ شيا جرعة خمر وتقطب جبينها، وتحدق في جياشين التي تقطب جبينها أيضا، وتفتر شفتاها عن بسمة. أحتسي أنا وأرشي الخمر في نفس واحد حتى آخر قطرة في قاع السلطانية. سلطانية الخمر انزلقت داخل البطن، وتنهمر دموع أرشي، ويقول:

«يا أبي، يا أمي، لم يخطر ببالي ولا في الأحلام أن أعيش وأرى مثل ذلك اليوم المبهج».

الدموع تخضب عيون جياشين عندما سمعت تلك الكلمات في التو. كما تسح دموعي عندما أحملق في منظر جياشين، وأقول:

«وأنا أيضا لم يخطر ببالي، في البداية كان أكثر ما يثير قلقي ومخاوفي أنني وجياشين نموت أولا، وماذا تفعل فينغ شيا بعدئذ؟ وشعرنا بالاطمئنان عندما تزوجت فينغ شيا، والأكثر روعة أنها حُبلى وتلد طفلا يدفنها بعد موتها».

تنظر إلينا فينغ شيا وتبكي، وتتدفق دموعها بغزارة، تبكي جياشين وتقول:

«كم يكون رائعا لو كان يوي تشينغ مازال على قيد الحياة، وحظي بعناية شقيقته فينغ شيا حتى كبر، وهما شقيقان، ولم يشهد يوي تشينغ معنا ذلك اليوم المبهج».

يبكي أرشي بصورة أكثر حزنا وألما، ويقول:

«وكم يكون رائعا أيضا لو كان والداي مازالا على قيد الحياة.

عندما رحلت أمي عن دنيانا قبضت على يدي بإحكام شديد ولم تحررها».

يشعر الأشخاص الأربعة بالحزن والألم كلما بكوا، ويبكون فترة من الزمن، ويضحك أرشـــي مرة أخرى، ويشـــير إلى سلطانيات حبوب القرنيات، ويقول:

«يا أبـــي، يا أمي، كُلا حبوب القرنيات لقد قامت فينغ شـــيا بتجهيزها».

أقول:

«أنا أتناول تلك القرنيات، يا جياشين، وأنتِ تأكلين أيضا».

انظر أنا وجياشين باستمرار إلى أرشي وفينغ شيا، ونجدهما ينخرطان في نوبة من الضحك، وسـيكون لدينا حفيد حالا. في ذلك اليوم، كنــا نحن الأربعة في حالة من الضحك والبكاء حتى تلفع الكون بسواد الليل، وعادت فينغ شيا وزوجها إلى بيتهما.

تحمل فينغ شـيا طفلا في بطنها، وأرشـــي يحبها حبا جما. وبعد قدوم الصيف، تغص الغرفة بالبعوض ولا توجد ناموســية، وعندما يأتي المســاء، يمد أرشـــي جســـمه على السرير ويتغذى البعوض على دمه، ويجعل فينغ شـيا تجلس في الخارج تستمتع بأنسام المساء، وينتظر حتى البعوض داخل الغرفة يتغذى ويشبع ولـــم يعد يلدغ مرة أخرى، ثم يطلب من فينغ شـــيا أن تأوي إلى فراشها. تدلف فينغ شـــيا إلى الداخل مرات عديدة للاطمئنان على زوجها الذي يشعر بقلق بالغ، ولكن يدفعها إلى الخارج. وقد أخبرتني بذلك جارات أرشي، ويخاطبن أرشي قائلات:

«اشتر ناموسية».

يضحك أرشـــي ولا ينطـــق بحرف، ويحملق في الســـماء، ثم

يخاطبني قائلا:

«أشعر بقلق بالغ، لم أسدد ديني».

انفطر قلبي حزنا عندما رأيت جسمه يغص بالبقع الحمراء من جراء لسعات البعوض، فأقول له:

«لا تتصرف على هذا النحو».

يقول أرشي:

«أنا شخص واحد، يلسعني البعوض مرات عديدة لا يحصل على شيءٍ ثمين، ولكن فينغ شيا تعتبر شخصين، حيث تحمل طفلا في أحشائها».

أنجبت فينغ شيا طفلها في فصل الشتاء، وتساقطت الثلوج بصورة كثيفة في ذلك اليوم، كانت الأشياء تبدو مبهمة وغير جلية خارج النافذة. ومكثت فينغ شيا في غرفة التوليد طوال الليل ولم تخرج، وتنتابني المخاوف أنا وأرشي كلما طال انتظارنا في الخارج. وتخرج طبيبة ونهرول إليها ونسألها وتعرف أن فينغ شيا لم تلد بعد، ونشعر بالاطمئنان إلى حدٍ ما. ويقول أرشي عند انبلاج نور الفجر:

«يا أبي، عد إلى البيت ونم».

أطأطئ رأسي، وأقول:

«قلبي قلق على ابنتي ولا أستطيع النوم».

يسدي أرشي النصح إليّ قائلا:

«نحن الاثنان لا يمكن أن يكبل كل منا الآخر، وعندما تلد فينغ شيا تحتاج فعلا إلى من يقوم على رعايتها».

أفكر مليا في كلامه وأعتقد أنه صائب، ثم أقول:

«يا أرشي، أنت أولا ارجع إلى البيت ونم».

يحث كل واحد منا الآخر على العودة والنوم في البيت، وأخيرا، لم ينم أحد حتى سطعت أشعة الشمس في صفحة السماء، ومازالت فينغ شيا في غرفة التوليد. ويداهمنا الخوف من جديد، ولاسيما أن المرأة التي دخلت غرفة التوليد بعد فينغ شيا، أنجبت طفلها وانصرفت، ولم نستقر في مقاعدنا، واقتربنا من الباب نسمع الأصوات في الداخل، وسمعنا صراخ امرأة، فشعرنا بالاطمئنان. يقول أرشي:

«فينغ شيا تتعرض للعذاب والشقاء».

شعرت أننا وقعنا في الخطأ، لأن فينغ شيا بكماء ولا تستطيع الصراخ، وامتقع وجه أرشي بعد أن سمع كلامي، ركض إلى باب غرفة التوليد وصرخ بقوة:

«يا فينغ شيا، يا فينغ شيا».

تخرج طبيبة من تلك الغرفة، وتنادي أرشي قائلة:

«علام كل هذا الصراخ؟ انصرف من هنا».

ينتحب أرشي ويبكي، ويقول:

«زوجتي لم تخرج حتى الآن».

هناك شخص على مقربة منا، يخاطبنا قائلا:

«تكون ولادة الطفل سريعة أحيانا، وتكون بطيئة أحيانا أخرى».

أتبادل نظرات القلق واللهفة مع أرشي، ونفكر مليا ربما تسير الأمور على هذا المنوال، ونجلس على مقاعدنا وننتظر مرة أخرى، وتضطرب نبضات قلوبنا، ولم تمض فترة طويلة، لتخرج طبيبة، وتسألنا:

«أتريدون الزوجة؟ أم تريدون الطفل؟».

توجه إلينا هذا السؤال، وتجعلنا في حالة من البلاهة والبلادة، وتردف:

«هيه، أسألكما».

يطب أرشي على الأرض، ويركع أمامها، ويبكي ويصرخ قائلا:

«أيتها الطبيبة، أنقذي فينغ شيا، أنقذي زوجتي، أريد فينغ شيا».

ينفجر أرشي باكيا على الأرض، وأسنده حتى ينهض واقفا، وأسدي إليه النصح بألا يتصرف على هذا النحو، ولا يسبب ضيرا لنفسه، وأقول:

«مادامت فينغ شيا بخير، يعتبر كل شيءٍ على ما يرام. ويقول المثل الشعبي: لا خوف من نفاد الحطب مادامت الجبال خضراء».

يدوي صوت أرشي قائلا:

«مات ابني».

وأنا أفتقد حفيدي أيضا، وتتدلى رأسي إلى أسفل ويدوي صوت بكائي في الآفاق، ومع قدوم الظهر، خرجت طبيبة تقول:

«تمت الولادة، والمولود ذكر».

أرشي في عجالة من أمره عندما سمع كلامها، ويقفز في الهواء ويصرخ:

«أنا فقدت ابني».

وتردني الطبيبة:

«والأم حالتها طيبة أيضا».

فينغ شيا بخير وفي حالة جيدة، وتصيبني الدوخة، لقد أصبحت طاعنا في السن، يتألم جسمي ولا أستطيع النهوض. وأرشي يشعر بفرحة غامرة، ويجلس على مقربة مني ويتمايل

جسمه من شدة الضحك. وأخاطبه قائلا:

«أشعر الآن بالهدوء والاطمئنان، وأستطيع النوم، أحضر إليك بعد لحظة لنتبادل المناوبة».

لم يتوقع أحد أن فينغ شيا تتعرض لحادث مؤسف فور انصرافي، وبعد بضع ثوانٍ من مغادرتي، هرول عدد من الأطباء إلى غرفة التوليد يجرّون أسطوانة الأوكسجين أيضا، لقد تعرضت فينغ شيا لنزيف دم شديد بعد ولادتها، وجادت بالنفس الأخير قبل هبوط الظلام.

لقي اثنان من أبنائي حتفهما من جراء الولادة؛ فقد كانت وفاة ابني يوي تشينغ بسبب ولادة طفل أناس آخرين، أما وفاة ابنتي فينغ شيا فكانت بسبب ولادة طفلها.

في ذلك اليوم، يتساقط الثلج بصورة كثيفة بصفة خاصة، وجثمان فينغ شيا مسجى في تلك الغرفة الصغيرة بعد أن فاضت روحها، ولم أتحمل الدخول إلى تلك الغرفة وألقي عليها نظرة؛ حيث شقيقها يوي تشينغ لفظ النفس الأخير في الغرفة نفسها. تسمرت قدماي وسط الثلوج، وأسمع أرشي في الداخل ينادي فينغ شيا بقوة، فأشعر بحزن شديد وأجلس القرفصاء على الأرض. وتتساقط رقع الثلج، ولا أرى باب الغرفة بوضوح. سمعت فقط أرشي في الداخل يبكي، ويصرخ أيضا؛ ويخاطبني قائلا:

«أريد زوجتي، ولكنهم أعطوني طفلا».

أقول:

«نعود إلى دارنا، وهناك ثأر بيننا وبين هذا المستشفى، فقد مات يوي تشينغ هنا، وكذلك ماتت فينغ شيا هنا. يا أرشي، نرجع

أدراجنا».

أرشـــي يسمع كلامي، ويحمل فينغ شـــيا على ظهره، ونمشي نحن الثلاثة صوب دارنا.

كانت الســماء مظلمة في ذلك الحين، والشارع يغص بالثلوج، ولا ترى فيه إنســانا، وتزأر الريح الشــمالية الغربية، ورقع الثلج تلفح وجهي مثل حبات الرمال، وصوت بكاء أرشـــي بات مكتوما، وبعد أن قطع جزءا من الطريق، ويقول:

«يا أبي، أنت غير قادر على السير».

أطلب منه أن أحمل فينغ شيا بدلا منه، ولكنه يرفض ويمشي بضع خطوات ويجلس على الأرض، ويقول:

«يا أبي، أشعر بألم شديد في خاصرتي ولا أستطيع المشي».

أرشـــي يبكي بحرقة من شـــدة الألم فـــي خاصرته، وبعد أن رجعنا إلى دارنا، يضع أرشـــي فينغ شـــيا فوق السرير، ويجلس علـــى حافته، ويحملق بها، وينكمش جســـمه ويصبح مســـتديرا، ولا أحتـــاج إلى النظر إليه، حيث أرى ظله وظل فينغ شـــيا على الحائط، مما جعلني أشـــعر بالحزن ولا أتحمل رؤيته باستمرار، ويكبر هذان الظلان كلما اشـــتد سوادهما؛ أحدهما ممدود على الســـرير، والآخـــر قابع على الأرض، وكلاهمـــا لا يتحرك البتة، ونشـــعر فقط أن دموع أرشي تتدفق بغزارة، مما جعلني أرى بين ظليهما قطرات دموع ســـوداء كبيرة تتدحرج بينهما. وســـارعت إلى المطبخ حتى أغلي الماء، وأجعل أرشـــي يحتسي الماء الساخن ويدفئ جسمه، وعندما حملت الماء بعد غليانه وأطفأت المصباح، كان أرشي وفينغ شيا يغطان في نوم عميق.

في ذلك المساء، جلست في مطبخ أرشي حتى انبلاج الصباح،

والريح تعول بشـــدة في الخارج، وبعد فترة تتســـاقط رقع الثلج وترتطم بالأبواب والنوافذ وتحدث دويا شديدا. ينام أرشي وفينغ شيا في داخل الغرفة ولا نسمع صوتا، وتتسلل الريح الباردة من شـــقوق الباب وتخترق عظامي، وتهب بشـــدة، وأشعر بالألم في ركبتي مـــن جراء البرد. وأحس بوخزات فـــي قلبي فترة طويلة، ويصبح مثل قطعة الثلج، لقد فقدت ابني وابنتي على هذا النحو، وجفت دموعي عندما أردت أن أبكي آنذاك. تذكرت أن جياشين وقتئذ تفتح عينيها وتنتظـــر عودتي لإبلاغها أخبار ابنتها، حيث أوصتني مرات عديدة عند انصرافي أن أنتظر حتى تنجب فينغ شـــيا طفلها، وأعود إليها في التو وأبلغها إذا كان المولود ذكرا أو أنثى. ولكن فينغ شـــيا فاضت روحهـــا، فكيف أرجع إليها؟ وماذا أقول لها؟

كانت جياشـــين تتمالك نفسها بعض الشيء عندما رحل يوي تشـــينغ، والآن أمامها ابنتها فينغ شـــيا بعد أن لفظت أنفاسها، ولا يتحمـــل قلب الأم رؤيتهـــا. وفي اليوم التالي، يحمل أرشـــي زوجته فينغ شيا ونرجع سويا إلى دارنا. ومازالت الثلوج تتساقط آنذاك، ويبدو جســـم فينغ شيا ناصع البياض تقريبا كأنما يتشح بالقطن. ورأيت جياشـــين تجلس على الســـرير بمجرد دخولي، وشـــعرها مبعثر، ورأســـها تتكئ على الحائط، وعرفت أن قلبها يحدثها بأن ابنتها تعرضت لحادث مؤســـف؛ حيث إنني لم أرجع إلى بيتي منذ يومين وليلتين. وتتدفق دموعي كالنهر، وأرشـــي لا يبكـــي أصلا، بيد أنه ما لبث أن انخرط فـــي البكاء عندما رأى جياشين، ويصرخ قائلا:

«يا أمي، يا أمي..».

تحرك جياشين رأسها وتنأى عن الحائط، وتسلط عينيها على فينغ شيا التي يحملها أرشي على ظهره. وأساعد أرشي ليضع فينغ شيا فوق السرير، وتنكس جياشين رأسها وتفحص فينغ شيا بعينين جاحظتين كأنما يخرجان من محجريهما بسرعة، ولم يخطر ببالي أيضا أن جياشين تبدو متماسكة حيث لا تذرف الدموع، وتكتفي بأن تنظر إلى فينغ شيا وتتحسس وجهها وشعرها بيدها. أما أرشي فيبكي ويجثو على الأرض ويسند رأسه على حافة السرير. أقف جانبا وأحملق في جياشين ولا أعرف كيف ستكون حالتها في الأيام المقبلة، حيث إنها في ذلك اليوم لم تترقرق دموعها ولم تصرخ أيضا، واكتفت بأن تومئ برأسها في بعض الأحيان. وبعد ذوبان الجليد المتراكم على جسم فينغ شيا رويدا رويدا، تبلل الفراش كله.

دفنت فينغ شيا مع يوي تشينغ، وتوقف سقوط الثلج آنذاك، وتخترق أشعة الشمس طبقات السحب وتسلط ضوءها على الأرض، وتزأر الريح الشمالية الغربية بوحشية، ويدوي صفيرها في الآفاق متفوقا على حفيف أوراق الأشجار.

دفنا فينغ شيا، وحملت أنا وأرشي المعزقة والجاروف، وتهب الريح بسرعة وتزلزل أقدامنا على الأرض، وأديم الأرض يكتسي بالثلوج، وضوء الشمس الساطع يخز عيوننا بقوة، ولا يوجد سوى قبر فينغ شيا لا تغطيه الثلوج، وتغوص أقدامنا في الأوحال ولا نستطيع الحراك، ويشير أرشي إلى مكان خال بجوارنا، ويقول:

«يا أبي، ادفنوا جثتي هنا بعد وفاتي».

أتنفس الصعداء، وأقول له:

«اتركوا قطعة الأرض هذه لي لأنني أموت قبلك».

بعــد دفن جثة فينغ شــيا، نســتطيع أن نُحضــر الطفل من المستشفى. يحمل أرشــي ابنه ويقطع مسافة خمسة كيلومترات وأكثر عائدا إلى دارنا، ويضع الطفل فوق الســرير، ويقطب ذلك الطفل جبينه عندما يفتــح عينيه، وترنو مقلتاه إلينا، ولا أعرف ماذا يرى. أضحك أنا وأرشي عندما نرى منظر ذلك الطفل. أما جياشين فلم تضحك البتة، وتحدق في الطفل بعينين جاحظتين، وتضع إصبعها بجوار وجهه، ولم تتغير تعابير وجهها بعد أن رأت جثة فينغ شــيا. وأشعر بالاضطراب والقلق، ومنظرها بث الفزع في أقطار نفسي، ولا أعرف ماذا أصابها. بعد ذلك، يرفع أرشي وجهه، ويكف عن الضحك في التو عندما يرى جياشين، وتتدلى ذراعاه، ويقف هناك، ولا يدري ماذا يفعل بالضبط، وبعد انقضاء فترة طويلة يخاطبني أرشي بصوتٍ خفيض قائلا:

«يا أبي، اختر اسما للطفل».

تفتح جياشــين ثغرها آنــذاك وتتفوه بالكلمات، ويتحشــرج صوتها، وتقول:

«هذا الطفل فقد أمه بعد ولادته، ولذا نطلق عليه اسم كوقن (الجذر المر)».

فاضت روح جياشــين أيضا في غضون أقل من ثلاثة أشــهر عقب وفاة فينغ شــيا، وكانت جياشــين تخاطبني دائما في تلك الأيام قبيل وفاتها، وتقول:

«يا فو قوي، أنت شيعت جنازة يوي تشينغ، وفينغ شيا، وأعتقد أنك سوف تدفنني بيدك، فكن مرتاح البال».

تدرك جياشين أنها على شفير الموت، ومع ذلك تبدو مطمئنة. فقــدت قوتها وتجلس بمفردها آنــذاك، وتغمض عينيها وتتمدد

على السرير، وأذنها مرهفة، وعندما أنتهي من العمل أرجع أدراجي وأدفع الباب، فتفتح عيونها وتحرك ثغرها وأدرك أنها تتحدث إليّ، فقد كانت ثرثارة في تلك الأيام بصفة خاصة، وأجلس على السرير، ويدنو وجهي منها حتى أسمع كلامها حيث كان صوتها خفيفا مثل نبض القلب. وعندما يكون المرء على قيد الحياة ويتعرض للمزيد من الشقاء والعذاب، فإنه يفكر في طريقه يواسي نفسه عندما يكون على حافة الموت، وقد اقتنعت جياشين بهذه الفكرة ساعتئذ، وتخاطبني مرارا وتكرارا قائلة:

«عمري يكاد يأفل نجمه، وأشعر بارتياح شديد لمعاملتك الطيبة، ومن أجلك أنجبت ابنا وابنة، ويعتبر ذلك وفاء لأفضالك عليّ، ويحدوني الأمل بأن نكون سويا في الحياة المقبلة».

تقول جياشين إنها ترغب في أن تكون زوجتي أيضا في الحياة المقبلة، وتنهمر دموعي وتتدفق وتبلل وجهها، وتفصح عيونها عن ضحكتين خفيفتين، وتقول:

«لقد ماتت ابنتي فينغ شيا وابني يوي تشينغ قبلي، وأنا مرتاحة البال، ولا داعي لأشعر بالقلق من أجلهما، ومهما قلت فأنا الأم والزوجة، وعندما كان الطفلان على قيد الحياة يعرفان البر بالوالدين، والإنسان الشريف يستطيع أن يصبح مثلي ويجب أن يرضى بمصيره».

كما تحدثت عني وقالت:

«يجب عليك أن تعيش حياتك على أفضل وجه، ويعيش معك كوقن وأرشي. وفي الواقع، إن أرشي يعتبر ابنك أيضا، وعندما يكبر كوقن يعاملك معاملة طيبة مثل يوي تشينغ، ويكون ابنا مطيعا بارا بوالديه».

كانت وفاة جياشـــين في منتصف النهار، ورجعت إلى بيتي بعـــد انتهاء العمل، وكانت تفتح عينيهـــا، واقتربت منها حتى أســـمع كلامها، ثم دلفت إلى المطبخ أطهو سلطانية عصيدة من أجلهـــا. وعندما حملـــت العصيدة وذهبـــت إلى مقدمة الســـرير، تقبض جياشـــين، التي تغمض عينيهـــا، على يدي بإحكام شديد، ولم يخطر على بالي أنها مازالت تتمتع بالقوة على هذا النحو، فألجمتني الدهشـــة، وعندما حاولت سحب يدي بهدوء لم أستطع، ووضعت العصيدة بسرعة على المقعد، ومددت يدي أتحســـس جبهتهـــا، ووجدتها مازالـــت دافئة، وشـــعرت بالاطمئنـــان إلى حدٍ ما آنذاك. تبـــدو على وجهها أمارات الهدوء والاســـتقرار كأنما تغـــط في النوم، ولا تظهر عليهـــا أي أمارات من الإعياء وعدم القدرة على التحمل. ولا يدري أحد أن يدي التي تمســـكها جياشـــين أصبحت باردة، وأتحســـس ذراعها، وأجده يبرد تدريجيا، كما بردت ساقاها آنذاك أيضا، بل أصبح جســـمها كله باردا باستثناء جزء من صدرهـــا مازال دافئا. أضع يدي على صدرها، وأشـــعر بأن حرارة صدرها تتســـلل من بين شـــقوق أصابعي. وبعد ذلك، ارتخت يدي التي تقبض عليها، ثم سقطت على ذراعي خائرة القوة».

* * *

يقول فو قوي:

«كانت وفاة جياشين في هدوء ودعة».

كانت الظهيرة قاربت على الانتهاء وقتئذ، وقد بدأ الأشخاص الذين يعملون في الحقول مثنى وثلاثا يسيرون على الممر الترابي،

والشـــمس تتوسد الجانب الغربي في الســماء، ولم تعد مشرقة مرة أخــرى، وأصبحت قرصا يتوهج احمرارا ويختفي وراء كثب من السحب المتوردة.

ينظر إليّ فو قوي مبتسما، وضوء الشمس الغاربة يسطع على وجهه، وتبدو معنوياته مرتفعة بصورة خاصة، ويقول:

«ماتت جياشـــين في هدوء، ماتت في اطمئنان وسكينة، ماتت خالية الوفاض ولم تترك وراءها شيئا، ولم تتعرض للقيل والقال بعد موتها من قبل الناس مثل بعض النسوة في القرية».

الرجــل العجــوز الجالس أمامــي يتحدث بهــذه النبرة عن زوجته التي فاضت روحها منذ عشــر ســنوات ونيف، مما جعل المشــاعر الدافئة تتدفق داخلي ويصعــب التعبير عنها مثل كتلة من الحشــيش الأخضر تتمايل في خضــم الريح، ورأيت الهدوء مضطربا في مكانٍ قاص.

تشــهد الحقول، بعد انصراف المزارعين مــن البقاع كافة، حالة من الاسترخاء، وتبدو فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف، وتغطيها الأضواء الســاطعة مثل الحياة تحت أشــعة الشمس الغاربة. ويضع فو قوي يديه على ساقه، ويغمض عينيه نصف إغماضة، وينظر إليّ، ومازال لا يعتزم النهوض واقفا، وأعرف أنه لم ينتهِ بعد من ســرد قصته، وأريد أن أنتهز هذه الفرصة وقبل أن ينهض واقفا، طلبت منه أن يحكي كل الأحداث الباقية في حياته، وسألت:

«كم يبلغ عمر كوقن الآن؟».

تشع تعابير الاستغراب من عيون فو قوي، ولا أستطيع تميزها إذا كانــت تعابير حزن أم أمارات ســعادة، وتتســلل نظراته عبر

خصلات شعري إلى مكان ناءٍ، ثم يقول:

«إذا احتكمنا إلى حساب مواسم الحصاد، فإنه هذا العام يبلغ سبع عشرة سنة».

* * *

بعد أن رحلت جياشين عن دنيانا، لم يبق لديّ سوى أرشي وابنه كوقن، أرشـــي يصرف بعض النقود، ويطلب من أحد الأشخاص أن يضع له جيب الظهر حتى يحمل كوقن على ظهره طوال اليوم، ويشـعر بالإعياء الشـــديد عندما يعمل في نقل البضائع، ويجر عربـــة كارو تغص بالبضاعة، كما يجب عليه أن يحمل كوقن على ظهره، ولذا أنفاســـه مخنوقة من شـــدة التعـــب. كما يحمل على ظهـــره صُرة يـــدس داخلها حفاضات الطفـــل كوقن، وفي بعض الأحيان يكون الجو ملبـــدا بالغيوم ولم يجف حفاض الطفل ولم يغيـــره، ومن ثم اضطر لأن يثبّت ثلاث قصبات بامبو فوق عربته المســـطحة، من بينها قصبتان تنصبان رأســـيا، والقصبة الثالثة يســـتعرضها أفقيا يشـــمس فوقها الحفاضات. عندما رأى ذلك أهل الحضر ســـخروا منه، ويعرف الرفاق الذين يعملون معه أن حياته شاقة ومريرة، وعندما رأوا أحد الأشخاص يهزأ به، لعنوه قائلين:

«عـــلام كل هـــذا الضحك أيهـــا الوغد؟ ســـنجعلك تبكي إذا سخرت منه مرة أخرى».

يبكي كوقن في جيب الظهر، ويسمع أبوه صوت بكائه ويعرف أن طفله جائع أو تبول، ويخاطبني قائلا:

«إذا كان صـــوت البكاء طويـــلا يعني أنه جائـــع، أما إذا كان قصيرا فيعني أنه تبول ولا تتحمل مؤخرته البلل».

في الواقع، كوقن يهمهم بالبكاء بعد التبول والتبرز، وفي البدء يشعر أنه يضحك، ويدرك هذا الطفل الغرير أن أصوات البكاء متباينة، ويعتبر ذلك بمثابة حب الابن لأبيه الذي يخبره على حين غرة برغباته، ولا داعي لأن يثقل كاهله بعبء الأعمال.

إذا شعر كوقن بالجوع، يوقف أرشي العربة الكارو ويبحث عن امرأة تُرضع الأطفال، ويعطيها ماوا (فلسا)، ويقول بصوت خفيض:

«أرجوكم، إرضاع ابني عدة جرعات».

أرشي يختلف عن آباء الأطفال الآخرين، حيث يقوم على تربية ابنه حتى يكبر، ويشعر بأن ابنه زاد وزنه بعض الشيء بعدما صار يحمله على ظهره، مما يجعله يدرك أنه شب عن الطوق إلى حدٍ ما أيضا، وطبعا يشعر بالسعادة بصفته أبا، ويقول لي:

«ابني كوقن زاد وزنه أيضا».

أغشى المدينة لزيارتهما، وأرى دائما أرشي يجر العربة الكارو، ويسير في الشارع ويتصبب عرقا، وكوقن في جيب الظهر يتدلى رأسه الصغير في الخارج ويتمايل يُمنة ويُسرة، وأرى أرشي هدّه التعب، وأنصحه أن يعطيني كوقن ويمكث معي في القرية، ولكن أرشي لا يوافق، ويقول:

«يا أبي، يعز عليّ فراق كوقن».

ومن حسن الطالع أن كوقن يشب عن الطوق بسرعة ويستطيع المشي، وأرشي يستريح بعض الشيء. وعندما يقوم بتحميل وتفريغ عربته يطلب من ابنه أن يلعب بجواره، ثم يضعه على العربة عندما يجرها. وبعد أن كبر كوقن إلى حدٍ ما، بدأ يعرفني ويسمع دائما والده يناديني بـ «يا أبي»، ويتذكر

ذلــك جيدا، وكل مــرة أذهب لزيارتهما فـــي المدينة، يحملق في وجهي كوقن الجالس على العربة الكارو، ويصرخ بصوتٍ حاد في التو، وينادي أرشي قائلا:

«يا أبي، جاء أبوك».

عندما يكون ذلك الطفل في جيب ظهر والده، يسب الآخرين، وعندمـــا يغضب يدمـــدم بكلمات غير مفهومـــة وتحمر خدوده، ولا يعرف أحد ماذا يقول، ونرى لعابه يســيل ويتطاير في الهواء، ويعرف أرشي ما يعتمل داخل ابنه، ويبلغني قائلا:

«كوقن يسب الناس».

بعــد أن تمكــن كوقن من المشـــي والكلام، بــات أكثر فطنة، وعندمـــا يرى دُمى جميلة في أيـــادي الأطفال الآخرين، يضحك بهدوء ويلوح بيده بقوة، ويقول:

«تعالوا، تعالوا، تعالوا».

يسير هؤلاء الأطفال إليه، ويمد يده ويحاول أن يخطف الدمى التــي في أيديهم، ولكنهم يرفضون، ويمتقع وجهه، ويطردهم في غضب عارم، ويقول:

«انصرفوا، انصرفوا، انصرفوا».

لم تعد الروح إلى أرشـــي مرة أخرى بعـــد رحيل زوجته فينغ شـــيا، وهو مقتضب فـــي حديثه أصلا، وبات كلامـــه أكثر ندرة بشـــكل أكبر بعـــد وفاتها أيضا. وعندما يتحـــدث إليه الآخرون، يكتفـــي بالدمدمة والهمهمة، ولا يتفوه ببعـــض الكلمات إلا عند رؤيتـــي. أصبح كوقن دم الحياة في عروقنا، ويصبح أكثر شـــبها بفينغ شيا كلما كبر، ويجعلنا أكثر إدراكا لما يعتمل في داخلنا ولا نســـتطيع تحمله. وفي بعض الأحايين، تسيل دموع أرشي عندما

يحملق في وجه ابنه، وأسدي إليه النصح بصفتي حماه، وأقول له:

«هناك أيام مقبلة أيضا بعد رحيل فينغ شيا، انسَها قدر المستطاع».

كان كوقن يبلغ من العمر ثلاث سنوات يومذاك، ويجلس هذا الطفل على المقعد ويهز ساقيه، ويستمع باهتمام شديد إلى الحديث الدائر بيننا، ويفتح عينيه ويكورهما وتصبحان مستديرتين. يميل أرشي برأسه وينخرط في التفكير، وبعد لحظة، يقول:

«نصيبي من الحظ السعيد ضئيل، ويكمن في الحنين إلى فينغ شيا».

أعتزم العودة إلى القرية بعد ذلك، وأرشي يذهب إلى عمله أيضا، وننصرف سويا. وعندما عرجنا على الشارع، مشى أرشي مع جدار الحائط، وأمال رأسه، وسار على جناح السرعة كأنما يخشى أن يتعرف عليه أحد، وجر وراءه ابنه كوقن متعثر الخطى ويترنح جسمه. أشعر بأنه ليس من المناسب توبيخ أرشي الذي أصبح في حالة مزرية بعد رحيل فينغ شيا، ويصرخ جيرانه في وجهه عندما يرونه قائلين:

«امش ببطء، كوقن كاد يسقط على الأرض».

يهمهم أرشي ومازال يقفز في الهواء متقدما إلى الأمام، ويجر خلفه كوقن الذي يتمايل جسمه يُمنة ويُسرة، ويدير عينيه في كافة الجهات. وعندما وصلنا إلى منعطف في الطريق، خاطبت أرشي قائلا:

«يا أرشي، ارجع إلى بيتي».

أرشي تتسمر قدماه، ويرفع كتفه ويرمقني بنظرة، وأخاطب كوقن قائلا:

«يا كوقن، ارجع إلى بيتي».

يلوح كوقن بيده نحوي، ويقول بصوتٍ عال:

«مع السلامة».

أغشى المدينة دائما مادام عندي أوقات فراغ، ولا أتحمل المكوث في بيتي. كما أشعر دائما بأن المدينة هي بيتي مادام يقيم هناك كل من كوقن وأرشي. وعندما أرجع إلى القرية أشعر بالوحدة وعدم الراحة. كنت أصطحب كوقن إلى القرية مرات عديدة ويقيم فيها، ويمرح في القرية مفعما بالغبطة، ويطلب مني أن أساعده في صيد عصفور الدوري فوق الشجرة، وأبلغه أنني لست ماهرا في صيد العصافير، ولكن هذا الطفل يشير إلى أعلى، ويقول:

«أنت تتسلق الشجرة».

أقول:

«ربما أسقط وأموت، ألا تكترث بحياتي؟».

يقول:

«لا أريد حياتك، أريد عصفور الدوري».

يعيش كوقن حياته في القرية كما يحلو له، أما أبوه أرشي فيشقى ويتعذب حيث لا يستطيع فراق ابنه، وبعد أن ينتهي من عمله كل يوم يكون خائر القوى من شدة الإعياء، ومع ذلك يقطع مسافة أكثر من خمسة كيلومترات من أجل رؤيته. في اليوم التالي، ينهض من فراشه مبكرا، ويدلف إلى المدينة للعمل. شعرت بأن تصرف أرشي على هذا النحو ليس مناسبا، وفي الأيام المقبلة

كنت أرسل كوقن إلى بيته قبل هبوط الظلام، وكنت خاليا من الهم بعد وفاة جياشين، أذهب إلى المدينة، ويقول أرشي:

«يا أبي، أنت تقيم معنا هنا».

ولذلك مكثت في المدينة بضعة أيام، ويرغب أرشي من سويداء قلبه أن أقيم في بيته بصورة مستمرة إذا أردت ذلك، ويذكر دائما أن يضم بيته ثلاثة أجيال أفضل من جيلين، ولكنني لا أستطيع أن أجعل أرشي يعيلني، فإن يدي مازالت خفيفة وقدمي رشيقة، وأنا قادر على كسب المال، وأنا وأرشي قادران على كسب الرزق في الحياة، ولذلك عاش كوقن أياما مترفة جدا.

سار بنا دولاب الزمن على هذا النحو حتى رحل عن دنيانا أرشي، وكان ابنه يبلغ من العمر أربع سنوات. انحشر أرشي بين صفين من الألواح الإسمنتية حتى قضى نحبه، وحياة عائلة شيوه مكتوب عليها الشقاء والعذاب، فعندما كانوا ينقلون الألواح الإسمنتية لم يتنبهوا واصطدموا بتلك الألواح التي أحدثت بهم جروحا، وكان أرشي الوحيد الذي فقد حياته من جراء ذلك. وفي ذلك اليوم، كان أرشي ونفر من زملائه يحمّلون العربة الكارو بالألواح الإسمنتية، وأرشي يقف في مقدمة صف تلك الألواح، والرافعة ترفع أربعة ألواح، وحدث خطأ لا نعرف مصدره في الجانب الذي يقف فيه أرشي على غير المتوقع، ولم يدر بخلد أحد أنه في الداخل، بيد أنهم سمعوا فقط صراخه المدوي بصورة فجائية، ويقول:

«كوقن».

أبلغني زملاء أرشي أن صراخه بث الفزع في نفوسهم جميعا، ولم يخطر ببالهم أن أرشي يتمتع بمثل ذلك الصوت المدوي الذي

كاد يمزق ضلوع صدره، وقد شـاهدوا زوج ابنتي صاحب الرأس المائـل يلفـظ النفس الأخير، حيث جسـمه معلق على صف من الألواح الإسـمنتية، وانحصر جسـمه تماما عدا قدمه ورأسه، ولم يعثروا على عظام سـليمة، والتصق دمه ولحمه بالألواح مثل الغراء، وقالـوا إن رقبته كانت مسـتقيمة، وانتصبت فجأة عند وفاته، كما فتح فمه بصورة كبيرة عندما كان ينادي على ابنه.

كان كوقن يلهو في مكان ناء على ضفة البركة، ويرمي الحصى فـي الماء، وترامى إلى مسـامعه نداء والده قبيـل موته، والتفت برأسه، وخاطبه قائلا:

«أتكلفني بعمل أقوم به؟».

انتظر كوقن برهة، ولم يسـمع والده يستمر في تكرار النداء، ومن ثـم، رمى الحصى، وعرف أن والده لفظ أنفاسـه الأخيرة عندما نُقل إلى المستشـفى، ونادى أحد الأشخاص آنذاك كوقن، وقال:

«يا كوقن، يا كوقن، أبوك رحل عن هذه الدنيا».

لا يعرف كوقن ماهية الموت بالضبط، فيلتفت ويرد قائلا:

«لا أعرف».

ثـم لا يعيره اهتماما، ويسـتمر في قـذف الحصى إلى مياه البركة.

كنت في الحقل وقتئذ، وهرول نحوي وأبلغني أحد رفاق أرشي قائلا:

«أرشـي يوشـك على الموت، وتم نقله إلى المستشفى، أذهب بسرعة إلى هناك».

انفجـرت في البكاء فورا عندما سـمعت أن أرشـي تعرض

لحادث مؤلم، وحملوه إلى المستشفى، وقلت لزميله:

«نرفع أرشي بسرعة من بين الألواح الإسمنتية، لا يمكن نقله إلى المستشفى».

يحدق في وجهي بنظرة بلهاء، ويعتقد أنني مجنون، فأقول:

«من الصعب ضمان حياة أرشي إذا دخل ذلك المستشفى».

لقد توفى يوي تشينغ، وفينغ شيا في ذلك المستشفى، ولم يدر بخلدي أن أرشي يلقى حتفه فيه أيضا في نهاية المطاف. وأنت تتذكر أنني في حياتي شهدت تلك الغرفة الصغيرة التي يرقد فيها الموت ثلاث مرات، وفي داخلها رقد ثلاثة من أهلي، وأصبحت طاعنا في السن ولا أتحمل ذلك البتة، وعندما ذهبنا لتسلّم جثة أرشي، سقطت على الأرض بمجرد أن رأيت تلك الغرفة، وحملوني، مثل أرشي إلى خارج تلك المستشفى.

بعد وفاة أرشي، اصطحبت كوقن إلى القرية ليقيم معي، وفي اليوم الذي غادرنا فيه المدينة، أعطيت ذلك الجار الأدوات التي كانت في غرفة أرشي، وحملت بعض الأدوات الخفيفة عائدا إلى القرية، وكاد الليل يرخي سدوله عندما كنت أغادر المدينة، وأنا أسحب كوقن، وجاء الجيران يودعونني حتى ناصية الشارع، ويقولون:

«زرنا دائما في المستقبل».

انخرط في البكاء ثُلة من النساء، وتحسسن كوقن، وقلن:

«هذا الطفل مصيره مؤلم فعلا».

كوقن لا يحب أن يرى أولئك النسوة، وتنهمر دموعه، ويسحب يدي بقوة ويدفعني قائلا:

«نمشي، نمشي بسرعة».

كان الجو باردا آنذاك، وأسـير في الشـارع، وأسحب كوقن، وتعصف الريـح الباردة وتدهم رقبتي، وأشـعر بالبـرودة كلما مشيت، وتدور في ذهني الضوضاء والجلبة التي شهدتها أسرتي التـي لم يبـق فيها الآن سـواي أنا العجوز الطاعن في السـن، والطفل الغرير كوقن، وأشـعر بالمرارة في قلبي ولا أستطيع حتى أن أرسـل زفرة. أحدق في وجه كوقن وتغمرني الطمأنينة حقا، وهذا الطفل كان غير موجود أصلا، ووجوده أفضل من أي شيءٍ، والبخور المحترقة تفوح رائحتها في الوراء، ومن اللازم أن نعيش تلك الأيام على أحسن وجه.

نمشـي إلى دكان الشعرية في مكانٍ ما، ويصرخ كوقن بصوتٍ عال على حين غرة، ويقول:

«لا أتناول الشعرية».

تفكيري منهمك في همومـي وأحزاني، ولم أنتبه إلى كلامه، ويصرخ كوقن مرة أخرى عندما وصلنا إلى مدخل الدكان، ويقول:

«لا أتناول الشعرية».

بعد أن ينتهي من صراخه، يسحب يدي ويقبض عليها ويتوقف عن السـير، وأدرك ساعتئذ أنه يريد أن يأكل الشعرية. لقد بات هذا الطفل يتيم الأبوين، وعندما يريد أن يأكل سلطانية، يجب أن تشـتري له سلطانية. دخلنا إلى ذلك الدكان، وجلسنا، واشتريت سـلطـانية شعـرية صغيرة بحوالي تسعة (فن) (*)، ورأيته يلتهم الشعرية التهاما، ويأكل والعرق يتصبب من جبينه، كما أنه لحس شفتيه عندما غادرنا الدكان، وقال لي:

«أنحضر غدا ونأكل الشعرية مرة أخرى؟».

(*) فن: وحدة نقدية من العملة الصينية (1/100 من إيوان أو 1/10 من الجياو) [المترجم].

أطأطئ رأسي، وأقول:

«حسنا».

لم نمش مسافة طويلة، ووصلنا إلى أمام دكان الحلويات، ويجذبني كوقن بقوة، ويرفع رأسه، ويقول بنبرة حادة:

«كنت أريد حلويات أصلا، وعلى كل حال، لا أريد فقد أكلت الشعرية».

أدرك أنه يغير أساليبه لأنه يريد أن يدفعني لأشتري له حلويات، وتحسست النقود في جيبي، ولمست يدي فِنّين، ثم فكرت وتحسست النقود ثم أخرجت خمسة فن، واشتريت له خمس قطع من الحلويات.

يقول كوقن بعد أن وصلنا إلى البيت إنه يشعر بألم في قدميه؛ حيث قطع مسافة طويلة هكذا، ويشعر بالتعب من المشي الطويل. جعلته يمدد جسمه على السرير، وذهبت إلى المطبخ أسخن بعضا من الماء حتى يغطس قدميه بالماء الساخن. وبعد أن سخنت الماء وخرجت من المطبخ، وجدت كوقن دخل في النوم، وعلق قدميه على الحائط، وغط في نوم عميق. ضحكت عندما رأيت منظره على هذا النحو، وهذا الطفل يدرك جيدا كيفية الاعتناء بنفسه حيث يعلق قدميه اللتين تشعران بالتعب حتى يرتاح. وشعرت بدبيب الحزن في قلبي فورا لأنه لا يعرف أيضا أنه لم يعد يرى والده مرة أخرى.

بعد أن أويت إلى فراشي في مساء ذاك اليوم، كنت أشعر بالاختناق في قلبي، وقادني ذلك إلى الشعور بالارتباك أيضا، وعندما استيقظت وجدت مؤخرة كوقن وضعها على صدري، فأزحته بعيدا، ولم تمض فترة طويلة، وعندما بدأ النعاس يداعب

جفونـــي، حتـــى حرك كوقـــن مؤخرته فوق صـــدري، وأمد يدي وأتحسسها، واكتشـــفت أنه تبول على الفراش، وبلل البول جزءا كبيرا منه، ولا غرو أن يضغط بمؤخرته على صدري، وفكرت أن أجعله يضغط على أنفاسي.

في اليـــوم التالي، يتطلع هذا الطفل إلـــى رؤية والده، وأقوم بالفلاحـــة في الحقل، ويجلـــس كوقن على الممـــر الترابي، يلهو ويمرح كما يشاء، ثم يسألني بصورة فجائية:

«أأنت ترافقني حتى أعود إلى المدينة؟ أم يحضر أبي ويأخذني إلى هناك؟».

عندمـــا يرى أهالي القرية منظره المؤلم يطأطئون رؤوســـهم، ويقولون إنه يثير الشفقة حقا، ويخاطبه أحدهم قائلا:

«لا ترجع إلى المدينة».

يومئ برأسه، ويقول بنبرة حادة:

«أريد العودة إلى المدينة».

يـــرى كوقن أن أباه لم يحضر بعد مع قدوم المســـاء، ويشـــعر بالقلق، ويقلب فمه الصغير صعودا وهبوطا، ويتكلم بسرعة جدا، ولم أفهم كلامه تماما، وأعتقد أنه ربما يســـب الآخرين، وأخيرا يرفع رأسه، ويقول:

«لا يهم، إذا لم يحضر أبي ويصطحبني ونعود إلى دارنا، فأنت رافقني إلى هناك لأنني طفل غرير ولا أعرف الطريق».

أقول:

«اعرف أنه مات، لقد أظلمت الدنيا ولن يحضر بعد لمرافقتك، أليس كذلك؟».

كنت في مساء ذاك اليوم طريح الفراش، وجعلته يفهم ماهية

الموت، وقلت إن الأموات يتم دفنهم، والأحياء لا يرون والديهم مرة أخرى. ارتعدت أوصال هذا الطفل في البداية من شدة الخوف، بعد ذلك أدرك أنه لم يعد يرى أباه أرشي، وانخرط في البكاء، وألصق خده الصغير برقبتي، وسالت دموعه الساخنة على صدري، وراح يذرف الدموع بقوة حتى سقط في النوم.

بعد انقضاء يومين، فكرت أن كوقن يجب أن يرى قبر أرشي، ولذا أسحب يده ونسير إلى غرب القرية، وأخبرته عن مكان قبر جدته، وقبر أمه، وقبر خاله، ولم أشر إلى قبر أرشي بعد، ثم ما لبث أن مد يده وأشار إلى قبر أبيه باكيا، ويقول:

«هذا هو قبر أبي».

عشت أنا وكوقن معا لمدة نصف عام، حتى تم تطبيق نظام تحديد الحصة الإنتاجية على أساس الأسرة في القرية، وباتت أيامنا أكثر صعوبة ومشقة. وكان نصيب أسرتي من توزيع الأراضي عبارة عن قطعة أرض مساحتها مو ونصف مو. ولم يعد في جعبتي حيلة أن أندس بين أهالي القرية وأعمل كما كنت في الماضي؛ حيث أخلد إلى الراحة عندما أشعر بالتعب. أما الآن الفلاحة في الأرض تناديني بلا انقطاع، ولا يوجد أحد يضطلع بأعمالي الفلاحية عندما لا أذهب إلى العمل.

يشعر الإنسان بالوهن عندما تداهمه السنون، وأشعر بالألم في خاصرتي كل يوم، وعيني لا ترى الأشياء بجلاء. كنت في السابق أحمل شيالة الخضار على كتفي وأعرج على المدينة في هبّة واحدة. وفي الوقت الحاضر، أمشي وأستريح، وأستريح وأمشي، ويجب أن أشرع في العمل قبل انبلاج الصباح بساعتين، وإذا تأخرت لا يمكن بيع الخضراوات؛ فالطائر البطيء يطير قبل

غيره، واستمرار العمل على هذا المنوال جعل كوقن يتذوق الشقاء والعذاب، وهذا الطفل يجرني دائما من الفراش في أحلى أوقات نومـــي، وتقبض يداه بإحكام على سـلتين كبيرتـــين في الخلف، ويتبعنـــي بعينين نصف مغمضتين وندلف إلى المدينة. كوقن طفل رائع، وعندما ينفض النوم من عينيه تماما، ويرى الشـــيالة ثقيلة على كتفي، يقف دائما ويجعلني أســـتريح، ثـم يأخذ حبتين من الملفوف الصيني من تلك الســـلتين ويحملهما أمام صدره ويمشي أمامي، كما يلتفت دائما ويسألني:

«أليست الشيالة خفيفة بعض الشيء؟».

أجيب وقلبي مفعم بالغبطة:

«خفيفة جدا».

حديثـــي هذا عن كوقن كان عندما بلغ عامه الخامس، وقد أصبح مساعدي الماهر، ويتبعني حيثما ذهبت، ونعمل سويا، كما يجيد قطع عيدان الأرز، وقد أنفقت نقودا، وطلبت من حداد في المدينة أن يصنع له منجلا صغيرا، وفرح الطفل فرحا شـــديدا يومئذ، فكان يرافقني في الأيـــام العادية ونذهب إلى المدينة. وعندمـــا ندخل الحارة التي كانت تقطن فيها أســـرة أرشـــي، يلـــوذ هذا الطفل بالفرار فجأة ويبحث عن أترابه ويلهو معهم، ولا يعيرنـــي اهتماما مهما ناديت عليه. وفي اليوم الذي أبلغته فيه أننـــا نصنع له منجـــلا، ظل يلازمني طوال اليوم ويشـــد ملابســـي بقـــوة ولا يتركها، ويقـــف معي أمـــام دكان الحداد فترة طويلة، وعندما يدخل أحد الأشـــخاص يشير إلى المنجل ويخاطبه قائلا:

«هذا هو منجل كوقن».

يبحث عنه أترابه لكي يلهــو معهم ويلتفت إليهم ويتيه عجبا، ويقول:

«الآن ليس عندي فسحة من الوقت لأتحدث إليكم».

يريــد كوقن أن يحضــن المنجل الذي صنعــه الحداد عندما ينام، ولكنني أرفض، ولذا قال إنه يضعه أســفل السرير، وعندما يســتيقظ في البكور أول عمل يقوم به هو تحسس المنجل أسفل السرير. قلت له إن المنجل يصبح حادا كلما استخدمه، والإنسان يتمتع بالقوة كلما اجتهد في عمله. يحدق هذا الطفل في وجهي فترة طويلة، ويقول بصورة فجائية:

«وتتعاظم قوتي كلما كان المنجل حادا».

مازال كوقن طفلا غريرا، وطبعــا يقطع عيدان الأرز بصورة بطيئة جدا مقارنة بي، ولا يشــعر بالسعادة عندما يرى بأم عينه أنني أقطع تلك العيدان بسرعة جدا، ويخاطبني قائلا:

«يا فو قوي، كن بطيئا بعض الشيء».

أهالي القرية ينادونني باســم فو قوي، وكوقن يحذو حذوهم أيضــا، كما يناديني أيضا بجدي. وأشــير إلى عيدان الأرز التي قطعتها، وأقول:

«هذه العيدان قطعها كوقن».

يضحك كوقن مسرورا، ويشير إلى عيدان الأرز التي قطعها، ويقول:

«فو قوي قطع عيدان الأرز هذه».

كوقن في مرحلة الطفولة، ويشــعر بالإرهاق بسرعة، ويهرول دائما إلى الممر الترابي ويطرح جسمه، ويغفو غفوة، ويقول لي:

«يا فو قوي، المنجل ليس حادا».

مغزى كلامه أنه خائر القوى، ويستريح على الممر الترابي برهة، ثم ينهض واقفا مزهوا بنفسه كثيرا، وينظر إلي وأنا أقطع عيدان الأرز، ويقول بين حين وحين:

«يا فو قوي، لا تدس على سنابل الأرز».

يضحك العمال في الحقل المجاور عندما يرون قدمي تدوس الأرز. كما يضحك رئيس الفريق أيضا الذي بات طاعنا في السن مثلي تماما، ومازال يتولى منصب رئيس الفريق، وحصل على قطعة أرض مساحتها خمسة موات، على مقربة من أرضي لأن أفراد أسرته كثر، ويقول رئيس الفريق:

«هذا الصبي ذلق اللسان حقا».

وأقول:

«وذلك تعويض عن أمه البكماء».

تلك الأيام التي نعيشها تحمل في طياتها المرارة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ونشعر فيها بالتعب، والإرهاق، ولكن قلوبنا مسرورة حقا. أحتضن حفيدي كوقن ويعيش متدفق الحماسة والنشاط، ويكبر كوقن يوما بعد يوم، وأشعر بالطمأنينة أكثر فأكثر بصفتي جده، وفي الأصيل، أجلس أنا وكوقن على عتبة الباب، ونرقب الشمس تعلن الغروب، وقرص الشمس الوردي يتلألأ فوق الحقول، ونسمع أهالي القرية ينادي بعضهم بعضا. نربي دجاجتين في بيتنا تذرعان المكان جيئة وذهابا. وتربطنا الألفة والمودة، ونجلس معا، وحديثنا لا ينتهي أبدا، وأنظر إلى تلك الدجاجتين، وأتذكر دائما كلمات أبي في حياته، ثم أخاطب كوقن مرارا وتكرارا، قائلا:

«عندما تكبر تلك الدجاجة تصبح وزة، وتكبر الوزة وتصبح

عنزة، والمعزة تكبر وتصبح بقرة، ونحن نكسب نقودا أكثر فأكثر».

يقهقــه كوقن بعد أن يســمع كلامي، ويتذكر تلــك الكلمات تماما ويتغنى بها دائما عندما يأخذ البيض من حظيرة الدجاج مرات عديدة.

وهناك بيض كثير في بيتنا، ونغشــى المدينــة ونبيعه هناك. وأخاطب كوقن قائلا:

«ادخرنا النقود بصورة كافية، ونبتاع بقرة، وأنت تســتطيع أن تمتطي ظهرها وتلهو».

كوقن تشرق عيناه في التو عندما يسمع كلامي، ويقول:

«الدجاجة أصبحت بقرة».

منذ ذلك الحين فصاعدا، يتطلع كوقن بشغف إلى اليوم الذي نشتري فيه البقرة، ويفتح عينيه في البكور، ويسألني كل يوم:

«يا فو قوي، أتشتري البقرة اليوم؟».

في بعض الأحايين، عندما نذهب إلى المدينة كي نبيع البيض، أشــعر بأن كوقن مثير للشــفقة حقا، وأريد أن أشــتري له بضع قطع من الحلوى، ولكن كوقن يقول:

«نشتري قطعة تكفي، لأننا نريد أن نشتري بقرة أيضا».

يبلغ كوقن عامه الســابع في طرفة عين، ويشتد عوده بصورة كبيرة أيضا. وعندما حان موســم جنــي القطن هذا العام، أعلن مذياع القرية أن الأمطار تهطل في اليوم التالي، وشــعرت بقلق شــديد لأن القطن في أرضي قد نضج، ومياه الأمطار تفســده تمامــا، وفي الصباح الباكر، ســحبت كوقــن وعرجنا على حقل القطــن، وأخبرته بأنه يجب أن ننتهي مــن قطف القطن اليوم، ويرفع رأسه، ويقول:

«يا فو قوي، أصابني الدوار».

أقول:

«اجمع القطن بسرعة، وسوف تمرح وتلهو بعد قطف القطن».

يجني كوقن القطن فتـــرة طويلة، ثم يهرول إلى الممر الترابي ويمدد جســـمه، وأنادي عليه وأطلب منه ألا يطرح جســـمه على الأرض مرة أخرى، ويقول كوقن:

«أشعر بالدوار».

أريـــد أن أجعله يســـتريح قليلا، ولكن عندما يمدد جســـمه لا ينهض من مكانه، وأشعر بالغضب إلى حدٍ ما، وأقول:

«يا كوقن، اليوم لا ننتهي من جني القطن، ولا نســـتطيع شراء البقرة أيضا».

ومن ثم، ينهض كوقن واقفا، ويخاطبني قائلا:

«أشعر بالدوار الشديد».

نعمـــل حتى منتصف النهـــار، وأرى أننا قطفنا معظم القطن، وأشـــعر بالطمأنينة والراحة، ثم أســـحب كوقـــن ونعود أدراجنا لنتنـــاول الطعام، وشـــعرت بالارتباك عندما جذبـــت يد كوقن، وأتحســـس جبهته في الحال، ووجدت حرارتها مرتفعة بشـــكل مفـــزع. وأدركت أن كوقن مريض آنذاك حقا، كما أنني مشـــوش الذهن فعلا، فقد أجبرته على العمل، ورجعت إلى البيت وطلبت من كوقن أن يستريح في الفراش.

يقول أهالي القريـــة إن الزنجبيل يعالج الكثير من الأمراض، وقد غليت له ســـلطانية زنجبيل، ولكن لا يوجد ســـكر في بيتي، ففكرت أن أضع في الســـلطانية بعض الملح، ولكن شعرت بأنني سأســـبب مشـــكلات له بذلك، ثم هرولت إلـــى أناس آخرين في القرية، وطلبت منهم أن يعطوني قليلا من السكر، وقلت:

«بعد انقضاء بضعة أيام نبيع المحصول، وأعيد إليكم السكر».

يقولون:

«لا يهم، يا فو قوي».

جهزت حساء الزنجبيل، وجعلت كوقن يشربه، كما طبخت له سلطانية عصيدة، وراقبته حتى يأكل ويشبع، وتناولت الطعام أيضا، وبعد ذلك يجب أن أذهب إلى الحقل فورا، وأخاطب كوقن قائلا:

«نم، وتتحسن صحتك بالتأكيد».

أنصرف من باب البيت، وأشعر بألم دفين كلما فكرت في حالته الصحية، ولذا قطفت نصف قدر من النباتات القرنية الطازجة، ورجعت إلى البيت وطبختها ووضعت فيها قليلا من الملح. ونقلت المقعد إلى أمام السرير، ووضعت القدر المملوء حتى نصفه بالنباتات القرنية فوق المقعد، وطلبت من كوقن أن يأكل، ورأيته يتناول الطعام ويضحك، وسمعته يقول عند انصرافي:

«أنت لا تأكل».

رجعت أدراجي إلى بيتي مع قدوم الأصيل، وكنت انتهيت من جني القطن، وأشعر بالتعب الشديد الذي يجعل المرء يتنازل عن عظمته وكبريائه. الطريق ضيق من الحقل إلى البيت، وترتعش قدماي عندما وصلت إلى مدخل البيت، وأدلف إلى داخل البيت، وأنادي:

«يا كوقن، يا كوقن».

لم يستجب كوقن لندائي، واعتقدت أنه نائم، وتقدمت إلى مقدمة السرير، ووجدت جسمه مائلا فوق الفراش، ويفتح نصف فمه، وتستطيع أن ترى داخله حبتين من النباتات القرنية

لم تُمضغا بعد، فيدوّي طنين الاضطراب والتشـــويش في ذهني عندما أرى فمه مفتوحا هكذا، كما أنه ازرقت شفتاه. أهز جسمه بـــكل قوة، وأنادي عليه بكل قوة، ويتمايل جســـمه مرارا وتكرارا، ولا يقدم أي اســـتجابة. شعرت بالارتباك والحيرة، وجلست فوق السرير وانخرطت في تفكير عميق، وجال بخاطري أن كوقن ربما لفـــظ النفس الأخير، ولا أتحمل هـــذه الفكرة وانهمرت دموعي. أهز جسمه مرة أخرى، ولكن مازال لا يقدم أي استجابة، وفكرت أنـــه ربما مات فعلا. وهرعت إلى خارج البيت، ورأيت شـــابا من أهالي القرية، وقلت له:

«أرجـــوك، تعال وألق نظرة على كوقن، يبدو أنه رحل عن هذه الدنيا».

يحملق ذلك الشـــاب في وجهي فترة طويلة، وبعد ذلك يرجع رجلـــه ويدلف إلى داخل بيتي مهـــرولا، ويهز كوقن مرات عديدة أيضا، كما يضع أذنه على صدره ويســـمع باهتمام شـــديد فترة طويلة، ثم يقول:

«لم أسمع النبض».

تدفـــق عدد كبير من أهالي القرية إلى بيتي، وطلبت منهم أن يلقوا نظرة على كوقن، ويهزون جسم كوقن، ويسمعون الخفقان، ويخاطبونني بعد ذلك قائلين:

«لقد مات».

أتخـــم كوقن بحبوب القرنيات حتى قضى نحبه، وهذا الطفل غيـــر منفتح الشـــهية، وبيتي فقيـــر جدا، والأطفـــال في القرية يعيشـــون أيامهم أفضل منه؛ إنها النباتات القرنية التي ســـببت موته، وكوقن من الصعب أن يحصل على ما يســـتطيع أن يأكله.

أنا عجوز وذهني مشوش، طبخت كثيرا من حبوب القرنيات حتى يأكلها كوقن، وأصبحت جاهلا وغبيا بعد أن تقدمت بي السنون، وسببت له ضررا فادحا حتى جاد بالنفس الأخير.

عشـــت الأيام المقبلة وحيدا، وأشـــعر دائما بأن أيامي ليست طويلـــة، ولا يـــدري أحد كيف عشـــت تلك الســـنين الواحدة تلو الأخرى، ولكن أصبحت طاعنا في الســـن، ومازلت أشـــعر بألم شـــديد في خاصرتي دائما، ولا يزال يغشـــى على بصري، ولكن أذنـــي مرهفة جدا، وعندما يتحدث أهالي القرية، أعرف المتكلم على الرغم مـــن أنني لم أره، وفي بعـــض الأحايين، أنخرط في التفكير وأشـــعر بالحزن والألم حينا، وبالراحة والطمأنينة حينا آخر، لقد شـــيعت جنائز أفراد أســـرتي كلهم، لقد دفنتهم بيدي، ولا أشـــعر بالقلق على أحد عندما يداهمني الموت ذات يوم، كما أقنعت نفســـي عندما يحين دوري في الموت، ســـأودع هذه الدنيا وأنا مرتـــاح البال وهادئ النفس، ولا أفكـــر في حضور الدفّان، لأن أهالـــي القرية ســـيحضرون بالتأكيد ويدفوننـــي، ولن تفوح رائحة جثتي النتنة فلا يتحملها أحد، وســـيقوم الآخرون بدفني، ولكن ليس بلا مقابل، حيث أضع عشـــرة يوانات أسفل وسادتي، ولا يمكـــن أن أصرفها حتى إذا كنت أموت جوعا، ويعرف أهالي القرية أن تلـــك اليوانات تُعطى للدفّان الـــذي يقوم بدفني، كما يعرفـــون أيضا عنـــد موتي أنه يجب دفني مع زوجتي جياشـــين وسائر أفراد أسرتي.

عندما أفكر في حياتي أشعر بأنها مرت بسرعة جدا، وعشت أيامي بصورة عادية جدا، وكان أبي يتطلع إلى أنني أكسب المجد والشـــرف للآباء والأجداد، وتعتبر نظرته تجاه الآخرين مخطئة؛

فقد عشت حياتي على هذا النحو؛ ففي عنفوان شبابي اعتمدت على ما تركه الأجداد، وعشـــت فترة من الزمن معوّلا على سمعة وشـــهرة الأجداد، ومن الآن فصاعدا أعيـــش حياتي متجولا في كافـــة الأصقاع، وأتـــذوق طعم الحياة الطيب هكـــذا. أنظر إلى الأشـــخاص الذين عاشـــوا حولي مثل لونغأر، وتشون شينغ، لقد عاشـــا فترة مـــن الزمن، ثم فقـــدا حياتهما فـــي نهاية المطاف. والإنسان الشريف يجب أن يكون طيبا عادة؛ يكسب هذا ويكسب ذاك، يكســـب مرات عديدة حتى يعوض حياته، وإذا تحدثت عن نفســـي، فليس عندي طموحات كلما أصبحت مشوشا، وعلى كل حال عمري مديد، ورحل عن دنياي الأشـــخاص الذين عرفتهم، ماتوا الواحد تلو الآخر، وأنا مازلت على قيد الحياة.

فـــي العام التالي لوفاة كوقن، كنـــت ادخرت المال الذي يكفي لشـــراء البقرة. وشعرت بأنه يجب شـــراء البقرة بعد أن ارتأيت أنني سأعيش بضعة أعوام قادمة. والبقرة تساوي نصف إنسان، فهـــي تســـتطيع أن تعمل بدلا مني، وتكون رفيقـــا لي في أوقات الفـــراغ، وأتجاذب أطراف الحديـــث معها عندما أشـــعر بالهم والحزن، وأسحبها على ضفة النهر لتأكل الحشيش كأنما أسحب طفلا.

وفي ذلك اليوم الذي اعتزمت فيه شراء البقرة، خبأت النقود في صدري ومشـــيت إلى شـــين فنـــغ التي تضم ســـوقا ضخما للأبقـــار. وفي طريقي إلى هناك، مـــررت بقرية مجاورة، ورأيت مكان التشـــميس محاطا بكوكبة من الأشـــخاص، وعرجت على هـــذا المكان لألقي نظـــرة عليه، ورأيت هذه البقـــرة تنبطح على الأرض وتميل رأســـها وتلحس بشـــفتيها وتسيل دموعها، ويوجد

بجوارهـــا رجل نصف عارٍ يجلس على الأرض ويشـــحذ ســـكين الجزار ويصدر صريرا. ويناقش المحيطون بالمكان أفضل طريقة لطعن البقرة بالســـكين. رأيت تلك البقـــرة العجوز تبكي في ألم شـــديد، ولا غرو أن قلبي لا يحتمل ذلـــك. فكرت مليا أن البقرة تثير الشـــفقة والرحمة فعلا؛ حيث تئن من شـــدة التعب وتعيش في الإعياء لأنها تعمل طـــوال حياتها من أجل الآخرين، وعندما أصبحت طاعنة في السن ووهنت قوتها، يذبحها الناس ويأكلون لحمها.

لم يطاوعني قلبـــي أن أرى البقرة وهي تُذبح، وغادرت مكان التشـــميس وواصلت السير إلى شـــين فنغ. ومشيت على الدرب طويـــلا وقلبي لا يهدأ أبدا، وظل معلقا بهـــذه البقرة التي أدرك أنها ستموت وتنكس رأسها في بركة من الدموع.

أشعر بالاضطراب الشديد في قلبي كلما مشيت على الطريق، وبعد ذلك فكرت أن أشتري هذه البقرة بسرعة. وغيرت وجهتي في التو، ورجعت إلى مكان التشـــميس حيث قيدوا أرجل البقرة، واندفعت نحو الرجل الذي يشحذ السكين وقلت له:

«حسنا، حسنا، أريد أن أشتري هذه البقرة».

يشـــير إصبع ذلك الرجل إلى السكين الحاد، ويرمقني بنظرة محدقة، ثم يسألني:

«ماذا تقول؟».

أجيب:

«أريد شراء هذه البقرة».

يبتسم ابتسامة عريضة، كما ينفجر الأشخاص الذين بجواره في نوبة مـــن الضحك، وأدركت أنهم يســـخرون مني، وأخرجت

النقود من صدري ووضعتها في يده قائلا:

«عدّ، عدّ النقود».

أصاب ذلك الرجل مس من الجنون، ويحدق في وجهي مرارا وتكرارا، ويحك رقبته، ويسألني:

«أتريد شراء البقرة حقا؟».

لم أنطق بحرف بعد ذلك، وجلست القرفصاء أفك الحبال التي تكبل أرجل البقرة، وبعد أن نهضت واقفا، أربت على رأس البقرة. هذه البقرة ذكية حقا؛ فقد أدركت أنها لن تموت، وتنهض واقفة بصورة فجائية، وتكف عن ذرف الدموع. ملكت العنان، وقلت لذلك الرجل:

«أنت عدّ النقود».

يرفع ذلك الرجل النقود أمام عينه كأنما ينظر إلى سُمك ربطة النقود، وبعد أن يفحصها بعينه يقول:

«لا أعدّ النقود، اسحب البقرة، وانصرف».

أسحب البقرة وأنصرف، وهم يمرحون ويضحكون ويقهقهون خلفي، وسمعت ذلك الرجل يقول:

«اليوم كسبنا نقودا، اليوم تجارتنا رابحة».

البقرة تدرك بواطن الأمور، فعندما أسحبها وأرجع إلى بيتي، عرفت أنني أنقذت حياتها، وتتكئ على جسمي دائما، وتمنحني شعورا من المودة والألفة، وأخاطبها قائلا:

«أنتِ لا تشعرين بالغبطة هكذا، أنا أسحبك ونعود إلى البيت لأنني أريد منك أن تعملي، ولا أجعلك أبا أقوم على إعالته».

أرجع أدراجي إلى القرية وأسحب البقرة، ويلتف حولي أهالي القرية ويشاهدون الجلبة والضوضاء، ويقولون إنني رجل عجوز

مشــوش الذهن أعود إليهم بعد أن اشتريت هذه البقرة العجوز، ويقول أحدهم:

«يا فو قوي، أرى أن هذه البقرة عمرها أكبر من أبيك».

أخبرني الذين شــاهدوا البقرة أنها تســتطيع فقط أن تعيش لمدة سنتين أو ثلاث سنوات على أقصى تقدير، وفكرت أن سنتين أو ثلاث سنوات تعد كافية، وربما أنا لا أعيش طويلا هكذا، ومن كان يدري أننا نعيش ونشــهد هذا اليوم، ويشــعر أهالي القرية بالدهشة والاستغراب أيضا، حيث ذكر أحدهم قبل يومين أننا:

«عجوزان لا يعرفان الموت».

البقرة وصلت إلى البيت وتعتبر أحد أفراد أسرتي، ويجب أن أختار لها اســما، وقدحت زناد ذهني، وشــعرت أن اسم فو قوي مناســب لها، وقررت أن أطلق عليها اسم فو قوي، ونظرت إليها مرارا وتكرارا وشعرت أنها تشبهني، وشعرت بالزهو. وبدأ أهالي القرية فيما بعد يقولون إنني والبقرة متشابهان تماما، وأضحك بهدوء، وأعرف أن البقرة تشبهني منذ زمن.

البقرة فو قوي مثال نموذجي، ففي بعض الأحايين تعمل بجد واجتهاد بصورة جلواء، كما تتكاســل في العمل أيضا. والإنسان يتوانى في عمله دائما حقا، ولذا لا يجوز أن نلوم الأبقار، وأعرف الأوقات التي يجب أن تعمل فيها البقرة، والأوقات التي يجب أن تســتريح فيها، وعندما تشــعر بالتعب، أدرك أنها تئن من شدة الإرهاق أيضا، وأجعلها تخلد إلــى الراحة فترة من الزمن، وأنا أســتريح وأستعيد نشاطي وأشحذ همتي، والبقرة فو قوي يجب أن تعمل أيضا.

* * *

يتحدث العجوز وينهض واقفا، وينفض غبار مؤخرته، وينادي على البقرة العجوز بالقرب من البركة، وتنصاع تلك البقرة إليه وتمشي حتى تصل إلى جانبه وتنكس رأسها. يعلق الرجل العجوز المحراث على كتفها، ويشد عنان البقرة، ويمشي بخطوات وئيدة.

تلطخت أقدامهما بالطين والوحل تماما، وعندما يمشيان تهتز أجسامهما بصورة خفيفة. سمعت الرجل العجوز يخاطب البقرة قائلا:

«اليوم فلح يوي تشينغ وأرشي نصف مو (*)، وفلحت جياشين وفينغ شيا سبعة أو ثمانية (فن) (**)، وكوقن فَلَحَ نصف مو أيضا، وأنت تفلحين كم موا؟ أنا لا أقول، لأنني إذا تكلمت ربما تشعرين بأنني أسبب لك حرجا، وكلامي يجب أن يكون معقولا، أنت طاعنة في السن، وإذا تستطيعين حرث تلك المساحة من الأرض، يعني أنك تبذلين جهدا جبارا من أعماق قلبك».

يمشي العجوز والبقرة وينأيان بعيدا رويدا رويدا، وسمعت صوت الرجل العجوز الأجش المؤثر ينتشر في مكان ناء، ويتهادى صوته مثل النسائم في الأصيل المترامي الأطراف، ويصدح العجوز بالغناء:

«في شبابي أتجول وأتسكع،
وفي وسط العمر أريد التنقيب عن النفائس،
وفي الشيخوخة أكون كاهنا».

تتصاعد أدخنة المطابخ فوق أسطح بيوت المزارعين، وتتدثر

(*) المو: وحدة مساحة صينية تعادل 0.0667 هيكتار [المترجم].

(**) فن: وحدة المساحة في الصين تساوي 66.666 متر مربع، ومو واحد يساوي عُشر فن [المترجم].

وتختفي عن الأعين بعد أن تنتشــر أشــعة الشــمس في صفحة السماء.

امرأة تنادي طفلها، ويرتفع صوتها هنا وينخفض هناك. ويمر أمامــي رجل يحمــل برميل الروث، ويصدر عود الشــيال صوتا مدويا على طول الطريق. ويخيم الســكون على الحقول متباطئا، وتظهر الرؤية الضبابية في كافة البقاع، وتنحسر أشعة الشمس المشرقة.

أدرك أن الغســق الآن يتلاشى في طرفة عين، والظلام هبط من الســماء. ورأيت الأرض الفســيحة المترامية الأطراف تبرز للعيان صدرها المثمر، ويُعد ذلك مظهرا من مظاهر النداء يشبه نداء النسوة لأبنائهن، ودعوة الأرض للظلام أن يأتي.



د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

- رئيس قسم اللغة الصينية وآدابها - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- من مواليد المنصورية، مصر، 1959.
- خريج قسم اللغة الصينية بجامعة عين شمس في العام 1981.
- اختصاص بالصينولوجيا من دراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية.
- له مقالات باللغة العربية عن الأدب الصيني الحديث الكلاسيكي، ودراسة عن الأدباء الصينيين، وأخرى عن الأمثال الصينية والعربية باللغتين الصينية والعربية.
- ترجم المسرحية الصينية «شروق الشمس»، ونشرت في سلسلة «من المسرح العالمي»، وزارة الإعلام في الكويت، مايو 1988، العدد 224.
- راجع الترجمة الصينية لكتاب «الإمارات العربية المتحدة - شعب عريق ودولة فتية»، الصادر عن دار الثقافة والفنون في ديسمبر 1993، بكين، الصين الشعبية.
- ترجم كتاب «الصينيون المعاصرون» من الصينية إلى العربية، إصدار سلسلة «عالم المعرفة»، الكويت، العددان 210 و211.
- عضو اتحاد كتاب مصر وعضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة.



لي جيه

- من مواليد بكين - جمهورية الصين الشعبية في العام 1966.
- حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة من كلية طب العاصمة بكين، الصين الشعبية.
- من مسلمي جمهورية الصين الشعبية.
- تعلمت اللغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية، القاهرة.
- تدرس صوتيات اللغة الصينية وآدابها بقسم اللغة الصينية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- خبيرة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية - شعبة الدراسات الإسلامية في كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيفو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيفو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

العدد	العنوان	المؤلف
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي

ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس



البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	-	١٢	-	١٢	-	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت	١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ: / / ٢٠٠م**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت



أسماء وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص.ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرامكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص.ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص.ب 13683 - زنقه سجلماسه - بلفدير - ص.ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص.ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	-----	+973 17 617733	----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذيبة - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص.ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص.ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	-----	+964700776512 780662019 +964	----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City, NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	----	+218 217297779	----


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



يو هوا

- ولد في مدينة هانتشو بالصين الشعبية في العام 1960.
- عمل طبيب أسنان، ثم التحق بقسم الأدب في جامعة المعلمين في بكين، وبدأ الإبداع الأدبي والتأليف في العام 1983.
- كتب خمس روايات طويلة وست روايات متوسطة، ومن أهم أعماله: «مسافر في الثامنة عشرة من عمره»، و«خطايا على ضفة النهر»، و«هتاف وسط الأمطار»، و«الأشقاء»، و«اليوم السابع».
- تُرجمت بعض أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية، ونشرت في أكثر من ثلاثين دولة.
- حصل على العديد من الجوائز، منها: الجائزة الإيطالية «جرين زانا كافور» (1998)، وجائزة «فارس» الفرنسية (2004)، وجائزة كتب الصين للمساهمة الخاصة (2005)، والجائزة الفرنسية للرواية الأجنبية (2008).

على قيد الحياة

رواية «على قيد الحياة» ملحمة شعرية تصور قصة الصراع والوجود، وتترك فى نفوسنا أثرا عميقا من الخير والبر لا يمحى من ذاكرتنا عبر الأزمان والقرون. والأديب يو هوا يصف بطل الرواية (فو قوي) بأنه بطل الوجود الذي يتحلى بالصفة المميزة التي لم يستطع أحد أن يسلبها منه، وهي «إرادة الحياة».

كلمة «الحياة» في الرواية تتسم بالقوة الكامنة الزاخرة والقدرة على تحمل المسؤولية في الحياة، وتحمل السعادة والتعاسة، تحمل الشعور بالملل والضجر وغيرها من المشاعر والأحاسيس الناجمة عن صعوبة الحياة. لذا فإن شخصية البطل تجعلنا نعتقد أن الحياة تعد جزءا من المشاعر والأحاسيس الذاتية لكل إنسان، ولا تنتمي إلى أفكار أي إنسان آخر.

تبدأ الرواية بالبطل المزارع الفقير العجوز الذي يقابل الجوّال الذي يطوف بالأرياف ويجمع الأغاني الشعبية، ومن هنا يبدأ سرد حوادث وذكريات حياته الماضية التي تصف معالم الحياة الاجتماعية في الصين خلال القرن العشرين، ويعاني في الحياة الكوارث والأزمات، ولا يعرف سوى العذابات والصعوبات، غير أنه مفعم بالأمل والغبطة والتفاؤل، فالرواية لم تفسح مجالا لليأس والقنوط في حياة البشرية، حيث إن الإنسان يعيش الحياة من أجل الحياة ذاتها، وليس من أجل شيء خارج نطاق الحياة.

زبدة القول أن الرواية تشرح كيف عاش الشعب الصيني أيام الحرمان والشقاء والحياة الصعبة عشرات السنين، فضلا عن تجسيد المشاعر الحميمية بين الإنسان ومصيره، وهي المشاعر الأكثر تأثيرا في حياة الإنسانية.



ISBN: 978-99906-0-442-9

رقم الإيداع: 2015/037


Exclusive
For
www.ibtesama.com